



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢٢٨١

المملكة العربية السعودية لقد تم تصويب ما أوصت به لجنة المناقشة .

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القري

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا العربية

فرع الأدب

المناقشان

أ.د. عبدالله الغبادي أ.د. ابراهيم الحارثي

المشرف

أ.د. عبد الحكيم حسان عمر



سعر الحجاء الاجتماعى فى العصر العباسى

من ٢٣٢ - ٤٤٧ هـ

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة فى الأدب العربى
إعداد

هنيف السعيد ابن الحارثي

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد الحكيم حسان عمر

١٤١٣ - ١٤١٤ هـ

١٩٩٣ - ١٩٩٤ م

ملخص البحث

عنوان البحث :

شعر الهجاء الاجتماعي في العصر العباسي من ٢٣٢-٤٤٧هـ، يتضح من خلال هذا البحث أن شعر الهجاء الاجتماعي، أصبح غرضاً من أغراض الشعر العربي بعامه والشعر العباسي خاصة، فهو يعالج الحياة الاجتماعية ويتفاعل معها، وقد كان في مجمله يبتعد عن التوعر والغموض، حيث اتجه إلى اللغة السهلة التي تقرب من الشعبية في بعض الأحيان .

ولم يتكلف في الصنعة، بل نجد الصورة الفنية تأتي عفويًا، غير أن أهم ما يجده الصدق، فهو يعبر عن خلجات النفس الاجتماعية وينقلها بصدق ووضوح .

انظم البحث في ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتمهيد، وتتلوها خاتمة، ثم الفهارس الفنية .

تحدثت في المقدمة :

عن أهم الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع .

أما التمهيد :

فتحدثت فيه عن أهم العوامل التي أدت إلى بروز هذا الغرض الشعري، حيث كان نتيجة للتخلل من القيم الدينية والحلقية .

وفي الفصل الأول :

تناولت الظواهر التي تظهر فيها رقة الدين والتخلل من القيم الدينية، وكان في خمسة مباحث هي :

١ - اللهو . ٢ - وصف الخمر . ٣ - في ذم المرأة .

٤ - في التنجيم والشعوذة .

أما الفصل الثاني :

فقد انصب الحديث فيه على أبرز الظواهر التي تبين مدى ما وصل إليه بعض فئات المجتمع من تحلل خلقي، وكان على ثمانية مباحث هي :

١ - التنكر . ٢ - اللؤم . ٣ - النفاق . ٤ - الغيبة والنميمة والشااية . ٥ - الكذب . ٦ - الحسد . ٧ - اللحن والحضاب .

٨ - الجبن وقصر الهمة .

وأخيراً الفصل الثالث :

تحدثت فيه عن الإقبال على الماديات والحرص على المال، واشتمل على ثلاثة مباحث هي :

١ - أثر المال في العلاقات الاجتماعية . ٢ - البخل . ٣ - ظاهرة الكدية .

الخاتمة :

بينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة . وأخيراً ذيلته بالفهارس الفنية [فهرس القوافي - فهرس الأعلام - المصادر والمراجع -

فهرس الموضوعات] .

عميد كلية اللغة العربية

د. سعد حمدان القاسبي

المشرف

أ. د. عبد الحكيم حسان عمر

الباحث

ضيف الله سعد الحارثي

شكر وتقدير

شكر وتقدير

الحمد لله الذى أنعم على عباده بنعمة العلم والمعرفة والصلاة والسلام على من زاده الله علما ومعرفة ، والشكر له عز وجل الذى أعاننى على اخراج هذا البحث .

وبعد :

فأشكر أستاذى الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان عمر ، الذى كان لتوجيهاته السديدة الأثر الكبير فى توجيهى الوجهة الصحيحة كى يخرج هذا البحث فى صورة هى أقرب الى الكمال . كما وأشكر له قبوله الاشراف على هذه الرسالة .

كما أسجل الشكر الجزيل لسعادته ، تقديرا لما بذله من جهد ، واكبارة لدمائة خلقه ، واعترافا بآرائه البناءة وتوجيهاته القيمة ، فى اخراج هذا البحث .

كما أشكر جامعة أم القرى ، التى أتاحت لى فرصة مواصلة الدراسة ، ممثلة فى كلية اللغة العربية وعلى رأسها سعادة عميد الكلية الدكتور/محمد مريسى الحارثى ، وقسم الدراسات العليا العربية ورئيسه سعادة الدكتور/ سليمان بن ابراهيم العايد ، لما بذلاه ويبدلانه فى سبيل تذليل العقبات وتوفير الامكانيات والمتطلبات اللازمة للدارسين وحثهم على مواصلة البحث العلمى الرصين ، ليكونوا لبنات خير فى بناء صرحنا الحضارى ، وليسهموا فى نهضتنا العلمية الحديثة .

(٥)

وأشكر الأستاذين الفاضلين عضوى المناقشة اللذين تفضلا مشكورين
بقراءة هذا البحث والحكم عليه . والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه خير
الدنيا والآخرة انه سميع مجيب .

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذى تتم بنعمته الصالحات ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد سيدنا محمد وآله وصحبه الأبرار .

وبعد :

فالشعر ديوان العرب بحق ، ولازال أمينا على قيم الأمة ، ومرآة عاكسة لحياتها ، فعن طريقه نستطيع الاستدلال على تاريخ الأمم وارتها الثقافي وأعرافها الاجتماعية وتقدمها العلمى .

ولما كان الشعر من أهم عوامل تكوين الشخصية الأدبية ، فقد اعتمد عليه الباحثون ، ليقفوا على عمق فكر الأمة فى الماضى والحاضر ، والتنبؤ بما ستؤول اليه الحياة فى المستقبل .

من هذا المنطلق اهتم الباحثون بالشعر فى أدب العرب على مر العصور الأدبية .

ولقد كان شعر الهجاء الاجتماعى فى العصر العباسى ، موضوعا من موضوعات الشعر العربى بعامه والعباسى بخاصة ، فقد اتجه هذا الشعر الى نقد الظواهر الاجتماعية السيئة ، التى تسيء الى العقيدة والأخلاق والعادات وتلحق بالمجتمع من الأذى ما يقوض دعائمه .

ولما يمتاز به شعرنا العربى منذ القدم من قيم وابداع فنى أصيل ، فقد أقبل كثير من الباحثين على دراسة جوانبه المختلفة ، ورغم ذلك فلازال هناك جوانب عديدة تتسع لكثير من الأبحاث .

وأحسب أن شعر الهجاء الاجتماعي واحد من هذه الجوانب التي تستحق الدراسة والبحث ، حيث ان شعر الهجاء الاجتماعي لم يحظ باهتمام الباحثين ، فلم تظهر دراسة تبين لنا ما يحويه هذا الشعر من نواح فنية ، وما يعالجه من ظواهر اجتماعية ، في حين ظهر كثير من الدراسات في أغراض الشعر العربي من مديح وفخر ووصف ورتاء وغزل وغير ذلك من الأغراض . ويمكنني أن أعزو السبب في ذلك الى أن هذا الشعر كان عبارة عن نقداً عابرة لمظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، لم يتعد عدد أبياتها أصابع اليد ، كما أن الظواهر التي عالجها ، كانت في أغلبها ظواهر مستحدثة ، فرضتها الحياة الجديدة ابان العصر العباسي .

ومع ذلك فان شعر الهجاء الاجتماعي استطاع أن يفرض نفسه ، ويحتل مكانه بين أغراض الشعر في العصر العباسي .
وشعر الهجاء الاجتماعي هو موضوع البحث الذي قمت بدراسته ، وهو مصطلح أدبي يهدف الى نقد بعض مظاهر الحياة الاجتماعية .
ولقد واجهت صعوبة في تحديد البيئة والزمن ، الى أن استقر بي الأمر الى تحديد العصر العباسي بيئة ، ومن منتصف القرن الثالث الى منتصف القرن الخامس زمتنا لهذه الدراسة لأن شعر الهجاء الاجتماعي بلغ قمة ازدهاره خلال هذه الفترة .

فالشعر بخاصة والأدب بعامة ، لا يخرج عن كونه قيمة انسانية لا يمكن حدها بزمان ، الا بالاحتكام الى طغيانها في فترة دون سواها .

أما الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع فأوجزها فيما يلي :
(١) أن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، كانت تزخر بظواهر انحراف متعددة تحتاج الى من يبرزها ويوضحها .

(٢) تصدى شعر الهجاء الاجتماعي لتلك الظواهر وعراها .

(٣) برز الشعر الاجتماعي كغرض من أغراض الشعر في العصر العباسي .

(٤) كان هذا الشعر تعبيرا عن وعى الأمة ونضوجها فكريا وثقافيا .
 (٥) يمكننا من خلال هذا الشعر أن نحكم على أخلاق وعادات المجتمع .
 أما منهج الدراسة في هذا البحث ، فيدور حول النص الشعري ،
 حيث اخترت للتعامل مع النصوص منهجا يصدر عن النصوص الشعرية
 موضوع الظاهرة ، بمعنى أنني فضلت ألا أطرح قيما نقدية جاهزة على الشعر
 الذى نحن بصده .

ولعل البحث بذلك سيفقد بعض بريق هذه المصطلحات ، ولكن لا بأس
 اذا كانت الحقيقة النقدية ممثلة للظاهرة الشعرية تمثيلا حقيقيا .
 ولقد اعتمد في دراسة النصوص على اللغة الشعرية مدخلا ، باعتبارها
 محورا تنتظم فيه الألفاظ ، وهذه الدراسة استلزمت منى أن أطرح العلوم
 الاجتماعية والتاريخية جانبا ، الا ما استدعاه النص المدروس .
 فمنهجنا اذا هو المنهج النصى الذى ينطلق من النص ويعود اليه ،
 فى حركة دائرية ، بهدف تعميق دراسة الظاهرة النقدية موضوع هذا البحث .
 وقد اعتمدت على مجموعة كبيرة من الدواوين الشعرية ، فضلا عن
 المجاميع الشعرية ، وكتب الأدب المتعددة .

واتضح من البحث أن هذا الشعر لم يكن مرتبطا بالمناسبات ، ولكنه
 يمثل جانبا من جوانب الحياة المضطربة ، التى تحمل هموم المجتمع وما يعانىه
 من ضيق وحرمان ، وما فرض عليه من مظاهر منحرفة ، وفى نفس الوقت فان
 هذا البحث قد نبه الى خطر تلك الانحرافات الدينية والخلقية ، وما يترتب
 عليهما من أضرار لفئات المجتمع المختلفة .

ولذلك فقد اقتضت خطة البحث فى صورته النهائية أن تكون على

النحو التالى :

تم تقسيم البحث الى ثلاثة فصول يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة .

التمهيد :

وهو توطئة للولوج الى البحث ، حيث تحدثت فيه عن العوامل التي أدت الى بروز هذا الغرض من الشعر نتيجة للتحلل من القيم الدينية والخلقية.

الفصل الأول :

وقد تناول الظواهر التي تظهر فيها رقة الدين ، بل التحلل من القيم الدينية والخروج عن العقيدة.

وقد انصب الحديث فيه على ظاهرة المجون ، مبتدئاً بالحديث على اللهو بشكل عام والخمر بشكل خاص ، ثم انتقل الحديث الى المرأة ودورها في الحياة الالهية .

كما تناول الحديث ظاهرة الشعوذة والتنجيم .

أما الفصل الثانى :

فقد تناول الظواهر التي تبين مدى ماوصلت اليه بعض فئات المجتمع من تحلل خلقى .

وقد قصرت الحديث فيه على أبرز الظواهر التي سادت فى العصر

العباسى ، وهى :

* ظاهرة التنكر .

* ظاهرة اللؤم .

* ظاهرة النفاق .

* ظاهرة الغيبة والنميمة والوشاية .

* ظاهرة الكذب .

* ظاهرة الحسد .

* ظاهرة اللحن والخضاب .

* ظاهرة الجبن وقصر الهمة .

وفى الفصل الثالث :

تناول الحديث الاقبال على الماديات والحرص على المال . وقد وضع
تأثير المال على العلاقات الاجتماعية وما ترتب على ذلك من شح وحرمان
للطبقة الدنيا .

أما الخاتمة :

فقد أوجزت فيها ما توصل اليه البحث من نتائج .
وبعد فهذا جهد المقل ، بذلت فيه أقصى غاية الجهد ، فان أصبت فهو
مطلبى وان قصرت ، ففى وقفات العلماء الأفاضل ما يسد النقص ويستتر
العيب .

ومهما حاول الباحث فى أدبنا العربى أن يلم شتات بحثه ، فلن يتأتى له
ذلك . وبهذا يكون مجال البحث مفتوحا على مصراعيه للبحث والتقويم .
ويعلم الله أنى حاولت ماوسعنى الجهد ، وما توافر لى من مصادر
ومراجع ، أن ألم بشتات موضوعى هذا ، بكل دقة وحرص وعناية ، مستمدا
العون من الله جل وعز .

وختاما أشكر الله على ما من به ، وأسأله التوفيق والسداد .
{وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله} ، وأصلى وأسلم على من بعث
رحمة للعالمين ، والحمد لله أولا وآخرا .

الباحث



١٢٤٤

التمهيد

التمهيد

أخذ العباسيون يعدون العدة للاستيلاء على الحكم عن طريق احتواء عناصر المجتمع المعارضة للحكم الأموي كالشيعة والموالي بشكل عام . ومع تقدم الزمن أخذت الدعوة تقوى والأنصار يزدادون يوماً بعد آخر ، وبخاصة في بلاد فارس والكوفة موطن الشيعة .

ولما قويت الدعوة وتفشى أمرها ، احتدم الصراع بينها وبين الدولة الأموية ، فكانت المواجهة المسلحة بين العباسيين والأمويين ، التي آلت الأمور بعدها إلى انتصار العباسيين فيها ، وعلان قيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ ، وتولى أبي العباس السفاح مقاليد الحكم .

ثم أخذت جيوش الدولة العباسية تتجه صوب الشام ، حيث كانت المواجهة بينها وبين جيش آخر للخلفاء الأمويين مروان بن محمد ، التي انتهت بانتصار الجيش العباسي واندحار الأمويين .

وكان من أهم الأحداث البارزة التي آلت إليها الأوضاع بعد قيام الدولة العباسية ، ما يلي :

أولاً : انتقال عاصمة الخلافة من دمشق في بلاد الشام إلى بغداد المجاورة لبلاد فارس .

ثانياً : اعتماد العباسيين على العنصر الفارسي في قيام دولتهم وابعادهم للعنصر العربي ، فقد كان قوادهم الذين حملوا لواء الدعوة لهم من الفرس .

ثالثاً : خيبة أمل الشيعة الذين كانوا يعتقدون آمالهم على العباسيين لاعادة الحكم في آل البيت (العلويين) .

رابعاً : أن الذين قاموا بالدعوة العباسية من العرب كانوا يمثلون أقلية بالنسبة لمن استعانوا بهم من الأعاجم ، في حين اعتمد الأمويون على العنصر العربي وحده في تثبيت دعائم حكمهم ، وأبعدوا الموالي .

وكما هو معلوم فقد تأثر المجتمع الاسلامى بعد فتح بلاد فارس والشام ومصر بما فى تلك البلاد من حضارات ، حيث اتخذ المسلمون دمشق عاصمة للخلافة ابان الحكم الأموى ، غير أن ذلك التأثر لم يظهر بشكل لافت ، كما حدث بعد نقل الخلافة من دمشق الى بغداد ، بعد تولى العباسيين زمام الحكم ، حيث ظهر أثر الحضارة الساسانية فى كثير من الأخلاق والعادات وطرز البناء .

لقد بنى الخليفة المنصور مدينة بغداد على شكل مستدير مشاكلا فى ذلك المدائن ، أضيف الى ذلك النمط المعمارى فى القصور والبرك والأسواق والحمامات والسراديب والقباب ، والنقوش التى تحلى بها الشبائيك والأبواب وواجهات المنازل والمساجد .

ولاشك أن هذا التأثق فى العمارة ، مرده الى الترف والثراء الذى كان ينعم به عليه القوم ومن عاش فى كنفهم من المغنين والشعراء ، والكتاب فقد كانوا يغدقون عليهم الهدايا والهبات . ان هذا الثراء الفاحش وما صاحبه من مظاهر كالتأثق فى زخرفة المنازل ، والبذخ فى المطاعم ، ولبس فاخر الثياب ورش الروائح الزكية ، ومبالغة النساء فى ملبسهن وأناقتهن ، كان عاملا من العوامل التى ساعدت على كثرة ردود الأفعال بالنقمة على العباسيين .

فحديثنا عن شعر الهجاء الاجتماعى ، هو بالضرورة تصوير لردود أفعال المعارضة الاجتماعية .

لقد كان المجتمع العباسى مجتمعا مضطربا ، اختلت فيه المعايير ، حيث فسدت السياسة واختل الاقتصاد ، نتيجة لذلك .

وقد أدى تولى الموالى للحكم الى فساد الحياة الاجتماعية . فقد كان همهم تلبية مطامعهم وحسب ، وبث المجون ، حيث كثرت الجوارى والغلمان ، ودور اللهو ، التى ساعدت على الخلاعة والتهتك والانحلال ، يقول المعرى عن هذا المجتمع :

وجدت الناس فى هرج ومرج
غواة بين معتزل ومرجى
فشأن ملوكهم عزف ونزف
وأصحاب الأمور جباة خرج
وهم زعيمهم انهاب مال
حرام النهب أو احلال فرج (١)

واذا كان الواقع يتغير بتغير الزمن ، فان ذلك التغير ينبىء عن أحوال المجتمع ، ولهذا فعلاقات أفراده بعضهم ببعض توضح الخصال التى يمتاز بها ، وفى الوقت نفسه تدل على مدى تغير العمل الاجتماعى ، فاستجلاء تلك الخصال يدل على مدى التصور الفكرى والعلمى للمجتمع من عدمه .
لذا يعتبر الشعر الاجتماعى صورة اجتماعية ترسم مدى ماوصل اليه المجتمع من وعى فكرى ، وتقدم فى نظم الحياة ، وعلاقاته الاجتماعية ، وتكيفه مع طبيعة الحياة . وتتضح من خلاله خصائص السلوك الاجتماعى وصور القبح والرداءة فى المعاملات والأخلاق .
لم تكن الطبقة التى سادت المجتمع العربى قبل العصر الأموى واضحة بنفس الدرجة التى أصبحت عليها فيما بعد ، فقد تأثر المجتمع فى العصر العباسى تأثرا كبيرا بنظم الحياة الاجتماعية الفارسية وغيرها من حضارات الشعوب التى دخلت فى الاسلام .
قسم الدكتور شوقى ضيف المجتمع فى العصر العباسى ثلاث طبقات هى :

طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورؤوس التجار وأصحاب الاقطاع من الأعيان وذوى اليسار .

وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين .

ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى أثر تلك الطبقات أهل الذمة "(٢) .

ونلمح من هذا التقسيم أن نصيب الأسد من الثروة يعود الى الطبقة الأولى ، فقد كانت تعب فى النعيم ، وتنفق النفقات الكثيرة ، بل الكبيرة ، على شكل هبات وجوائز ، بالاضافة الى ما يصرفونه على حوائجهم وعلى من يقومون على خدمتهم ، وعلى ملذاتهم .

ولم تكن الطبقة الثانية بعيدة عن الأولى ، فقد كانت تحصل على حظوة كبيرة لدى الطبقة الأولى ، فالشعراء يحصلون على الجوائز والهبات ، وكذلك العلماء والأدباء ، كما يحصل المغنون والمغنيات على أكبر قدر من العطايا والجوائز .

أما الصناع فكانوا يجدون سوقا راجحة لهم ، فقد كانوا يقومون بصنع أثاثات المنازل والقصور وزخرفتها .

أما الطبقة الدنيا فتمثل عامة الشعب ، وهى التى تضطلع بالزراعة وبعض الحرف اليدوية والقيام على خدمة علية القوم .

ومما أثار حقد وحنق الطبقة الدنيا ، أن ماتنعم به الطبقتان الأولى والوسطى من ثراء يعود الفضل فيه اليها ، فى حين حرمت منه .

لقد كان الخلفاء والقواد يصرفون الأموال الطائلة على بناء وتشبيد القصور والمباني والبساتين والقباب والأروقة وزخرفتها وفرشها بأفخر أنواع السجاد .

يقول الطبرى : "أمر المتوكل ببناء الماحوزة ، وسماها الجعفرى ، وأقطع القواد وأصحابه فيها ، وجد فى بنائها ... وأنفق عليها - فيما قيل - أكثر من ألفى ألف دينار" (٣).

ولما فرغ المتوكل من بناء الجعفرى أقام الاحتفالات وجلب المغنين والمغنيات والممثلين والمحتالين ، للضحك والتسلية ، حيث كان المتوكل شغوفا بسماع الضحك الهزلى وبعض الحركات والأصوات التى يقوم بها الممثلون .

يقول الشابشتى : "دخل اسحاق فى يوم نوروز الى المتوكل ، والسماجة بين يديه ، وعلى المتوكل ثوب وشى مثقل ، وقد كثر أصحاب السماجة حتى قربوا منه للقط الدراهم التى تنثر عليهم ، وجذبوا ذيله ..." (٤).

ولأهمية المال ودوره فى بناء المجتمع فى شتى مناحى الحياة ، فقد ظهرت ملامحه فى العصر العباسى ، حيث انتشر الترف بين فئات المجتمع ، لكن هذا الثراء لم يستمر ، فقد تأثر بالاضطرابات السياسية والفتن الداخلية بالاضافة الى فساد النظام الاقتصادى ، حيث كان جباة الخراج يحرصون على استلاب الأموال من أصحابها دون وجه حق ، مما جعل الكثير من الأثرياء يخفون أموالهم خشية مصادرتها من قبل السلطة .

(٣) الطبرى ٢١٢/٩ .

(٤) الديارات ص ٣٩-٤٠ .

"ولذلك شاعت عادة خزن الأموال واخفائها في غير مظانها ، كالدفن في الأرض ، ونحو ذلك حتى حكوا أنه من حسن حظ أمير من بني بويه أن احتاج الى مال كثير يصرفه على الجند ، والا شغبوا ، فصادف أن رأى ثعبانا يجتبيء في السقف ، فأمر بالبحث عنه ، فوجدت غرفة فوق السقف ، وفوقها دور آخر علوى ، ووجدت هذه الغرفة مملوءة بالذهب المخزون في الخفاء ، ففرج ذلك كربه ، وأزال شدته ، وكم وجد في الحيطان وتحت الأرض من أموال مخزونة في القدور" (٥).

بل لقد تطور الأمر وأصبحت أموال الناس مباحة للحاكم في حياتهم وبعد مماتهم ، بحيث "إذا أفلت أحد من المصادرة حيا لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته" (٦).

ولعل ما يحفز هؤلاء الحكام للاستيلاء على أموال الناس ، وبخاصة الوزراء والقواد والتجار ، هو نمط الحياة المترفة التي يعيشونها ، والتي تتطلب أموالا طائلة لصرفها على جوانب حياتهم المختلفة .

ومن مظاهر التنعم والبذخ في المجتمع العباسي ظاهرة اقتناء القيان المغنيات . ففي بادىء الأمر كان الأرقاء يقومون بالخدمة في القصور والعمل في الصناعة والزراعة . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد بالغ الخلفاء في اقتناء الرقيق ، مجارة لملوك الشعوب الأخرى ، مما أدى الى انتشار تجارة الرقيق ، وأصبح لها سوق خاص ، يجلب فيها الرقيق من أجناس مختلفة كالحبشى والسندى والرومى والأفريقي والحراسانى والزنجى والبربرى . لذلك فانهم يتزعمون الى ثقافات وديانات متعددة ، ولهذا كان أثرهم واضحا على الحياة الاجتماعية .

(٥) ظهر الاسلام ٧/٢-٨ .

(٦) الحضارة الاسلامية ١/٢٢٠ .

فقد كانت الجوارى الحسان يبعن بأعلى الأثمان بحسب اتقانهن للحديث والغناء بالاضافة الى جمالهن الأخاذ ، حتى ان أكثر الراغبين في الشراء يذهبون الى دور النخاسين لمعاينة الجوارى الجميلات ، اللاتي يتلاعبن بألباب الرجال ، وينصبن شراكنهم لهم ، فقد كن بؤرة فساد في المجتمع ، بعد أن فتن الخلفاء والوزراء والقواد والشعراء والكتاب وغيرهم وملكن قلوبهم ، وقد امتد أثرهن الى المجتمع ، فلم يكن يتورعن عن بذل أنفسهن ، يقول الجاحظ "وربما قادهما التمويه الى التصحيح ، وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي الى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها ان استحل ذلك منها .." (٧). وان كانت هذه الظواهر ظواهر محدودة الا أنها توحى بوجود ماأشرنا اليه .

وفي خضم هذا المجتمع اللاهى شاع التغزل بالغلمان ، فقد دأب كثير من غير الأسوياء الى اقتناء المرد والتغزل بهم ، بل والتمتع بهم . وطبعى في مجتمع متغير كالمجتمع العباسى ، أن يفتن الناس فيه بالغناء ، ومسامرة القيان ومعاشرة المرد ومعاقرة الخمر ، لذلك اتجهوا الى الحانات والأديرة لكى يستمتعوا بالشرب والقصف ، "وقد دفع هذا الفساد الخلقى الذى كان يشيعه القيان والجوارى فى هذا العصر الى انتشار الغزل المكشوف الذى لاتصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعا ، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالا" (٨).

بالاضافة الى اجتهادات بعض الفقهاء فى العراق حول تحليل النبيذ . يقول ابن الرومى :

أحل العراقي النبيذ وشربه

وقال الحرامان المدامة والسكر

(٧) رسائل الجاحظ ١٧٤/٢ .

(٨) العصر العباسى الأول ص ٧٢ .

وقال الحجازى : الشرابان واحد

فحلت لنا بين اختلافهما الخمر

سأخذ من قوليهما طرفيهما

وأشربهما لافارق الوزر الوزر (٩)

وإذا كان اللهو قد انتشر فى العصر العباسى بعامة ، فقد تفشى فى عهد المتوكل بخاصة ، "فلم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ، ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ، مما قد استفاض فى الناس ، تركه الا المتوكل ، فانه السابق الى ذلك والمحدث له ، وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا ، فاتبعه فيها الأغلب من خواصه ، وأكثر رعيتيه ، فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود ولاافضال ، أو يتعالى عن مجون وطرب" (١٠).

لم يكن الاضطراب السياسى وسوء الحالة الاقتصادية وحدهما ، هما اللذان أثرا على الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى - وان كان لهما الدور البارز - فقد كان للعناصر الأجنبية التى أخذت تغزو المجتمع العباسى دورها فى صبغه بصبغة أجنبية ، فقد "ورث المجتمع العباسى كل ماكان فى المجتمع الساسانى الفارسى من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك مادفعت اليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فاذا الفرس المنتصرون يمعنون فى مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عبا ويمحتسون كؤوسها حتى الثمالة ، وحاكاهم من عايشوهم حتى أصبح الادمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضه على اجتنابها" (١١).

(٩) ديوانه ٩٨٣/٣-٩٨٤ .

(١٠) مروج الذهب ٨٦/٤ .

(١١) العصر العباسى الأول ص ٦٥ .

كل هذه العوامل وغيرها كانت السبب في صبغ المجتمع بصبغة لاهية .
 وإذا كان الموالي في العصر الأموي قد عوملوا معاملة فيها قسوة من
 قبل الحكام ، فلم تكن الحال كذلك لدى طبقة العلماء والمثقفين ، فقد كان
 العالم يشرف بعلمه سواء كان عربيا أو مولى . غير أن تلك المعاملة القاسية ،
 ولدت لدى الموالي كرها للعنصر العربي ، الذي كان يتعصب ضد الموالي ،
 ولهذا "كان يقابل هذه العصبية العربية عصبية أخرى من الموالي وخاصة
 الفرس . فقد تملكهم العجب كيف غلبهم العرب ، وعبر بعضهم عن هذا
 المعنى : بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر ، وكانوا يفخرون
 على العرب بمجدهم القديم ، وعزهم التالد ، وأنهم أهل الحضارة العظيمة ،
 ومن عرفوا كيف يسوسون الملك ، ويدبرون الحكم . وأنهم لما حكموا لم
 يكن لهم الى العرب حاجة ، ولما حكم العرب لم يستطيعوا أن يحكموا الا
 بمعونتهم" (١٢).

ولهذا لم يتردد الموالي في مساعدة العباسيين ، للاطاحة بالخلافة الأموية.
 لأن المنزلة الاجتماعية المتدنية للموالي كانت كفيلة لملء نفوسهم بالحقد
 والسخط على العنصر العربي . غير أن الوقت لم يكن مواتيا لظهار سخطهم
 ابان الخلافة الأموية ، فلما سنحت لهم الفرصة لم يتوانوا في التنفيس

عن أنفسهم ، عن طريق المشاركة في الدعوة والعصيان ، بل والمواجهة المسلحة .

وكما هو معلوم فقد أسفرت هذه المواجهة عن انقلاب جد خطير ، فبعد أن كان الموالي يقبعون في آخر الصفوف ، والعرب في مقدمتها ، أضحي العرب في مؤخرتها والموالي هم المسيطرين ولهم قصب السبق . فقد انتظم المجتمع العديد من النزعات الاجتماعية ، كان من أهمها وأخطرها النزعة الشعوبية التي انطلقت بعد زوال الحكم العربي ، حيث انبرى شعراء الموالي في تمجيد شعوبهم والوقوف في وجه العرب .

ولقد انطوت النزعة الشعوبية على اتجاه سياسي ، فهي تهدف الى اعادة دولتهم - وبخاصة الفرس منهم - والاطاحة بالحكم العربي .

لم يعر العرب الشعر الذي كان يتغنى بأجناد الفرس أهمية على اعتبار أنه فخر تقليدي ، كما كان يفخر شعراء العرب . غير أن طبيعة الحياة الاجتماعية وماواكبها من أحداث سياسية واقتصادية ، جعلت الموالي يهتبلون الفرصة لرفع أصواتهم في جرأة للحط من قيمة العرب ودمهم ، واعلاء مكانة الموالي ، ولو لم يكن الخلفاء يقفون موقفا فيه لين وعدم اكتراث ، لما تجرأ هؤلاء الشعوبيون على الانتقاص من العرب ودمهم .

ان موقف الخلفاء المجامل لهؤلاء الموالي مبعثه رد الجميل لهم ، لأنهم ذوو فضل عليهم في انتصارهم وتوطيد دعائم ملكهم .

كما أن الافتتان بالحضارة الفارسية وماتتيحه من ترفيه وعبث ولهو ، كان مبعثا من مبعث الدعوة الى الفارسية .

أما الزندقة ، فقد كانت اتجاها وثيق الصلة بالشعوبية ، حيث كان الزنادقة يرمون الى تقويض دعائم الحضارة العربية الاسلامية ، عن طريق الانتقاص من العرب والتهجم عليهم ، وعلى النقيض من ذلك يدعون الى رفعة شأن الفرس .

وعندما أدركوا أن العرب كانت في جاهلية جهلاء قبل الاسلام ، وأن السبب الرئيسى فى تسنمهم لهذه الحضارة هو الاسلام ، أخذوا يكيدون لهذا الدين - الذى مكن العرب وجعلهم يتبوأون المناصب الرفيعة - عن طريق نشر الديانات الفارسية من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، بل والتعصب لهذه المذاهب . وهنا اقترن تعصبهم للفرس ضد العرب بالتعصب للديانات الفارسية ضد الاسلام .

فى خضم هذه الحياة المضطربة ، سياسيا واقتصاديا فقد تمكن الموالى من اختلاس أموال الشعب والسعى بين الحكام . لأن مثل هذه الأوضاع لم تكن ذات صبغة سياسية وحسب ، ولكنها انسحبت على المجتمع . يقول المتنبى :

وانما الناس بالملوك وما

تفلح عرب ملوكها عجم

لاأدب عندهم ولاحسب

ولاعهود لهم ولاذمم (١٣)

وإذا كان الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد والأثرياء يرتادون الملاهى ويجيون لياليهم بالقصف ومعاقرة الحمر وسماع الغناء ، فان المتنفس الوحيد لعامة الشعب هو التجمع حول القصاص وسماع الغناء .

فقد كان القصاصون ينتشرون فى الطرقات وحول الجوامع ، "وقد كان ببغداد رجل يتكلم على الطريق ، ويقص على الناس ، بأخبار ونوادر ومضحك ، ويعرف بابن المغازلى - وكان فى نهاية الحذق لايسطيع من يراه ويسمع كلامه أن لايضحك" (١٤).

(١٣) ديوانه ٥٩/٤ .

(١٤) رسائل الجاحظ ١٧٤/٢ .

وبعد فشعر الهجاء الاجتماعى غرض من أغراض الشعر العربى المتوارثة، ولم يكن الغرض من شعر الهجاء اظهار السخط وابرار صور القبح وتجسيد المثالب وحسب ، بل كان من أهدافه الاصلاح والتقويم .
ويبدو أن الاحساس بالحيف والانحراف فى السلوك والعادات ومشاعر السخط تجاهها ، تتزاحم فى نفس الشاعر ، وتتفاعل فتظهر على شكل هجاء فيه استنكار وتوضيح للوجه السلبى للمهجو . واذا كان الهجاء فى العصر الجاهلى غرضا ثانويا ، ولم يتطرق اليه الشعراء الا لماما كالهجاء الذى يعقب الأيام الجاهلية ومحاولة ثلب الأفراد وابرار معايب القبيلة ، فقد وضع فى العصر الأموى الأثر الاسلامى على صور الهجاء مثل الكفر والخمر والاصرار على الفاحشة ، غير أن الهجاء فى العصر العباسى اتجه لنقد بعض صور المجون واللهو والتحلل الخلقى والعادات والأخلاق الذميمة ، واختلال المعايير الاجتماعية .

لذا يمكننا القول ان شعر الهجاء الاجتماعى يوضح لنا حقيقة جانب من تجارب الشعراء فى العصر العباسى ، حيث تظهر فيه بشكل واضح مشاعر السخط والألم على الأوضاع الاجتماعية.

ولهذا فقد قصر البحث الهجاء هنا على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التى يابأها الذوق وتنفر منها النفوس ، كظاهرة اللهو والمجون التى اتخذت أبعادا أخلاقية جد خطيرة على المجتمع ، والتحلل الخلقى مثل التنكر واللؤم والنفاق والغيبة والكذب والحسد والجبن ، والجشع والبخل والكدية .

فشعر الهجاء الاجتماعى يصور المعاناة التى يعانى منها أفراد المجتمع وطوائفه ، والحيف الواقع عليهم من الحكام ، كما أنه يصور الانحراف فى السلوك لبعض أفراد المجتمع .

ان هذا اللون من الشعر يعطى صورة واضحة للفكر العربى الناقد ، فمن خلاله يمكننا أن نتعرف على الشعور بالآلام وهموم المجتمع .

ولقدرة الشعر على تصوير واقع الحياة الاجتماعية ، فقد وقف في وجه كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية التي خرجت عن المألوف وتعاليم الدين ومراعاة الحقوق الانسانية .

وكلما أتقن الشاعر فنه وأحكم صنعته ، وصور موضوعه تصويرا دقيقا ، كان ذلك أبلغ وأوقع في النفس ، وأسرع أثرا في مجتمعه ، فهو يصور هموم مجتمعه في صور مختلفة توافق الظاهرة ويجسد أثرها على الحياة الاجتماعية .

ويتميز شعر الهجاء الاجتماعي بالصدق ، فهو يعبر عن مواقف قائله ، وتجاربهم المختلفة المعبرة عن واقع مجتمعه ، وما يعتل في نفوسهم تجاه ذلك الواقع في صور واضحة وصادقة . لذا يتضح صدق وعمق شعر الهجاء الاجتماعي المعبر عن المشاعر والأحاسيس الذاتية ، وهذا ما لا يظهر بشكل واضح في بعض الأغراض الشعرية الأخرى ، التي ترتبط بالمناسبات كالمديح والفخر والرياء وغيرها ، لما فيها من تزييد وكذب ومبالغة .

وشعر الهجاء الاجتماعي مرتبط بطواهر اجتماعية يبين موقف المجتمع منها ، واستنكاره لها ، ولم يكن يقصد الى التكلف في الصنعة الشعرية ، كما هو الحال في فنون الشعر الأخرى التي تتطلب التفنن والتأنق في الصنعة ، بل التكلف فيها ، وتزويق الألفاظ .

وهنا يكمن الفرق في الدوافع بين شعر الهجاء الاجتماعي وغيره ، فشعر الهجاء الاجتماعي يميل الى المواجهة الحقيقية بين الظواهر الاجتماعية السيئة وبين المجتمع ، فشاعر الهجاء الاجتماعي يجسد ما يعانيه مجتمعه من قهر وظلم وتفكك وانحلال وجشع ، ويضع يده على مكانم الداء ومصدره ، حتى ينبه المجتمع الى خطورة ذلك الداء ، باعتباره عضوا فاعلا في المجتمع ،

فهو وان كان يعبر عما يعتمل بين جوانحه ، فانه يستجيب بذلك لما يشغل المجتمع ويقض مضجعه من هموم .
ولعل في هذا البحث ما يعطى صورة لواقع الحياة الاجتماعية في العصر العباسى .

الفصل الأول

التعمير العربي

التحليل الديني

- (١) اللهو .
- (٢) وصف الخمر .
- (٣) في ذم المرأة .
- (٤) في التنجيم والشعوذة

اللهو :

لقد انتشرت ظاهرة اللهو انتشارا واسعا، حتى أضحت ظاهرة اجتماعية تكاد تكون أبرز الظواهر الاجتماعية في العصر العباسي .

فقد كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، بيئة صالحة لظهور المجون ، بفعل عدة عوامل كانت تسود الحياة الاجتماعية في العصر العباسي كالأضطرابات السياسية وانتشار بعض العقائد المخالفة للإسلام والخلافات العرقية والثقافية بين طوائف المجتمع ، بالإضافة الى تسلط الموالى في المجتمع العباسي . "فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية ، وخاصة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة ، وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث ، ونقلوا جدهم من نظم سياسية ونحوها ، ونقلوا لهوهم من نبذ ومجالس غناء وغزل ، ومالى ذلك" (١).

ولقد ساعد على ذلك الثراء - الذى ترتب عليه تشييد القصور واتخاذ الجوارى والغلمان - وتقلص الوازع الدينى ، بالإضافة الى الانبهار نتيجة النقلة الاجتماعية الهائلة من المجتمع القبلى الى المجتمع المتحضر ، ذى الحضارات العريقة كحضارتى الفرس والروم .

كل تلك العوامل وغيرها كانت من أهم الأمور التى أدت الى شيوع المجون وانتشاره . يقول أحمد الحوفى : "أما فى العصر العباسى فقد كان عدد المجان كثيرا ، وكانوا يعمدون الى اللفظ العارى والتعبير المكشوف والوصف المفصل . فهل كان هذا نتيجة محتومة لتطور المجتمع فى نظم حياته ووسائل ترفيهه وثنائه الواسع؟ أو كان نتيجة خلط الفرس بالعرب وكثرة الموالى والاماء ، وماتقله الفرس الى العرب من ضروب اللهو والترف؟ الحق أنه كان نتيجة محتومة للأمرين معا" (٢).

(١) ضحى الاسلام ١١٢/١ .

(٢) تيارات ثقافية ص ٢٠٧ .

ولعلى أرى بالاضافة الى ماذكره الحوفى ، أن اللهو كان نتيجة لمؤثرات أخرى ، نتجت عن التطرف المذهبي فى الفكر والعقيدة مما أدى الى انتشار الزندقة بين بعض طوائف المجتمع .

ولقد كان لاقبال بعض الخلفاء على اللهو الأثر الكبير فى انتشاره ، يقول المسعودى عن شغف المعتمد باللهو : "كان المعتمد مشغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ، ومحبة أنواع اللهو والملاهى" (٣) .
ولأن الشاعر مرآة عصره ، فقد انعكست عليه هذه الانحرافات الاجتماعية ، فأخذ يصورها ، يقول ابن وكيع التنيسى فى مثل تلك الانحرافات :

لاتقبلن من الرشيد كلامه

واذا دعاك أخو الغواية فاقبل

ودع التزمت والتجمل للورى

فالعيش ليس يطيب بالمتجمل

واشرب مزعفرة القميص سلافة

من صنعة البردان أو قطر بل (٤)

وهذا يظهر مدى التباين بين ماينهى عنه الشاعر وبين مايعتمل فى قرارة نفسه ، حيث ينهى المخاطب عن الانصياع لكلام الأسوياء ويدعوه الى مجارة الأشرار ، ثم يؤكد على المخاطب أن يتخلى عن الوقار والتحلى بالأخلاق الفاضلة والمظهر الجميل ، لأنها ليست - فى مقياس الشاعر الظاهرى - مما يطيب ويهنأ بها العيش . وبعد أن هياً المخاطب ، عن طريق التقابل المثير بين نزعة الخير ونزعة الشر ، ودعوته الى ترك التدخين ، شرع يأمره باحتساء الخمر المعتقة من أيدي المهرة من صناعاتها فى الأماكن التى اشتهرت ببيعها ، فيها تطيب الحياة ويهنأ العيش .

(٣) مروج الذهب ٢٢٠/٤ .

(٤) ابن وكيع شاعر الزهر والخمر ص ٨٧-٨٨ ، اليتيمة ٣٨٣/١ .

وهكذا يقول الشاعر لأن بيئته قد أثرت على نتاجه الشعري ، فقد
شهرت تنيس باللهو والمجون ، يقول المقریزی في وصف أهلها : "...
وأخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة الى الرطوبة والأنوثة .. وأنه كان
يولد بها في كل سنة مائتا مئنت وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة
وأكثرهم يبيتون سكارى ..." (٥).

وفي خضم هذه الحياة اللاهية يتحدث أحمد بن أبي فنن فيقول :

جدد اللذات فالיום جديد

وامض فيما تشتتهى كيف تريد

واله ان أمكن يوم صالح

ان يوم الشرب . لا كان . عتيد (٦)

لقد تعمقت الحياة اللاهية في نفوس أبناء المجتمع ، بحيث لا يرون
حرجا في الدعوة اليها ولا الانكباب على ملذاتها ، فهذا أحمد بن أبي فنن
يدعو الى اللهو في أسلوب فيه حدة واصرار من الشاعر على المخاطب حيث
كرر فعل الأمر ثلاث مرات . ويبدو أن ادراك الشاعر لمضار اجتماعات
اللهو جعله يدعو عليها . ان هذه المفارقة بين الموقفين ، تدل على عدم
اقتناع الشاعر بالسدور في اللهو ، لأنه يدرك تمام الادراك مضاره . ورغم
اتسام أسلوب الشاعر بالمباشرة فقد حرص على الزينة اللفظية .

ويتحدث بديع الزمان عن لهوه وعزمه على المضى فيه ، فيقول :

قسما لازعزع الشيب

ب عن اللهو رتاعى (٧)

(٥) الخطط المقريزية ١٧٧/١ .

(٦) شعراء عباسيون ص ١٤٧ .

وعتيد : شىء عتيد معد حاضر ، وعتد الشىء عتادة فهو عتيد : حاضر .
اللسان (عتد) .

(٧) الرتع : الأكل والشرب رغدا في الريف . المحكم (رتع) ٣٥/٢ .

ويمينا لاتمثل
ت له فقعا بقاع
انما الدهر الذى يص
مدقنى حر المصاع
كالنى مدا وأجزىـ
ه من الحلم بصاع
فاغنم الأيام مأل
فيتها خضر المراعى
انما نحن من الدهـ
ر بواد ذى سباع
لاتدع من لذة العىـ
ش عيانا لسماع (٨)

يقسم الشاعر على مواصلة صبوته ، فيؤكد مضيئه فى لهوه وعدم
ارعوائه لتقدمه فى العمر ، بتكراره القسم وهذا ينبىء عما تحتجنه أحشاؤه
من اصرار وتصميم على الماضى فى الغى وعدم الارعواء . مبررا ذلك بقسوة
الدهر عليه حيث رمز اليه بغابة تعمرها السباع الضارية ، بحيث لايمكن
النجاة من بطشها ، لذا أخذ يدعو الى اغتنام العمر قبل فوات الأوان .
ويبدو لى من هذه الأبيات أن الشاعر متألم أشد الألم من بطش الدهر
رغم اعتداده بنفسه ، ووقوفه فى وجه التيار العاتى وقدرته على امتصاص
فورته بجلمه ، اذ يقول :

كالنى مدا وأجزىـ

ه من الحلم بصاع

لذا نجده يأمر المخاطب باهتبال الفرصة السانحة ، كلما عنت له ، فقد لا يجدها مرة أخرى ، ثم ينهاه عن ترك التمتع بها، حتى لا تصبح حديثا وخبرا يتناقل .

ولاشك أن هذه الحياة اللاهية تتطلب وجود أماكن تمارس فيها ، ويروج عبرها المجون . فهو يرى أن الدنيا لأمان لها، فهي كواد مسبح ، لا يأمن الانسان فيها على نفسه ، لذا فليبادر المرء بانتهاز فرصة الحياة فيها ، فيغترف من ملذاتها .

لقد بلغ التهتك الأخلاقي حدا لم يتورع معه ممارسوه عن الحديث عنه بأساليب تختلف من شخص لآخر .

يقول الفضل بن العباس بن المأمون عن لهوه وتهتكه في "دير مرمار" :
أنضيت^(٩) في سر من رى خيل لذاتي

فقلت فيها منى نفسى وشهوأتى

عمرت فيها بقاع اللهو منغمسا

فى القصف ما بين أنهار وجنات

بدير مرمار اذ نحى الصبوح به

ونعمل الكاس فيه بالعشيات

بين النواقيس^(١٠) والتقدیس آونة

وتارة بين عيدان ونايات

وكم به من غزال أغيد غزل

يصيدنا باللحاظ البابليات^(١١)

(٩) أنضيت : أنضيت الثوب وانضيته : أخلقته وأبليته .

والمعنى أنه استفرغ اللهو كاملا . اللسان (نضا) .

(١٠) النواقيس : الناقوس : الذى يضربه النصرارى لأوقات صلاتهم ، القاموس (الناقوس)

التقدیس : التطهير . القاموس (القدس) .

(١١) الديارات ص ١٦٣-١٦٤ .

يتحدث الشاعر عن تمتعه بلهوه في "دير مرمار" .
 ففى حديثه مايدل على عدم اكترائه أو خوفه ، حيث رمز الى تمتعه
 بلهوه ، فيقول : "أنضيت فى سر من رى خيل لذاتى" ، ففى هذه العبارة
 اشارة الى تفشى اللهو فى "سر من رى" حيث لم يكن الشاعر على عجلة من
 أمره ، فقد أفرغ كل هيامه وصبوته العارمة التى كان يأمل أن يفرغها .
 اذ يقول : "ونلت فيها منى نفسى وشهواتى" ، لقد هدأت فورة الشوق
 الى اللهو لدى الشاعر ، بعد أن حصل على مايتزع اليه من صبوة واشباع
 لشهواته .

فالشاعر لم يكن يأمل فى أكثر من أن يشبع رغباته وشهواته المنحرفة ،
 التى لم يأل جهدا فى الحصول عليها ، بل والغوص فى أعماق اللهو لكى
 يشبعها . يقول : "عمرت بقاع اللهو منغمسا" ، فالعمارة تعنى بعث الحياة
 والحركة ، أما بقاع اللهو ، فيؤخذ منها أنه وصل فى تمتعه الى درجة الغوص
 والتعمق فى الملاذ ، التى حولها الى جنان وأنهار .

لقد وفق الشاعر فى تصويره فى هذا البيت ، الذى وضع فيه عكوفه
 على التمتع باللهو فى أى مكان ، بل والانصهار فى بوتقته ، بحيث يشعر
 وكأنه محاط بأنهار وجنان ، بفعل أثره . كل تلك الجنان ، توجد فى دير
 مرمار جميعها .

ويظهر أن الشاعر كان يواصل ليله بنهاره اذ يقول : "نحى الصبوح"
 ثم يصف الشرب وهم يمارسون لهوهم تحت ستار التدين .
 وأخيرا يعمد الشاعر الى تحريك الغرائز الكامنة ، عن طريق ذكره
 للحسناوات ، مضيفا اياها الى مذكره من قبل ، لعل ذلك يصادف هوى فى
 النفس ، فيكون بمثابة دعوة الى اهتبال الوقت للتمتع بتلك الملاذ ، فى أبيات
 تختلط فيها المعصية بالجرأة على الدين .

ويتحدث أبو العيناء عن "دير باشهرا" فيقول :

نزلنا دير باشهرا
على قسيسه ظهرا
على دين أيا سوع
فما أفتى وماأسرا
فأولى من جميل الفع
ل مايستعبد الحرا
وسقانا وروانا
من الصافية العذرا
وطاب الوقت فى الدير
فرابطنا به عشرا
وسقينا به الشمس
وأخدمنا به البدرا
وأحيت لذة الكأس
ولكن قتلت سكرا
ونلنا كل مانهوا
ه من لذاتنا جهرا
تصايينا وغنيينا
وأرغمنا به الدهرا (١٢)

يأتى حديث أبى العيناء عن دير "باشهرا" كحديث الفضل عن دير
"مرمار" السابق . من حيث المجاهرة باللهو وفى وضح النهار . فلم يجد الشاعر
حرجا فى أن يخبر عن نزولهم واقامتهم بدير باشهرا لمدة عشرة أيام أشبعوا
فيها نهمهم واستفرغوا شهواتهم .

فقد بدأ أبياته بالتزول ليشعرنا بأنه سيطيّل الإقامة بالدير دون خوف أو وجل ، ومصرحا أن الضيافة التي يتلقونها منافية للتعالم الإسلامية اذ يقول : "على دين أياسوع" لقد صاغ الشاعر حديثه على شكل قصة ، لما فيها من تشخيص يثير الاهتمام ويلفت الانتباه .

فالقصة تبدأ بالتزول كضيوف على القسيس ، ومن ثم أثنى على اكرامه لهم ، المتمثل في تقديمه الخمر وكل أنواع المجون التي يصبون اليها . وقد ضخم من اكرامه الذي طوقهم به اذ يقول :

فأولى من جميل الفعـ

ل ما يستعبد الحرا

وبناء على هذا الاكرام وتلذذهم به قرروا الإقامة لمدة عشرة أيام ، نعموا فيها بغاية الاكرام في ذلك الدير .

وهل بعد الحصول على الشمس والقمر - ليلة تمامه - والاستحواذ عليهما ، من شىء أفضل وأمتع منهما في احساس هذا الشاعر اذ يتضح ذلك من رمزه الى الخمر بالشمس ، والجارية بالبدر . وأخيرا يصف الجلسة التي مجنوا فيها وتعاطيهم كل مالد وطاب لهم من فسق وفجور وبخاصة الخمر الصافية المعتقة البكر التي كان لها أثرها في اضعاف الشعور بالسعادة ، والانتصار على الدهر ، كما يصف ذلك الشاعر بجرأة واضحة .

واذا كان نزول الشاعر ورفاقه في وقت الظهر يشعرونا بعدم اكتراثهم بمن يراهم ، لما في ذلك السلوك من خروج على القيم والعادات ، فقد عاد الى التبجح بالمجاهرة بما قاموا به من مجون مؤكدا بذلك ماأشرنا اليه من اختيارهم وقت الظهر للتزول .

ولم ترق هذه الأبيات الى مصاف الشعر الجيد ، فقد خلت من أهم اللمحات الفنية التي يمتاز بها الشعر الجيد .

أما أبو على البصير فقد سلك أسلوبا قصصيا في وصف مجونه وهو في طريقه الى مكة فقال :

خرجنا نبتغى مكة
حجاجا وزوارا
فلما قدم الحير
ة حادى جملى حارا
وقد كاد يغور النجـ
م للاصباح أو غارا
فقلت: احطط بها رحلى
ولاتحفل بمن سارا
فجددنا عهدا سـ
لفت منا وآثارا
وقضينا لبانات لنـ
ا كانت وأوطارا
وصاحبنا بها ديرا
وقسيسا وخمارا
وظبيا عاقدا بين النـ
نقا والخصر زنارا
شرحنا لك أخبارا
وأدمجناك أخبارا (١٢)

يبدو أن المجان قد باعوا أنفسهم للشيطان ، ولم تكفهم المجاهرة
بالمجون في سخرية مقبولة ، بل تعلقت نفوسهم بالمجون ونزعت الى أماكن
اللهو ، حتى وهم في طريقهم الى أداء الركن الخامس من أركان الاسلام ، لم
يمنعهم توجههم الى الله وقصدتهم حج بيته الحرام من ممارسة مجونهم .

(١٢) الديارات ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ووردت في مروج الذهب برواية مختلفة ١٤٧/٤ .

فالشاعر هنا يحدثنا عن مسار رحلته الى الحج ، في أحد مراحلها . فقد كان خروجه في قافلة كبيرة ، كعادة قوافل الحجيج على مر الأزمان ، التي تتحدث عنها الأخبار والآثار .

وفي الطريق كانت مدينة "الحيرة" (١٤) التي اعتاد الشاعر الاختلاف اليها لمعاقرة الخمر والاستمتاع بلهوها ، وعند موافاتهم لها كان الوقت متأخرا ، وهذا يعني أن الركب قد بلغ منه الجهد مبلغه .

فتزوع الشاعر الى تجديد عهده باللهو ، اضافة الى الاجهاد الذي يعاينه جعلاه يأمر بحط الرحال ، ثم أشار الى حصوله على ما يطمناه ، بمعنى أنه حقق كثيرا من صبوته .

ويعزو أبو العلاء المعري الانكباب على اللهو والمجون من قبل المنحرفين ، الى تأكدهم من اخترام الموت لهم ، يقول :

قد علموا أن سيخطف الشبح

فاغتبقوا بالمدام واصطبخوا

ما حفظوا جارة ولا فعلوا

خييرا ولا فى مكارم ربخوا

غالوا بأثوابهم فما حسنوا

فى ذهبى اللباس بل قبخوا

(١٤) الحيرة : مدينة كانت على بعد ثلاثة أميال من الكوفة .

انظر معجم البلدان ٣٢٨/٢ .

دعوا الى الله كى يجيبهم
 سيان هم والخواسىء النبح
 كم قتلوا عاتقاوكم جرحوا
 دنا وكم فار تاجر ذبحوا
 لاتغبط القوم فى ضلاتهم
 وان رؤوا فى النعيم قد سبحوا (١٥)

فحديثه عنهم يفيد تأكدهم من حقيقة ثابتة وهى الموت ، ورغم ذلك أمعنوا فى احتساء الخمر صباح مساء . وكأنى بالشاعر يريد أن يشير الى أن الخمر هى أم الكبائر ، عندما تحدث عن أخلاق هؤلاء المجان ، حيث لم تسلم جارتهم من أذيتهم ، ولم يحمد لهم فعل ولانالوا من مكارم الأخلاق ، كما وضح أن مظهرهم لايدل على مخبرهم وأن من السذاجة أن يعتقدوا أن لبس فاخر الثياب ، سيضفى عليهم الرضا والقبول ، فالجرح جد عميق ولايمكن أن يندمل بمجرد تطهير ظاهره .

فبعد الانغماس فى اللهو ، توجهوا الى الله يدعونه لعله يستجيب لهم وهذا التوجه ، جعل الشاعر يستهزىء بهم ، حيث جعلهم من فصيلة الكلاب المنبوذة .

وأخيرا بعد أن يئس منهم ، توجه بالحديث الى المخاطب ، ينهاه عن الاغترار بما يراه ظاهرا عليهم من مظاهر الترف ، لأن كل تلك ماهى الا مظاهر تخفى تحتها الحسة .

وعلى الجملة ففى هذه الأبيات اشارة الى انتفاء الوازع الدينى من قلوبهم ، وعدم اتعاضهم .

ويجمل بنا أن نشير الى تكرار النفى ، الذى عرى به الشاعر سلوك أولئك المجان ، وكذلك تكرار (كم) لتضخيم ما قاموا به من مجون .

ومما يدل على انتشار ظاهرة العكوف على الخمر في العصر العباسي
أننا نجد بعض شعراء العصر يتصدون لها ، فبديع الزمان ينهى عن الانغماس
في اللهو والانتطاع اليه ، يقول :
غافل قد خاط عينيه اغترار

ووراء النوم موت ثم نار

لا تكن في غمرة اللهو جموحا

ان هذا السكر يتلوه خمار (١٦)

فقد عد لهوهم من باب الغفلة التي أخفت عن أعينهم الحقيقة فقد أكد
أن الاغترار المصاحب للغفلة ، أفقده القدرة على الرؤية الثاقبة ، ثم يذكرهم
أن مايتلو غفلتهم هذه التي رمز اليها بالنوم ، هو الموت الذي لامفر
ولا محيص عنه .

وواضح أن الشاعر يدرك تأثير السكر السيء الذي يغطي على عقل
شاربه فيفقده القدرة على التصرف السليم ، فقد أكد الشاعر ذلك في قوله " ان
هذا السكر يتلوه خمار " .

وصف الخمر :

ونتيجة لانتشار اللهو كثر حديث الشعراء عن الخمر ووصفها حتى لقد عد ذلك غرضاً من الأغراض الهامة في الشعر العباسي ، وانقسم الشعراء في ذلك بين مادم وقادح .

لقد أصبحت الخمر ظاهرة من الظواهر السيئة التي كانت متفشية في العصر العباسي وان لم يصحبها مجون .

يقول ديورانت : "وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات" (١٧) ، ولم يكن الترف والاختلاط بالأمم الأخرى ، هما فقط اللذان أديا الى انتشار الخمر ، لكن جرأة بعض الفقهاء واجتهادهم في تحليل بعض الأنبذة "أعان على انتشار شرب الخمر في المجتمع الاسلامي وزوال التحرج الديني بشأنها شيئاً فشيئاً ووجود فرق مذهبية كثيرة تتصرف تصرفاً واسعاً في مسائل المنع والتحريم ، ولها رأى في درجات الآثام ، مايكبر منها ومايصغر ، وفي عفو الله ومدى اتساعه لهذا الاثم أو ذاك" (١٨) .

يقول ابن الرومي عن اختلاف الفقهاء في تحليل النبيذ :

أحل العراقي النبيذ وشربه

وقال : الحرامان المدامة والسكر

وقال الحجازي : الشرابان واحد

فحلت لنا بين اختلافهما الخمر

سأخذ من قوليهما طرفيهما

وأشربها لافارق الوازر الوزر (١٩)

(١٧) قصة الحضارة ١٣ ، ج ٢ / ٤٥٤ .

(١٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٠٤ .

(١٩) ديوانه ٣ / ٩٨٣ - ٩٨٤ .

ويتضح من حديث ابن الرومي عن اختلاف الفقهاء حول تحليل النبيذ نضوب الوازع الديني ، وتباين آراء الفقهاء ، وازاء ذلك أباح الشاعر لنفسه شرب الخمر محملا وزره من أحل شربها .

ولو أن الشاعر عاد الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ... الحديث . وأحاديث تحريم الخمر .

وفكر مليا في معنى تلك الأحاديث لأقلع عما أقدم عليه ، لكن رقة دينه جعلته يستتر ببيت العنكبوت الذي قال عنه جل من قائل : {وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون} (٢٠).

أما البحتري فقد جهر بتشوقه الى التلذذ بالنبيذ فقال :

بنا داء وليس لنا نبيذ

وليس دواؤنا غير الفصاد (٢١)

ومن عزم الفصاد بلا نبيذ

كمن عزم الرحيل بغير زاد (٢٢)

فقد عبر عن ذلك بربطه بين النبيذ وبين الفصاد ، وبين الرحيل وبين الزاد ، وبهذا الربط اتضح أثر المقابلة بين الفصاد والنبيذ من جهة وبين الرحيل والزاد من جهة أخرى .

فالفصد يمكن اجراؤه بعد معاقره النبيذ ، التي تساعد على تخفيف آلامه وفي المقابل يجب الاستعداد للسفر بالزاد الذي يكفي أثناء الرحيل . وعلى الجملة ، فالشاعر يحاول تبرير شربه النبيذ عن طريق ادعائه المرض ، وأن الشفاء منه يتطلب الفصاد ، والفصاد لا يمكن اجراؤه الا بعد احتساء شربة من النبيذ .

(٢٠) سورة العنكبوت : آية ٤١

(٢١) الفصاد : شق عرق للتداوى . القاموس (فصد) .

(٢٢) ديوانه ٨٠٣/٢ .

لقد اهتم الشعراء بالخمير والتفنن في وصفها على اختلاف مشاربهم ،
وممن تأنق في وصفها ، أبو العباس الناشيء يقول :

ومدامة يخفى النهار لنورها
وتذل أكناف الدجا لضيائها
صبت فأحرق نورها بزجاجها
فكأنها جعلت اناء انائها
وترى اذا صبت بدت في كأسها
متقاصر الأرجاء عن أرجائها
وتكاد ان مزجت لرقعة لونها
تمتاز عند مزاجها من مائها
صفراء تضحى الشمس ان قبست بها
في ضوئها كالليل في أضوائها
واذا تصفحت الهواء رأيته
كدر الأديمة عند حسن صفائها
تزداد من كرم الطباع بقدر ما
تودى به الأيام من أجزائها
لاشء أعجب من تولد برئها

من سقمها ودوائها من دائها (٢٣)

عمد الشاعر الى المقابلة في هذه الأبيات لكي يظهر اشعاعها وضيائها
اللامع ، وقد فاق في نوره نور الشمس ، بل جعلها معتمة ، وأما تبليج نورها
في الليل فقد أضحى مثار الاعجاب والدهشة . ومن المدهش حقا أن جعلها
الشاعر من شدة صفائها ، وكأنها وعاء وعائها ، أما رقتها فتتضح اذا مزجت ،
حيث لا تختلط بالماء .

أما التشبيه فلم يكن دوره بأقل من دور المقابلة ، فقد شبه ضوء الشمس بمحضرة الحمرة بالليل وقد أضاءته أنوار الحمرة ، وحتى الهواء لم يبلغ في شفافيته وصفائه مابلغته الحمرة .

وأخيرا لا يرى أعجب من الخمر لتولد صحتها من مرضها ، ودوائها من دائها .

لقد أطلق الشاعر لخياله العنان في وصفه الخمر في هذه الأبيات حيث قدم لنا صورة جميلة ، تم عن خصب خياله وقدرته على التصوير .

ويحذر أبو العلاء المعري من شرب الخمر ، نظرا لما تجره على معاقريها من سوء ومكروه ، فقال :

اياك والخمر فهي خالبة (٢٤)

غالبة خاب (٢٥) ذلك الغلب

خابية الراح ناقة حفلت

ليس لها غير باطل حلب

أشأم من ناقة البسوس (٢٦) على النا

س وان نيل عندها الطلب

ياصال خف ان حلبت درتها

أن يترامى بدائها حلب

(٢٤) خالبة : خادعة . اللسان (خلب) .

(٢٥) خاب : افتقر . اللسان (خوب) .

(٢٦) انظر خير البسوس في مجمع الأمثال ١٨١/٢ .

أفضل مما تضم أكؤسها

ماضمنته العساس (٢٧) والعلب (٢٨)

بدأ أبياته محذرا المخاطب من الخمر ، خوفا مما تحدثه من سيطرة وتحكم على العقل نتيجة لمخامرتها له ، حيث يفقد شاربها القدرة على التفكير السليم ، وفي نفس الوقت يستهجن ذلك الغلب لأنه لا يكسب شيئا ذا غناء ، اذ يقول : (خاب ذلك الغلب) وفي أسلوب استعاري ، شبه الشاعر وعاء الخمر وقد ملئت بضرع الناقة المصراة ، وقد حفل ضرعها باللين ، وشتان بينهما .

ويستعين بمخزونه التاريخي ، فيقرن بين شؤم الخمر وما تجره من خراب وافساد ، وبين ماجرته حرب ناقة البسوس على قبيلتي بكر وتغلب .
ولكى يستثير المنادى ويشد انتباهه ليستمع الى تحذيره اياه من التهاون بشأن الخمر ، وماستجره من الويل والمرض الذي يهدد "حلب" جميعها ، عمد الى ترخيم المنادى (ياصال ... رخم (صالح الكلابي) .
وبعد هذا الحديث التحذيري الذي ينطوى على فكر وقاد وتبصر بالأمور ، شرع الشاعر في الحديث عما يفضله هو ، حيث أفصح عن تفضيله شرب الحليب على شرب الخمر ومعاقرتها .
فالحليب نقي صاف صفاء ، ينبىء عن مخبره، وعلى النقيض منه الخمر التي تؤدى بمتعاطيها الى الحضيض .

(٢٧) العس : قدح عظيم من خشب وغيره . الجمهرة ١/١٣٣ .

العلبة : وعاء من جلد جنب بعير ، يتخذ كالعس ، يحتلب فيه والجمع علاب وعلب . الجمهرة ١/٣٦٦ .

(٢٨) اللزوميات ١/١١٧ ، وانظر نفس المعنى ١/١٦٩-١٧٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٦٧، ٢٧٢،

٢٩٣، ٣٣٧، ٣٥٣، ٣٨٥، ٣٨٨، ٥١١، ٥٢٨، ٥٥٠/٢ ، ٨٨٥، ٦٢٨، ١١٧٥/٣ ، ١١٩٢، ١٢٢٩،

١٢٤٣، ١٤٨٧، ١٤٩١، ١٥٠٢، ١٥٢٢، ١٥٢٨ .

ولعل الشاعر وهو يسوق تفضيله للحليب يرمى من ورائه الى هدف تربوى ، كأن يكون قدوة تحتذى ، نظرا لمكانته الاجتماعية ولما يتمتع به من خبرة وحكمة ورجاحة عقل .

ولقد أدرك ابن هندو أذى الخمر واذهابها للعقل فقال :

قد كفانى من المدام شميم

صالحتنى النهى وثاب العزيم

هى جهد العقول سمى راحا

مثل ما قيل للديغ السليم

ان تكن جنة النعيم فيها

من أذى الجهل والخمار جحيم (٢٩)

يتحدث الشاعر عن عودة تفكيره السليم ، ومصالحة أعدائه فى الماضى له - نتيجة اقلاعه عن الخمر - ومفندا أذاها وما تجره على متعاطيها . اذ بدأ الشاعر حديثه بـ(قد) ليؤكد حرصه على السلوك السوى الذى سلكه حتى لا يفقد صداقة من أصفاه الود ، بعد العداء الشديد ، بسبب هذه العادة السيئة .

ثم يؤكد أيضا أذى الخمر ، حيث شبهها - وهى تنهك العقول - بسم الأفعى وهو يسرى فى جسد اللديغ . فكلمة (راح) تماثل كلمة (سليم) فى أن كلا منهما يستخدم فى الشئ وضده ، فشارب الخمر يجهد عقله وان شعر بلذة ظن معها أنه يعيش فى النعيم المقيم . ان ذلك الشعور لا يمنع خطرها الجسيم ، يقول : (ففيها من أذى الجهل ، والخمار جحيم) .

وعن كثرة شرور الخمر ، وما تجلبه على متعاطيها من متاعب ، يقول يزيد المهلبى :

لعمرك ما يحصى على الكأس شرها
وان كان فيها لذة ورخاء
مرارا تريك الغى رشدا وتارة
تخيل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الود مبغض
وأن مديح المادحين هجاء
وجربت اخوان النبيذ فقلما
يدوم لاخوان النبيذ اخاء (٣٠)

يقسم الشاعر على نفي احصاء الشرور التي تحدث كمحصلة للخمر ،
رغم تلذذ متعاطيها بها .

فتعمقها في الشخص ومخامرتها لعقله ، يقرب له الحقائق ، بحيث تجعله
يرى الفساد والغواية أمرا محمودا ، وقد عبر بالرؤية على مدى تمكنها من
شاربها واستيلائها على لبه ، فهي تجعله يرى أن الأسوياء قد أساءوا وأن
الصديق المخلص حاقد مبغض ، وأن المدح عبارة عن هجاء وتنقص .
ان مرد ذلك يعود الى عدم قدرته على التخلص من الآثار السيئة التي
أحدثتها الخمر ، الذي يتضح من تأكيده بغض الصديق المخلص وهجاء
المادحين ، حيث يقول :

وأن الصديق الماحض الود مبغض
وأن مديح المادحين هجاء

ولا يفوتنا في نهاية حديثنا عن هذه الأبيات ، أن نشير الى الكأس التي رمز بها الشاعر الى الخمر ، كما نلاحظ تلاعب الشاعر بالضمير ، ولعله يرمى الى بعث الحيوية والحركة في نفس القارىء ، فيعمل فكره فيما يقرأ .
ان الصداقة الحقة هي التي لاتبنى على المصالح الشخصية ، لذا فمودعة ندماء الخمر لايعتد بها لأنها سرعان ماتزول ، بمعنى أنها صداقة وقتية ، تحكمها المصلحة . يقول ابن الرومي في هذا المعنى :

مودعة اخوان النبيذ سلافة

يبولونها عند انقضاء المجالس

فبيننا نراهم أهل الف وأثرة

وبيننا نراهم بينهم حرب داحس

فأما اذا ناديتهم لملمة

فنادوا والتصاوير التي في الكنائس (٣١)

يفوح حديث الشاعر بالسخرية من صداقة جماعة اللهو ، يتضح ذلك من خلال تعبيره عن دناءة تلك الصداقة المبنية على هدم الأخلاق ، في قوله (يبولونها عند انقضاء المجالس) بمعنى أنها صداقة وقتية ، تنتهي بانتهاء الظروف والعوامل ، التي دعت اليها .

ولقبح تلك الصداقة ، عبر عنها الشاعر استعاريا بـ(البول) لينفر منها نظرا لما يبعثه ذكر البول من اشمئزاز في النفس ، اضافة الى أنه أذى يستريح المرء اذا تخلص منه .

كما يظهر ذهول الشاعر واستغرابه لما سوف تؤول اليه تلك الصداقة من عداء مقيت ، من خلال المقابلة في البيت الثاني. فبقدر الاخلاص والمحبة واصفاء الود ، يظهر فجأة العداء الشديد .

وتشدد سخريته في مسخه اياهم ، حيث جعلهم التماثيل التي في الكنائس .

ويبدو أن مرد تلك السخرية هو مداومتهم على احتساء الخمر ، مما كان له أثره الكبير في تبلد احساسهم وسلب عقولهم ، بحيث لم يعودوا يستطيعون التمييز ، فهم والصور المعلقة في الكنائس سواء .
ويربط أبو العلاء المعرى بين الخمر وذهاب الدين فيقول :

إذا دارت الكأس في دارهم

فقد رحل الدين عن دارهم

فما وفقوا عند ايرادهم

ولا وفقوا عند اصدارهم

وفي رفع أصواتهم بالغناء

دليل على حط أقدارهم

فان كنت خدنا لهم فاحبهم

جفاء على قرب مزدارهم (٣٢)

فالشاعر يرى أن شرب الخمر للمسلمين يعني خروجهم من الملة وكأني به يشير بذلك الى الحديث الشريف : "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" (٣٣) .

وقد استخدم الشاعر أداة الشرط ليربط بين دوران الكأس وذهاب الدين لما في ذلك الأسلوب من تحذير واضح وصريح ، فانتفاء الدين ورحيله عنهم مرهون بتعاطيهم الخمر واجتماعهم عليها .

(٣٢) اللـزوميات ١٥٢٢/٣ ، ١٥٢٢/١ ، ٥٤٢،٣٨٠،٣٣٠،٢٦٧/١ ، ٧٢٢/٢ ، ١٥٩٤،١٣٥٥/٣ .

(٣٣) صحيح مسلم ٧٦/١ .

ومادام الأمر كذلك فقد جمع الشاعر بين النفس والمقابلة - ايراد
واصدار ، والرفع والحط - لكي يركز على عدم توفيقهم ، وان كانوا يظنون
أنهم قد تسنموا مرتبة عليا ، طالما أنهم يمرحون معبرين عن سعادتهم بالغناء.
ويعود الشاعر مرة أخرى لأسلوب الشرط ، ولكن ليأمر المخاطب
بالبعد عن أولئك الأشرار .

لقد وفق الشاعر في صياغته لهذه الأبيات حيث واءم بين اللفظ والمعنى
وفي نفس الوقت حافظ على الزينة اللفظية والمعنوية ، كالتصدير في البيت
الأول والجناس في البيت الثاني . أما المعنوية فتتجلى في التضاد في البيت
الثاني . وقبل ذلك نجد الشاعر عبر بـ(إذا) لتأكيد وقطعه بانتفاء الدين وقت
شرب الخمر ، وأخيرا عبر بـ(ان) الشرطية ليبين عدم تأكده من نفور
المخاطب من جماعة الشرب .

ورغم حديث أبي العلاء المعري عن الخمر الذي يدعو فيه لاجتنابها ،
فاننا نجد بديع الزمان الهمداني لم يتمالك نفسه أمام اغراءات الراح ، ودعوة
الفتيان له لمشاركتهم ، رغم أنه ذم الخمر في مناسبات أخرى ، يقول :

وفتيان كمجتمع الثريا

على طرف من العيش الرخيم

يساقبهم من الفتيان أحوى

غضيب الطرف ذو كشح هضيم

تنادوا للمدام وعنفونى

وقالوا هاك حظك من نعيم

فقلت أخاف عقباها ولكن

أشيعكم الى باب الجحيم (٣٤)

عمد الشاعر في حديثه عن أولئك الفتيان الى التشبيه، حيث شبههم بالنجوم ، لما في ذلك التشبيه من ابراز لحسن أولئك الفتيان .
 فالفتوة هي أنضر مراحل الشباب وأقواها ، اذ تضاهى في منعتها ونضارتها توهج وعلو نجوم الثريا ، وبخاصة اذا كان أولئك الشباب من المترفين المنعمين . ويبدو أن معاقرة الخمر واختيار من يقوم بخدمتها من الفتيان ، يعد من مظاهر هناة العيش ، يظهر ذلك من لومهم للشاعر وقسوتهم عليه ، وادعائهم أنها من النعيم (وقالوا هاك حظك من نعيم) فهذه العبارة تعنى أن الخمر هي عين النعيم عندهم ، وقد نعتها ابن هندو بنفس النعت في صفحة (٤٦) لكنه وضع مدى تأثيرها السئ .
 وأمام هذا الاغراء والتزوع الى الخمر ، لم يتمكن خوف الشاعر من عاقبة تعاطيها أن يردعه عن شربها ، فأخذ يجارى جماعة الشرب ، متذرعاً بأعذار واهية حيث يستدرك بـ(لكن) في قوله : (ولكن أشيعكم الى باب الجحيم) .

فى ذم المرأة :

وكما كانت الخمر أداة من أدوات اللهو والمجون ، أضحت المرأة فى العصر العباسى احدى أدواته أيضا .

فقد كان لانتشار القيان أثر كبير على نظرة الرجل الى المرأة ، فقد أصبحت المرأة فى ذلك الوقت سلعة يمكن الحصول عليها لكل من يريد . يقول الوشاء عن القيان : "اعلم أنه لم يبتل أحد من أهل المروءات والأدب وأهل النظرف والأرب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هى أعظم من هوى القيان ، لأن جبهن حب كذوب ، وعشقهن عشق مشوب ، وهواهن منسوب الى الملل ... وأنهن لن يقصدن الا أهل النشب ، ويصدقن عن ذوى الحساب" (٣٥).

ومع ذلك فقد خفت حدة التغزل والافتتان بالحرائر من النساء ، كنتيجة للنقلة الحضارية ، التى فتحت أبواب اللهو والمجون ودور القيان على مصراعيها . ورغم تطور الغزل فى هذه الفترة "فان المرأة الحرة الكريمة لم تعد موضوعه ، وانما أصبح موضوعه الاماء والجوارى ممن كانت تزخر بهن دور الرقيق ومجالس الشعراء وقصور الأشراف والخلفاء" (٣٦). وهذا من ايجابيات العصر المحمودة .

وممن تحدث عن غدر المرأة وخيانتها الحسين بن الضحاك ، مظهرا نزقه ونزعتة الى اللهو والمجون ، حيث قال :

تراك على الأيام تنجو مسلما

ولست ترى من غدرة أبدا بدا

ألت الذى آليت بالله جاهدا

يمينا وخنت الله موثقه عمدا

(٣٥) الموشى ص ١٣٤ .

(٣٦) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٤٥ .

ألا فى سبيل الله ود بذلته

لمن خاننى ودى ولم يرع لى عهدا

عدمتهك من قلب أقام لغادر

على العهد حتى كاد يقتلنى جدا (٣٧)

توجه الشاعر بخطابه الى محبوبته وكأنى به يسألها ، هل بإمكانك النجاة من تبعات صنيعك هذا دائما؟ وأنت التى ترين الغدر أمرا لازبا . ويبدو أن الشاعر يريد أن يومىء الى تبدل الأحوال وتقلبها مع تعاقب الأيام ، وأن ما يكن اخفاؤه اليوم ، لن يتأتى اخفاؤه غدا . وبنفس يملؤها الحزن لخيانة محبوبه ، لجأ الى الاستفهام التقريرى فقال : (ألست الذى آليت بالله جاهدا؟) وفى هذا اشارة الى أن ذلك العهد انما قطع لله جل وعلا ، وأن خيانتته خيانة له ، يقول : (وختت الله موثقة عمدا) .

إذا فقد وكل الشاعر أمر محبوبه الى الله عز وجل ، ثم عمد الى التنبيه الى أن الود الذى أصفاه لمن قابله بالكران والخيانة ، قد احتسبه عند الله ، وهو فى الواقع انما يعزى نفسه فيما حل به ، ولم يعد يملك سوى الدعاء على قلبه الذى أو شك أن يورده موارد الهلكة .

ان عدم ثقة أبى العلاء المعرى بالنساء جعلته يبوح برأيه فيهن فى عدد غير قليل من لزومياته ، يتحدث فيها عن غدرهن وخيانتتهن وسلوكهن المنحرف .

ولقد عبر عن تلك الآراء فى أساليب تتم عن مقدرته اللغوية الفائقة ، وملكته الأدبية الفذة ، ودرايته بشؤون مجتمعه . يقول فى مثل ذلك :

أقل الذى تجنى الغوانى تبرج

يرى العين منها حليها وخضابها

فان أنت عاشرت الكعاب فصادها
وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمر حليلها
من العار اذ تسقى الخليل رضاها (٣٨)

فمما يلفت الانتباه في هذه الأبيات أسلوب الالتفات والمقابلة ، لما لهما
من أثر واضح على المعنى والصياغة .

كما يفصح الشاعر في هذه الأبيات أيضا عن رأيه في النساء ، وهو
رأى فيه قسوة وعدم ثقة بهن ، حيث يرى أن المرأة المحتشمة تعمد الى
السفور ، لكي تبدى ماتتحلى به من حلى وخضاب ، لما فيهما من فتنة
وغواية . لذلك ينصح الشاعر من يتزوج أن يلاطف امرأته ويراعئها وأن
يحذر غضبها الذى يؤدى الى فقدده ودها ، واصفائه لمعشوقها (٣٩).

وأخيرا يعبر عن سلوك تلك المرأة مع زوجها ونفورها منه ، ومن ثم
نزوعها الى الخطيئة - عبر عن ذلك السلوك المشين - فى مقابلة كان لها أثرها
الكبير على النفس ، اذ سقت حليلها العار والصغار وفى المقابل سقت خليلها
رضاها .

أليس هذا كفيلا بهز المشاعر؟ وبعث عدم الثقة فى الكثير من النساء؟
وعن تفسخ القيان وتحللهن ، يقول على بن الجهم :

أوانس ما فيهن للضيف حشمة
ولاربهن (٤٠) بالمهيب المبجل

(٣٨) اللزوميات ١٢٧/١ ، ص ٢٤٣، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٤٦، ٣٠٤، ٣٢٥ فى معناه .

(٣٩) وقد سبق الى هذا المعنى من امرىء القيس :

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلاها عليه القتام سىء الظن والبال

انظر ديوانه ص ٣٢ .

(٤٠) ربهن : ربهم : ربه يربه ربا : ملكه ، ويقال : ربه يربه : أى كان له ربا .
اللسان (ريب) .

يسر اذا ما الضيف قل حياؤه
ويغفل عنه وهو غير مغفل
ويكثر من ذم الوقار وأهله
اذا الضيف لم يأنس ولم يتبذل
ولا يدفع الأيدي السفهية غيرة
اذا نال حظا من لبوس ومأكل (٤١)

يتضح من حديث الشاعر عن القيان أن مجال اللهو والمجون كان أمامهم مفتوحا ، بل كان أربابهم يدفعونهم اليه دفعا . وهذا مادعا الشاعر الى ذمهم رغم طيبة أنفسهم وعذوبة أحاديثهم ، لأنهن متفسخت متحللات لاتجد الحشمة والمحافظة اليهن طريقا ، وما ينطبق عليهن ينسحب على مواليهن الذين يتغاضون عن سلوكهن المشين مع الضيوف ، حتى أنه اذا وجد من الضيوف الحشمة والوقار والعزوف عن مثل تلك الممارسات ، بادر الى مقت ذلك الوقار وتلك الحشمة .

وقد عبر الشاعر عن ذلك مبتدئا بالنفى ، حيث نفى عن القيان الحشمة والوقار ، وبذا يكون قد جردهن من عفتهم ، ثم ألحق مالكنهن بهن لتخليه عن الحشمة ، وتبذله وتخلله .

وأن مبعث سروره اذا تطاول الضيف على قينته ، حيث يغض الطرف ويتصنع الغفلة واذا لم يجد ذلك أخرج لسانه من فيه يقذع به الحشمة والوقار ومن يتحلى بهما . مكنيا بذلك عن الدعوة الى العبث بالقيان . فماذا يرجى من وغد كهذا؟ وكيف نطالب القيان بالعفة وهن يدفعن الى التبذل والتفسخ دفعا؟

ويصف أبو العلاء المعري فتنة النساء وصفا دقيقا في كثير من المواضع في لزومياته ، يقول في مثل ذلك :

لم يكفها نور خديها ونور نقا
فى ثغرها فأصارت عشرينها عنما
كانت أضر لأهل النسك من صنم
فليبعد الله تلك الخود والصنما
لم يغنم القليل عدت فى الاماء له

بل مظهر الزهد فى أمثالها غنما (٤٢)

تظهر مبالغة الشاعر فى وصف المرأة ، حيث جعل شدة بياض خدها
الجميل نورا يشع فيبهر من يراه ، اضافة الى البريق واللمعان الذى يشع من
فيها ، عندما تتبسم .

أما أناملها وكفاها فقد حولت لونها - بفعل الخضاب - الى الحمرة ،
مضيفة بذلك فتنة الى فتنتها التى حباها الله اياها .

لذا فقد ماثل بين تلك الخود والصنم بجامع الضرر الذى يحدثانه ، اذ
يقول : (كانت أضر لأهل النسك من صنم) .

وأخيرا ينفى أن يكون الملك قد غنم بهذه المرأة الفاتنة ، بل الزاهد
فيها هو الذى فاز وآب بالغنيمة . وفى هذا اشارة الى عدم دوام اخلاص
تلك المرأة اللعوب ، أو لأنها عرضة للمفتونين بها ، مما يكون سببا فى عدم
اخلاصها ، وبذا يكون جمالها سببا فى انحرافها .

ويمكننا أن نوجز بعض الملامح الفنية فى هذه الأبيات ، حيث نجد
المبالغة فى البيت الأول وتكرار النفى فى البيتين الأول والثالث ، والتقديم
والتأخير والتضاد فى البيت الثالث .

ويذم ابن الرومى النساء الماجنات فيقول :

(٤٢) اللزوميات ٣/١٤٣٩ ، ٢/٦٦٤، ٧١٣، ١١٢٩ .

ياقاتل الله نسوانا له مجنا

يعدون فى السبت عدو الناشط الشبب (٤٣)

اذا خلون بمن يهوين خلوته

بذلن فى ذاك ماأثلن من نشب (٤٤)

فى هذه الأبيات يذم الشاعر النساء اللائى يقدمن على ارتكاب المحرمات ويبدلن أغلى مايملكن لمن يهوين . لم يرق للشاعر مايمارسه بعض النسوة من لهو ومجون ، فبدأ بياء النداء لكى يجذب الانتباه ، ليشعرنا بما يعتمل تحت جوانحه اذ يقول : (ياقاتل الله) فالدعاء بالقتل عادة مايكون فى الأمر الجلل ، الذى يصعب دفعه . أما عبارة (نسوانا له مجنا) فتفيد انتشار الفساد بين الكثير من النساء اللائى يمارسن ذلك اللهو فى خفية كما لو كن معتقدات أن الله الذى حرم عليهن تلك الممارسات لا يراهن ولا يعلم مايقترفن من آثام ، مماثلا بين خيانتهم وبين اليهود الذين منعوا من صيد الحوت يوم السبت .

(٤٣) الناشط : الثور الوحشى الذى يخرج من بلد الى بلد . اللسان (نشط) .

والشبب : المسن من ثيران الوحش . اللسان (شبب) .

(٤٤) ديوانه ٢٧٣/١ .

ورمز الشاعر الى الاصرار على المضى فى اقتراف المعاصى ، بعدو الثور
المسن وهو يحاول جهده الافلات ممن يلاحقه .
فتحايل النساء على اقتراف المعاصى لن يؤدى الا الى الخسران المبين ،
تماما كثور الوحش الكبير المسن ، الذى يحاول جاهدا النجاة ممن يهاجمه ،
وأنى له ذلك . ثم يصور ممارساتهن لاشباع رغباتهن فى الاتصال بالرجال فى
مقابلة تم عن حرصهن الشديد على ايثار من يهوين ، مهما كلفهن ذلك حتى
لو كان ذلك كل مايلكن من متاع الدنيا ، حتى أنفسهن ، وهذا أقصى غاية
التفسخ والانحلال .

فى التنجيم والشعوذة :

بلغ المجتمع العباسى مبلغا عظيما فى المجال الثقافى والعلمى ، فقد ازدهرت الثقافة ، وانتشرت بين فئات المجتمع المختلفة الاتجاهات من سنة وشيعة ومعتزلة وغيرها .

ولقد أفادت هذه الطوائف من الثقافات الأخرى كاليونانية والفارسية والهندية ، من خلال الترجمات أو الأفكار والمناهج التى نقلها المسلمون من ثقافات الأمم القديمة . اضافة الى بلوغه درجة كبيرة من الصلاح والورع والتقوى ، كما وصل أيضا فى نفس الوقت الى درجة كبيرة من الانحلال والفساد الخلقى والشعوذة .

ولعل من الانصاف أن نعطى كل فئة حقه ، فلا نتبع الصفات السيئة وننفخ فيها النار ، لكى نغض من شأن المجتمع العباسى فى هذه الحقبة ، كما يجب علينا أن لاننكر وجود ظاهرة التنجيم والشعوذة .

فمن مظاهر الجهل تصديق المنجمين والمشعوذين ، الذين تحدث عنهم الشعراء ، منتقدين اياهم .

يقول منصور الفقيه عن المنجم :

لو أن نجما تكلم

لقال صكوا المنجم

لأنه قال جهلا

بالغيب ما ليس يعلم

قول المنجم شىء

دعا اليه التوهم

فلاتصدق بشىء

مما يقول المنجم (٥٤)

من خلال حديث الشاعر عن افتراءات وتضليل المنجم ، ندرك أن نور الايمان قد أضاء نفس الشاعر ، فلم تعد تنطلي عليه افتراءات المنجمين ، حيث يؤكد أن النجم لو حباه الله نعمة الكلام لكان أول قول ينطق به ، هو اضربوا المنجم ضربا مبرحا ، لأنه كاذب مفتئت على الحقيقة ، فقوله مبنى على الحدس والتخمين .

قول المنجم شيء

دعا اليه التوهم

فما بنى على الظن والتخمين ، ينبغي عدم تصديقه ، ولذلك نهى الشاعر عن تصديقه اذ قال : "فلاتصدق بشيء" .

اتسمت هذه الأبيات بالمباشرة ولم ترق الى مصاف الشعر الجيد ، لأن الشاعر اتجه بها الى العامة الذين يروج بينهم التنجيم .

وينهى أبو العلاء المعري عن تصديق الكاهن لأن مايقوله كذب وافتراء ، بدليل عدم معرفته بما يضم في النفوس ، فيقول :

لاتصغين الى حاز لتسمعه

فما يطيق لما أخفيت ابرازا

أراد احراز قوت كيف أمكنه

فظل يكتب للنسوان أحرارا (٥٥)

أدرك أبو العلاء المعري بشاقب فكره كذب وافتراء العرافين وانسياق بعض الناس خلفهم وتصديقهم اياهم .

وهذا ماجعله يصدع بنهيه المخاطب حيث قال : "لاتصغين" لما لهذه الكلمة من قوة في أداء المعنى الذى يرمى اليه الشاعر ، وقد ألحق بها نون التوكيد ، بالاضافة الى لام التعليل في قوله : (لتسمعه) .

ولعل مرد النهى عن الاصغاء فيه ايماءة الى أنه ربما استطاع ذلك العراف اقناع السامع بما يقول .

ولكى ينبه الشاعر الى أن العراف ليست لديه معرفه بما يتنبأ به ، وأن الذى أُلجأه الى ذلك لقمة العيش التى جعلته ينساق خلف الوهم لكى يوهم السامع ويغرر به ، عله يحصل على مايعينه على أعباء الحياة ولرجاحة عقول الرجال ، يصعب على العراف اقناعهم ، بما يقول وتصديقهم اياه . لذا فأكثر مصدقيه هم من النساء اللائى يسهل اقناعهن ، فيكتب لهن ولأطفالهن الحجب والتمايم ، وماعلمن أن مايقوم به ما هو سوى حيلة من الحيل التى يقتات من ريعها .

فالحقيقة التى عبر عنها المعرى أبرزها اتكاؤه على أسلوبى النهى والنفى فى البيت الأول والخبر فى بيته الثانى .

الفصل الثاني

التعمير والحفظ

التحليل الخلقى

- (١) التنكر للصديق .
- (٢) اللئام .
- (٣) النفاق .
- (٤) الغيبة والنميمة والوشاية .
- (٥) فى الكذب .
- (٦) فى الحسد .
- (٧) فى ذم اللحن والخضاب .
- (٨) فى الجبن وقصر الهمة .

التحليل الخلقى

يحمل بنا ونحن بصدد الحديث عن بعض مظاهر التحليل الخلقى ، أن نقدم له بكلمة موجزة عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي .
 فبعد أن من الله على العرب بالاسلام ، أخذت جحافلهم تجوب الأرض شرقا وغربا ، تنشر الدين الاسلامي ، وقد ترتب على ذلك اتصال وتعامل مع الشعوب التي دخلت في الاسلام ، وهذا أحدث تغييرا كبيرا في حياتهم الاجتماعية ، نتيجة تمازجهم مع تلك الأجناس المتعددة ، وهذا الاختلاط أدى الى التزاوج والمصاهرة مع تلك الأجناس .
 وقد انقسم المجتمع الى عدة طبقات :

الطبقة المترفة : وتتكون من الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والعمال وغيرهم ممن تسلموا مناصب كبيرة في الدولة .
 الطبقة المتوسطة : وتتكون من العلماء والشعراء والكتاب وبقية المثقفين والتجار ومتوسطى الملاك .

الطبقة الفقيرة : وتتكون من الحرفيين وغيرهم ممن ليست لهم صلة بأشراف القوم كالحمالين والعمال والعاطلين ... الخ (١).

فالطبقة المترفة ، طبقة ، تتحكم وتسيطر في نفس الوقت على الحياة الاقتصادية ، وعلى النقيض من هذه الطبقة تأتي الطبقة الفقيرة المغلوبة على أمرها ، لتذوق طعم الحرمان ومرارة العيش ، لاستئثار الطبقة المترفة بكل شيء ، وحرمان الطبقة الفقيرة من أبسط حقوقها ، فعاشت في فقر مدقع .
 أما الطبقة الوسطى فكانت طبقة ثرية ، غير أنها لم تبلغ في ثرائها وترفها مابلغته الطبقة الأولى .

(١) المنشور والمنظوم ق١٣/٧ رسالة ماجستير .

فمن مظاهر حياة الطبقة المترفة ، ماحدثت عنه المصادر القديمة من تشييد للقصور والمبالغة في اتخاذ الخدم واقتناء الغلمان والقيان ... الخ (٢).
 لاشك أن الثراء كان سببا من أسباب اقتناء الجوارى والغلمان والرقيق واتخاذ الندماء ، مما أشاع الخلاعة والسخف والانحلال الخلقى .
 ان المغالاة في الانفاق على القصور وبعض المظاهر الأخرى التي أضحت من مستلزمات الحياة لدى علية القوم ، أدت الى البذخ والاسراف في انفاق المال ، كما أدى فساد الحكم الى اللجوء الى مصادرة الأموال .
 فاذا حدثت ضائقة مالية أغاروا على الأثرياء ممن هم دونهم ، فيصادرهم أموالهم ، فقد أورد التنوخي في "الفرج بعد الشدة" خبرا عن مصادرة أموال الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهري (٣).
 اضافة الى تردى السياسة الاقتصادية ذات الصبغة الاقطاعية الى تسلط الطبقة المترفة واستغلالها .

أما الطبقة الفقيرة ، فقد أدى الحرمان والفقر المدقع الى فسادها وانحرافها ، ولم ترق هذه الحياة لهذه الطبقة المغلوبة على أمرها ، فقامت بين الفينة والأخرى بالثورة على تلك الأوضاع الاقتصادية السيئة ، كثورة الزنج والبابكية ، والقرامطة ، وقد تحدث د.طه حسين عن تلك الثورات فقال :
 "ولعل أخص مايمتاز به هذه الثورات الثلاث أنها كلها كانت تقصد الى تغيير الحياة الاقتصادية ، بحيث يغير توزيع الثروة بين الناس ، ويتحقق شيء من العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات" (٤).

غير أنى لأوافق الدكتور طه حسين كل الموافقة ، فحكمه لم يكن دقيقا كل الدقة . فالمتأمل للحوادث التاريخية وماصاحبها من عنف وقتل وخراب

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٩٩/١ ومابعدها .

(٣) الفرغ بعد الشدة ١١٢/٢ .

(٤) مع المتنبي ص ٣٠ .

يدرك أن الهدف ليس الثورة على الأوضاع الاقتصادية فحسب - بل ثمة دوافع دينية وسياسية حيناً آخر - يبدو ذلك من فتنة بابك الخرمي (٥)، و ثورة الزنج (٦) وما صاحبها من اضطرابات .

وكذا ثورة الهاشمين التي اتخذت من المساجد قاعدة لها ، يقول الصولي : "كان لبني هاشم وثوب في المحرم بامام الجامع الغربى فخاتلهم حتى صلى ركعتين خفيفتين قرأ فى الثانية الحمد وقل هو الله أحد ، وخطب بكلمات يسيرة . وصاروا من غد الى الجامع الشرقى فوثبوا بالقاضى وماتركوه يخطب ، فانصرف مفلتامن أيديهم" (٧). وقد نشأت عن هذه الأوضاع المضطربة مجموعة من الظواهر الاجتماعية سجلها الشعر وتفاعل معها . نعرض لها فيما يلى :

-
- (٥) ينظر خبر بابك فى تاريخ الطبرى ٥٢/٩-٥٥ .
(٦) انظر تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣-٣٦٤ .
(٧) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٧٠-٧١ .

التنكر للصديق :

أمام هذا الاضطراب الاجتماعى والشرخ الكبير الحاصل بين فئات المجتمع المتنافرة ، لابد أن يحصل هناك فتور وتفكك فى الروابط والعلاقات والأعراف الاجتماعية .

فالتنكر للصديق ظاهرة تصدى لها الشعر فى العصر العباسى منتقدا اياها فى شتى صورها وطرقها المختلفة .

فهذا ابراهيم الصولى ، يرى أن مسايرة الاخوان للدهر - الذى كان ينظر اليه على أنه معاد للأحرار والكرام - وميلهم معه ، حيثما مال تنكرا للصدقة ، فقال :

اسمعى منى أبئك شأنى

انما ييدى ضميرى لسانى

كم أخ لى كان منى فلما

أن رأى الدهر قد جفانى جفانى

لم يرعنى منه الا عدو

مؤتر نحوى قوس الزمان

مستعد لى بسهم فلما

أن رأى الدهر رمانى رمانى (٨)

أبرز مايلفت الانتباه فى هذه الأبيات الازدواج اللفظى الذى ينبض بمشاعر الحزن .

فالشاعر يستوقف المخاطبة (الوهمية) ليخبرها بما يعتمل فى نفسه ، لعله يجد لديها متنفسا وأذنا صاغية لهمومه التى لم يعد يستطيع كتمانها .

أما أولئك الأخوان الذين تخلوا عنه ، وأخذوا يسايرون الدهر جيئة وروحة ، فقد افتضح أمرهم وظهر عداؤهم .

وهذا ما جعل شدة الخوف تستحوذ على الشاعر ، لأنه يدرك استعداد أولئك الأخوان ، للانقضاض عليه ، بمجرد تنكر الدهر له ، حيث ينضمون للدهر ، ويتنكرون لما كان يصل بينه وبينهم من ود ومحبة .
كما يرى الصورى أن المودة تتأثر سلبا وإيجابا تبعا لمجريات الأمور ، فيقول :

والناس من حولى موداتهم

مع اختلال الحال مختله

كأننى فى يوم حشر ولا

تعارف ثم ولاخله (٩)

فالشاعر ينظر لمن حوله نظرة فاحصة متأملة بادئا بكلمة (الناس) لكى يشعرنا بأن اختلال المودة وتأثرها بالواقع المعاش ، أضحى منتشرا بين الكثير من الناس ، بمعنى أن صداقتهم وصلاتهم مبنية على مبدأ النفعية ، اذ يقول :
(... موداتهم مع اختلال الحال مختلة) .

ولشدة وقع ذلك التنكر على نفس الشاعر ، فقد مائل بينه وبين يوم القيامة ، بجامع التخلّى فى كل .

ويبدو أن الشاعر قد استقى ذلك المعنى من قوله عز من قائل : {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون} (١٠).

أما تظاهر الصديق باللين والتلطف والمحبة، التى سرعان ما يقلع عنها ويتنكر ، فقد تحدث عنه ابراهيم بن المدبر ، فقال :

وصديقا تراه حلوا أنيقا

مؤنسا ملطفا حفيا شفيقا

(٩) ديوانه ١٠٢/٢ .

(١٠) سورة البقرة : آية ٢٥٤

ثم لما رماني الدهر بالغد

ظلة منه صار البعيد السحيقا (١١)

ان أول ما يدور بخلد القارىء عند قراءته للبيت الأول ، تلك الصورة الجميلة المشرقة لذلك الصديق ، التي تنبئ عما يتمتع به من دماثة خلق وطيبة نفس وألفة وإيثار .

لكن سرعان ما تتبدل نظرته بمجرد قراءته للبيت الثاني ، حيث أن (لما) تشعر بأن هناك شيئاً يبنى على شيء آخر . فجفاء الدهر يقابله تنكر الصديق حيث عبر عما أصيب به من الدهر بـ(الرمى) رامزا به الى شدة وقع الألم الذى يفوق غيره من المصائب ، ثم قال عن تنكر صديقه (وصار البعيد السحيقا) تفيد هذه الجملة التحول ثم البعد الذى لا يرجى اللقاء بعده ، وعلى الجملة فقد أحدث هذا التنكر جرحا عميقا وغائرا فى نفس الشاعر ، من الصعب اندماله ان لم يكن من المستحيل .

وبعد فهذا ديدن الأصدقاء غير الأوفياء ، حيث يظهر التودد والحفاوة ، والعطف والإيثار ، لمن يأملون فى نواله ، واذا ما تبدلت حاله ، ونضب معينه ، وأجذبت أرضه ، تفرقوا ونأوا عنه ، وأسلموه لريب الدهر . ويعزوا يزيد المهلبى حديثه عن تنكر له الى الحرمان الذى منى به ، فاضطر معه الى التحدث ، اذ قال :

ألا يا قوم قد برح الخفاء

وبان الصبر منى والعزاء (١٢)

تعجب صاحبى لضياح مثلى

وليس لداء محروم دواء

(١١) أعتاب الكتاب ص ١٦٢ ، شعراء عباسيون ص ٣٨٦ .

وانظر نفس المعنى فى ص ٣٨٣-٣٨٤ .

(١٢) العزاء : حسن الصبر . اللسان (عزا) .

جفانى سيد قد كان برا

ولم أذنب فما هذا الجفاء (١٣)

يضم الشاعر بين جوانحه أرتالا من العتب على من كان يؤمل فيه اقالة عثرته - وهو الذى أصفاه وده ، وقام على خدمته - لكنه خيب أمله وأظهر له الجفاء ، وأمام مشاعر العتب المتأججة فى نفس الشاعر ، لم يستطع كتمان تلك المشاعر ، وهذا ما اضطره الى بث همومه ، والصدع بها .

عبر الشاعر عن تلك المشاعر مبتدئا حديثه بـ(ألا) و(يا) لكى يسترعى انتباه القوم ويهيئهم للاستماع لشكواه التى أقضت مضجعه ، مؤكدا وضوح الأمر وجلاءه ، فيقول : (قد برح الخفاء) ، (وبان الصبر منى والعزاء) . لقد كان ضياع الشاعر ، وتنكر صاحبه له ، مبعث تعجب من أصحابه لأنه أمر غير متوقع ، وهذا مادعا الشاعر الى تعزية نفسه ، بقوله : (وليس لداء محروم دواء) حيث خلع على نفسه صفة الحرمان .

وينفى والألم يعتصر فؤاده أن يكون قد اقرن ما يسوغ الجفاء له ، ورغم الجفوة ، لازال يصف من جافاه بصفات تحفظ له مكانته ، اذ يقول : (جفانى سيد قد كان برا) .

وقبل أن نختم الحديث عن هذه الأبيات ، يجمل بنا أن نشير الى بعض الملامح الفنية ، كالتصريع فى البيت الأول ورد العجز على الصدر ، كما هو واضح فى البيت الأخير وتكرار (قد) التى للتحقيق فى البيتين الأول والثالث .

يتفاوت الناس فى الاحساس بتنكر الأصدقاء ، فمنهم من يتحمل الصدمة رغم هولها ، ومنهم من يظهر سخطه وحسرتة ، يقول جحظة البرمكى :

مازارنى فى الحبس من نادمته

كأسين: كأس مودة ومدام

بخلوا على وقد طلبت سلامهم

فكأننى طالبتهم بطعام (١٤)

ينفى الشاعر زيارة ندمائه له ، ليظهر مشاعر الألم والاحباط التى منى بها من أصدقائه . نظرا لأن صداقته ليست كأي صداقة أخرى ، لكنها صداقة متينة عميقة ، عبر عنها بالمنادمة ، التى تشربها حتى عمت سائر بدنه ، وسرت فى أعماقه كسريان الروح فى الجسد .

ورغم كل تلك الصلات العميقة التى تربط الشاعر بصديقه ، فهو لم يكلف نفسه عناء زيارته فى السجن ، ليرهن على محافظته على مايربط بينهما من صداقة ، وقد عد الشاعر ذلك التنكر بخلا .

وقد يضحى المرء من أجل أحبائه وقومه ، ولاغرابة فى ذلك ، لكن الغريب وغير المقبول ، أن تقابل تلك التضحيات بالتنكر وعدم الاعتراف بالجميل ، هذا ما يحدثنا عنه داعى الدعاة .

أبحث حمى دمی فیهم وفیهم

خسرت شیبیتی وربیع عمری

وفیهم سرت عن وطنی غریبا

أجوب الأرض قفرا بعد قفر

فلما جئتهم طبا عروفا

بعرف حین یأتیه ونکر

قؤولا فى ولائهم فعولا

بذول النصح فى سر وجهر

"أضاعوني وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر" (١٥)

يتحدث الشاعر عن تضحياته التي قدمها من أجل الذين عبر عنهم بضمير الغائبين ، مشيرا الى أهمية تلك التضحية ، فيقول : (أبجت حمى دمي فيهم) فهل بعد بذل النفس ما يمكن الضن به؟ أو أن هناك ما هو أغلى وأنفس من الحياة ليبدل .

ومن أجلهم أيضا ، ضيع أحلى وأغلى أيام عمره التي قال عنها : (وفيهم خسرت شبيبتي وربيع عمري) ومن أجلهم كذلك ضحى بوطنه واستقراره ، وأضحى غريبا يقطع المفاوز المقفرة الموحشة .

فالشاعر عندما يتحدث عن تضحياته - التي أوجزها في العبارات التالية (أبجت حمى دمي ، خسرت شبيبتي وربيع عمري ، سرت عن وطني غريبا ، أجوب الأرض قفرا بعد قفر) ، فانما يرمى الى التعبير عن اخلاصه وتفانيه . ثم عاد اليهم وكله حكمة وتلطف ورقة مشمولة بالتأني والصبر والجود ، بالرغم من التنكر الذي يلاقه . ويعمد الى المبالغة ليوضح موقفه ، فيقول : (قؤولا في ولائهم ، فعولا ، بذول النصح ..) .

فالشاعر لم يكن يكتفى بالقول ، بل كان يشفع قوله بالفعل والعمل واسداء النصح ، كل هذا لم يشفع له في أن يحظى بما كان يأمله ، بل حرم منه ، ولم يجد أفضل من بيت العرجي ليسلكه ضمن أبياته ، نظرا للتوافق الحاصل بين حال الشاعر وحال العرجي .

وبعد : فهل بعد هذا الضياع والنسيان ما يمكن أن يرجي منهم؟

وفي نظرة مغايرة لما سبق من نصوص ، يبدي ابن سنان رضاه عن خلق الغدر ، لأنه كشف له كذب صاحبه وتنكره له ، فيقول :

وسجية فى الغدر كنت أعيها

حتى عرفت بها الصديق الأكبر

ياصاحبى وماوثقت بصاحب

الا تغير وده وتنكرا (١٦)

بدأ الشاعر بواو رب ليدكرنا بالذين يتصفون بطبيعة وخلق الغدر التي
يمجها الشاعر ، لكنه أبدى رضاه عنها ، رغم كرهه لها ، لأنها كشفت له
غدر أجل وأحب وأعظم أصدقائه الذين كان يعول عليهم .
وأخذ يندب حظه العاثر وهو يتظاهر بنداء صاحبه ، لكى يجذب
الانتباه ويلفت الأنظار اليه .

وينظر الأحنف العكبرى الى الناس نظرة قائمة ، فيقول :

دهينا من زمان ليس فيه

سوى متشامت أو مستريب

وحاسد نعمة وصديق وقت

إذا ماغبت ذمك فى المغيب (١٧)

نظر الشاعر الى الناس بمنظار أسود ، ويتضح من خلال هذه النظرة ،
أن الشاعر يعيش حياة قلق واضطراب ، طالما أنه ينظر الى الناس بهذا
المنظار .

فالناس عنده تتملكهم أربع خصال : أناس جبلوا على الشماتة ،
وآخرون اتصفوا بالريبة ، ومنهم من تملكه الحسد ، وأخيرا أصدقاء المنفعة ،
الذين تزول صداقتهم بزوال المصلحة .

أما منصور الفقيه فيرى أن من أسباب التنكر تسنم المناصب الرفيعة ،

يقول :

(١٦) ديوانه ص ٣٩ .

(١٧) أشعار الشحاذين فى العصر العباسى ص ٣٧ .

يامن تولى فأبدى

لنا الجفا وتبدل

أليس منك سمعنا

من لم يمت فسيعزل؟ (١٨)

يعرض الشاعر ببعض الناس الذين تأخذهم عظمة المنصب فيتنكرون لأصدقائهم ظنا منهم أنهم بالمنصب الذى اعتلوه ، قد بلغوا القمة التى لن يتزلوا عنها ، ولن ينالها أحد غيرهم . هذا مادعا الشاعر الى تنبيه من تولى المنصب الرفيع وأبدى الجفاء ، وتنكر لمن حوله ، ثم يطرح عليه تساؤله ، عما كان يتحدث عنه هو نفسه . وبقدر ما فى ذلك من تذكير لمن يتسنى الرتب العليا ، فانه ينطوى على السخرية والاستهزاء من ذلك المتغطرس ، الذى لم يتمثل ماكان يتفوه به .

وعن خيبة الأمل ، فيمن كان يعد سندا وعونا وقت الحاجة ، تحدث دعبل الخزاعى فقال :

فتى كنت أرجوه وآمل يومه

وأشفق أن يفتاله حدث الدهر

فلما تبوأ منزل اليسر والغنى

رمى أملى منه بقاصمة الظهر (١٩)

رمز الشاعر فى بداية بيتيه الى السخى الكريم بـ(فتى) وكان حديثه عن ذلك الفتى ينطلق من منظور الوفاء ، يقول : (فتى كنت أرجوه وآمل يومه) فهو يبنى آماله العريضة على ذلك الصديق الصدوق ، الذى كان يحذر عليه من غوائل الدهر ، يقول : (وأشفق عليه أن يفتاله حدث الدهر) .

(١٨) منصور الفقيه (حياته وشعره) ص ١٢٠ .

(١٩) شعره ص ١٥٨ ، ص ١٧٣-١٧٤ فى معناه .

وإذا تأملنا المقابلة في البيت الثاني ، نجدها تنضح بمشاعر الأمل والحسرة التي تبعث على الضحك والبكاء في نفس الوقت ، لتنكر ذلك الجواد الكريم بعد أن من الله عليه بالنعيم الوفيرة .

ويتحدث الحسن بن وهب عن تنكر من كان يعقد عليه آمالا عريضة ، وعدم اكترائه بما حل به من ضيق ، فقال :

دعوتك في الجلى وقد ضاق مصدرى

على وروانى من السم موردى

فأصممت عنى منك (٢٠) أذنا سمیعة

وقد قصدت لى النائبات بمرصد

فما ضاق عنك العذر عندى ولانبا

بعهدك ناب من مغيب ومشهد

وقلت زمانا قد نهى الناس كلهم

عن البر نهى الموعد المتهدد

وأملت أياما تنوب ورجعة

من الدهر يأتينا بها الله فى غد (٢١)

يعتب الشاعر على المخاطب الذى تخلى عنه وهو فى أمس الحاجة الى مساعدته .

واضح من عتب الشاعر أنه لم يبيح به الا بعد أن بلغ السيل الزبى ، بمعنى أن الأمر جد عظيم . وقد عبر عنه بأسلوب التضاد بالاضافة الى تأكيده شدة المأزق الذى أضحى فيه ، حيث لم يعد يستطيع أن يدفع عن نفسه ،

(٢٠) منك ساقطة من الأصل والتصويب من (آل وهب) ص ١٣٧ .

(٢١) الزهرة ١/١٩٨ .

مما اضطره الى الاستسلام وتجرع ذل الهزيمة المهلكة ، حتى كأنه يشرب السم الزعاف . ثم يؤكد - في سياق حديثه عن اعراض المخاطب عنه - ما حل به من مصائب . ورغم ذلك لم يعدم الشاعر اختلاق الأعذار الواهية ، ليبرر موقفه السلبي .

لقد اتكأ الشاعر على الزمن الماضى ، حيث بدأ أحياته جميعها بالفعل الماضى ، لارتباطه بأحداث جسام مرت بالشاعر ، كان يصارعها وحيدا ، وازاء ذلك فقد كرر (قد) ليؤكد ما قاساه من آلام ، والمخاطب يقف منه موقف المتفرج .

ويبدو أن اهتمام الشاعر بالمعنى كان بمستوى قدرته على السبك اللفظى حيث نجد الطباق بين (مصدرى ، وموردى ، وبين مغيب ، ومشهد) - وهذا فيه اشارة الى الاحتياج والمساعدة ، وغيابها - والجناس بين (نبا ، وناب ، ونهى ، ونهى) حيث يتجسد هول ما حل به .

أما خيبة الأمل فى الناس فقد تحدث عنها أبو هلال العسكرى ، حيث نفى عنهم ودهم ووفاءهم ، فقال :

ألا أن أسباب الصفاء تصرمت

فما لمودات الرجال صفاء

ومالجميع العالمين رعاية

ومالجميع العالمين وفاء

ألا انما آوى (٢٢) وعنقاء (٢٣) مغرب

وعرس (٢٤) واخوان الصفاء (٢٥) سواء (٢٦)

يغلب على صياغة الشاعر اتكاؤه على النفس مسبقا بـ(ألا) . وقد
عضد لتأكيدده على انفصام عرى المحبة وتفككها بتكرار النفس ، ليبين صدق
ماذهب اليه . لقد تمكك اليأس الشاعر ممن كان يخلص وده لهم ، فأخذ
يمائل بين اخوان الصفاء وبين آوى وعنقاء مغرب وعرس في استحالة
وجودها جميعا . وهو في استخدامه لهذا العنصر التراثي (التاريخي
الاسطوري) يبرز غياب الوفاء في تساوى اخوان الصفاء وآوى وعنقاء مغرب
وعرس . ولعله اتكأ في ذلك أيضا على التصدير والمجانسة .
ولقد سبق الشاعر الى هذه الأسطورة أبو نواس في قوله :

(٢٢) ابن آوى : دويبة . والجمع بنات آوى . اللسان (أوى) . أما آوى فلا وجود
له .

(٢٣) عنقاء مغرب : من الألفاظ الدالة على غير معنى ، قال بعضهم : هو طير غريب
بيض بيضا كالجبال ويبعد في طيرانه ، وقيل سميت بذلك لأنه كان في عنقها
بياض كالطوق ، وقيل هو طائر يكون عند مغرب الشمس .
وقد تحدث عنها القزويني فقال عنها : انها أعظم الطير جثة وأكبر خلقه ، تخطف
الفيل كما تخطف الحدأة الفأر . وذكرها أرسطاطاليس ، وأبو البقاء العكبري
والسهيلي ... وغيرهم .

انظر حياة الحيوان ٨٦/٢ ومابعدها .

(٢٤) عرس : ابن عرس دويبة .. ويجمع على بنات عرس . اللسان (عرس) .

(٢٥) اخوان الصفاء : الصفاء : مصدر الشيء الصافي .. والصفاء : مصافاة المودة
والاخاء . اللسان (صفا) .

(٢٦) ديوانه ص ٤١ .

وما خبزه الا كعقواء مغرب

تصور فى بسط الملوك وفى المثل (٢٧)

وبالاضافة الى ماتقدم نلاحظ أن الشاعر عمد الى التحسين اللفظى ،
حيث نجد التصدير (رد العجز على الصدر) فى البيت الأول والجناس فى
البيت الثانى ، ويحمل بنا أن نشير الى اتفاق هذا النص وسابقه ، فى الحديث
عن فساد الزمن بصفة عامة .

ومن مظاهر التنكر أيضا التخلى وقت الحاجة . يقول الامام الشافعى :

وما أكثر الاخوان حين تعدهم

ولكنهم فى النائبات قليل (٢٨)

وفى شكوى مشوبة بالألم والحسرة ، يعزو ابراهيم بن العباس الصولى ،
تفرق الاخوان الى التقدم فى السن ، وموت الأتراب ، فيقول :

ولما علتى كبرة وتوزعت

لداتى مناياهم وأوحش جانبى

تفرق اخوانى فريقين منهم

عتاد عدو أو عتاد النوائب

وأنحى على الدهر حتى رأيتنى

مسالم أعدائى ونهزة صاحبى (٢٩)

فالشاعر قد تقدم به العمر ، مما جعله يشعر بالضعف والوحشة ، سيما
بعد أن انتقل أقرانه الى الدار الآخرة .

(٢٧) ديوانه ص ٦٨٣ .

(٢٨) شعره ص ٣٠٦ .

(٢٩) الطرائف الأدبية ص ١٥٦ ، ص ١٦١ .

وكان من نتيجة ذلك ، تبدل أحواله ، يقول : (وأوحش جانبي) ففي هذه الجملة يببالغ الشاعر وهو يتحدث عن الوحشة ، ولعل هذا راجع الى حالته النفسية القلقة ، حيث يظهر واضحا جليا مايعانيه الشاعر من قلق واضطراب نفسى من خلال قوله : (وأغى على الدهر ...) فهذه العبارة تدل على شدة مايعانيه الشاعر من ألم ، ومايقاسيه من وطأة الدهر .

وأمام تلك القسوة والمصائب ، التي تنزل عليه ، لم يجد بدا من أن يسالم أعداءه ويذعن لهم على مايبينه وبينهم من عدااء محتدم ، وهو فى حالة نفسية سيئة ، زادها سوءا أنه أضحى فريسة وصيدا سهلا لأصدقائه الذين كانوا عوناً للدهر ولأعدائه كذلك .

أما دعبل فيرى أن الناس كثر ولكنهم غناء كغشاء السيل ، فكثرتهم ليست ذات غناء ، فيقول :

ما أكثر الناس لابل ماأقلهم

الله يعلم أنى لم أقل فنذا

انى لأفتح عينى حين أفتحها

على كثير ولكن لأرى أحدا (٣٠)

من الملاح الأسلوبية التي تلفت الانتباه فى هذين البيتين ، أسلوب التعجب الذى غلب على صياغتها ، وربما كان لحالة الشاعر النفسية ، التي يعانى فيها من سوء الناس ، رغم الكم الهائل منهم أثرها - والألم الممض يعتصر فؤاده - فى اختيار أسلوب التعجب ، كما كان لصيغة أفعال ، التي كررها الشاعر مرتين ، أثرها فى تصوير المعنى والمبالغة فيه ، لتظهر أهمية مايعانيه الشاعر من عدم نفع الأصدقاء .

ثم يؤكد على كثرتهم ، ولكنها كثرة ليست ذات غناء ، والشاعر وهو يؤكد ذلك يشفع تأكيده بالرؤية لقوتها في اثبات وتأكيده ماذهب اليه . ولعدم افادة ابن الرومي من الأصدقاء على كثرتهم ، فقد كانت معرفته اياهم ، تفيده كلما عنت له حاجة ، فيظهر الرضا ، ولكن بعد فوات الأوان فيقول :

ولى أصدقاء كثير و السلام

على وما فيهم نافع

اذا أنا أدلجت في حاجة

لها مطلب نازح شاسع

فلى أبدا معهم وقفة

وتسليمة وقتها ضائع (٣١)

يحدثنا الشاعر عن نفسه حديثا يخبرنا فيه أن له أصدقاء كثير معبرا عن ذلك بقوله : (ولى أصدقاء كثير و..) غير أنهم ليسوا ذوى فائدة ، بل لهم مضارهم رغم كثرتهم ، لذا قال : (السلام على) مشيرا الى أن أصدقاءه يكثرون السلام عليه ولا فائدة منهم ، يقول : (وما فيهم نافع) فالنفي هنا فيه توضيح وتأكيده لما ينطوى عليه أولئك الأصدقاء ، سيما وأنه يصدر عن خبير حصيف بأحوال أولئك الأصدقاء ، ثم يؤكد لنا لجوءه الى الامعان في السير للحصول على ما يريد وعزمه على المضي ، في مبالغة واضحة الى بعد وكثرة ما يأمل الحصول عليه .

غير أن المؤسف حقا ، أن الشاعر لم يجد من هؤلاء الأصدقاء من يعينه على تحقيق مطلبه ، مكتفين بالسلام عليه . وبذلك يضيعون وقته بدلا من أن يفيدوه .

أما ابن أبي حصينة فيرى أن الأصدقاء تختلف موداتهم باختلاف
الأحوال والمكانة ، فيقول :

حتى اذا دار الزمان عليكم
وأراكم اليقظات كالأحلام
قل الصديق لكم وضاع جميلكم
فى الأبعدين وفى ذوى الأرحام (٣٢)

عن طريق التشبيه جعل الشاعر الزمن يدور على مخاطبيهم ، فينقلب
عليهم فيهجروهم أصدقاؤهم ويتنكروا لهم ، وهذا يذكرنا بقول أبي البقاء
الرندي :

دار الزمان على دارا وقاتله
وأم كسرى فما آواه ايوان (٣٣)

والحقيقة التي يعبر عنها هي أن الذين يتحدث عنهم الشاعر هم من
الذين تعرضوا لجور الزمان كغيرهم من خلق الله ، مصورا حالة الذهول
التي يعانون منها من جراء الصدمة التي تعرضوا لها ، والتي جعلتهم يرون
الحقيقة وهي ماثلة أمام أعينهم ، كالحلم الذي يأتي في وقت تذهلون فيه عن
الحقائق الماثلة أمامكم فترونها كالأحلام .

ونتيجة لدوران الزمان وجفوته لهم (قل الصديق) وفي هذا دلالة على
فساد نوايا هؤلاء الأصدقاء ، وأنهم أصدقاء مصلحة ، بمعنى أن صداقتهم
وقتية .

(٣٢) ديوانه ٢٢٢/١ .

(٣٣) أبو البقاء الرندي (شاعر رثاء الأندلس) ص ١٤٥ .

ثم يعبر عن الحسرة والألم على ما قدموه من صنائع في الأقارب والأبعدين ، بقوله : (وضع جميلكم ...) فالضياع هنا عدم رد الجميل والفضل وأن تلك الصنائع كانت فيمن لا يقدرها حق قدرها .

ومن مظاهر التنكر ، التلون وعدم الثبات على مبدأ ، فتارة يظهر المتلون الوفاء ، ثم لا يلبث أن يغدر ، يقول ابراهيم الصولي :

وكنت أخى بالدهر حتى اذا نبا

نبوت فلما عاد عدت مع الدهر

فلا يوم اقبال عددتك طائلا

ولا يوم ادبار عددتك من وترى

وما كنت الا مثل أحلام نائم

لدى حالتك من وفاء ومن غدر (٣٤)

يتحدث الشاعر عن تأرجح صديقه بين القرب منه والبعد عنه ، وهو ما أصابه بالذهول ، لأنه لم يكن يتوقعه من صديقه ، نظرا للتلاحم والتآخي الذي يصل بينهما ، يتضح ذلك من قوله : (وكنت أخى بالدهر) فقد أفادت الباء التلاحم والملاصقة ، ورغم ذلك لم يحافظ صديقه على ذلك التلاحم ، بل أخذ يجارى الدهر جيئة وروحة ، وهذا هو التلون بعينه . وقد ترجم الشاعر ذلك التلون في مقابلة تنضح بما يعتمل في نفسه ، حيث قابل بين شطرى البيت الثانى .

ثم لجأ الى أسلوب الاستثناء المفرغ ، ليقارن بين صفة صديقه في حال وفائه وفي حال تنكره ، وبين الحلم ، فكلاهما لا غناء فيه .

يظهر من هذه المقارنة استخفاف الشاعر بذلك الصديق ، وعدم الركون اليه ، تماما كالحلم الذى سرعان ما تزول بهجته ، بمجرد الاستيقاظ من النوم .

(٣٤) الطرائف الأدبية ص ١٥٨ . وانظر نفس المعنى فى شعراء وأدباء فى العصر العباسى

فاهتمام الشاعر بالمعنى لم يصرفه عن أن يهتم بالتحسين اللفظى -
كالازدواج اللفظى ، والجناس ، والتصدير - لما له من أثر ينعكس على
الايقاع الشعرى .

ويتحدث مهيار الديلمى عن الاخوة الزائفة التى يتخلق بها أصحابها ،
حيث يظهرون الايثار والفداء وقت الرخاء وينقلبون وقت الشدة ، فيقول :

وأخ مع السراء من عددى

وعلى فى الضراء والشر

تطوى حشاه على تبسمه

أضلاع مشرحة على الغمر

مولاي والأحداث مغمدة

فاذا انتضين فرى كما تفرى

تعب بحفظ هنات ميسرتى

حتى يعددها على العسر

الدهر ألين منه لى كنفا

لو كان يتركنى مع الدهر (٣٥)

بدأ الشاعر أبياته بالمقابلة لما لها من أثر فى نفس القارىء وشد انتباهه
للمعنى الذى يرمى اليه ، وهو تنكر الأخ وميله مع النعماء حيث مالت .
ويتضح من كلمة (تطوى) أن الحقد قد بلغ من ذلك الأخ - الذى تحدث
عنه الشاعر - مبلغا عظيما ، وتدل أيضا على الاحاطة والتمكن القوى
الصلب كصلابة الأضلاع المضمومة على الغل والحقد ، الذى يخفيه بانفراج
الأسارير ، فرغم تبسمه فان أضلاعه منطوية على الحقد .

ثم يعود للمقابلة مرة أخرى في البيت الثالث ليبين تلون بل تنكر ذلك الأخ ، الذى يظهر فى شكل المنافع والذاب عن الشاعر ، فى وقت الرخاء والعطاء ، لكنه سرعان ما يتغير فينقلب ، حيث يصبح عوناً وسنداً قوياً للمصائب وهى تنثال على الشاعر . وكيف لا يصدر مثل هذا التصرف؟ وهو الذى أجهد نفسه فى احصاء الهفوات التى وقع فيها الشاعر أثناء اقبال الدنيا عليه ، حتى يذكرها بل ويعددها وقت الضراء .

لذا يرى الشاعر أن من هذه أخلاقه وذلك سلوكه ، يجب الابتعاد عنه حيث ان الدهر على ما يحفل به من مصاعب ، أرأف من ذلك الأخ ، يقول : (الدهر ألين منه لى كنفاً) ينعت الشاعر الدهر فى هذه العبارة بالليونة ، ثم يقول : (لو كان يتركنى مع الدهر) فهذه العبارة مليئة بشحنة عاطفية ، فيها صرخة ، تصور ضيقه بتصرفات صديقه . ولقد تكرر هذا المعنى نفسه فى كثير من الأشعار فى تلك الفترة .

ومما أثار انتباه الشريف المرتضى ، سرعة تنكر الاخوة ، فبينما يتظاهرون بالوفاء ، نجدهم يتخلون عن ذلك الوفاء فى سرعة مذهلة ، يقول :
وأخ بدا منه القبيح عقيب ما

فعل الجميل فضاع منه جميله

شفع الزيارة هجره وبعاده

وتلا الوصال صدوده وعدوله

مان يروعك قصده مستشعرا

نسج الدجى حتى يروع قفوله

متلون اعطاؤه حرمانه

متقلب ممنوعه مبذوله (٣٦)

تدور هذه الأبيات على الأخ المتلون ، لذلك اتسمت بالمبالغة لكثرة المتناقضات فيها ، كجعله الحرمان هو عطاءه ، والمبدول هو منعه .
لقد استهل الشاعر أبياته بكلمة (أخ) ليشعرنا بالمأساة من جراء مايفعله الأخ الذى يصنع الجميل مردفا بفعل القبيح ، دون أدنى تورع ، يقول : (بدا منه القبيح عقيب ما فعل الجميل) ، فبدا ، تدل على الظهور والوضوح والتصغير فى عقيب ، يدل على أن ذلك حدث فى وقت قصير . وهذا النوع من التناقض ينفى عن الفعل مصداقيته مما دفع بالشاعر الى أن يتبع الزيارة التى رمز بها الى الألفة والمحبة - بالهجر والبعاد - ففى الهجر ماينبىء عن شدة ألم ذلك البعد ، كما يتبع الوصال - بما يعنيه من تلاحم وقربى - بالصدود والعدول .

غير أن الشىء المرعب الذى أقض مضجع الشاعر هو استجلاؤه لما يرمى اليه ذلك الأخ ، وأن ما هو مقدم عليه شر مستطير وأمر عظيم مفعج رمز اليه بـ(مستشعرا نسج الدجى) وبقدر ثقل وطأة خير اقدمه على الشر ، يستقبل الشاعر - وهو لم يكذب يفتق منها - خبر رجوعه وتخليه عن ذلك الشر فى وقت قصير ، يصيب متلقيه بالذهول . وهذا مادعى الشاعر للحكم عليه بالتلون وعدم الوفاء .

وقد عبر عن ذلك التلون بمقابلة فيها من اليأس وعدم الاكتراث بمواعيده الشىء الكثير ، حيث قابل بين (اعطاؤه وحرمانه وبين ممنوعه ومبدوله) .

لقد بعث هذا التلون من قبل مثل هذا الأخ ، الحيرة والشك فى نفس الباحثرى ، فقال :

وأخ رابنى فأضربت عنه

أى اخوانك الذى لايريب؟

ورأيت الصديق يختان في الود

(٣٧) كما اختان في الصفاء الحبيب

رغم وضوح القلق النفسى لدى الشاعر الا أنه كان صارما في اتخاذه
قرار الابتعاد عن ذلك الأخ المريب ، وفي نفس الوقت يعزى نفسه ، بقوله :
(أى اخوانك الذى لا يريب؟) ففي هذا التساؤل ، يشعرنا أنه ليس هو
الوحيد الذى تملكه الشك . ويؤكد لنا خيانة الصديق ، بقوله : (ورأيت
الصديق يختان في الود) .

وبما أن خيانة الحبيب أصبحت من الشهرة في الشعر ، بحيث جرت على
لسان الشعراء جميعا ، فان خيانة الصديق بلغت من الانتشار والشيوع ، بحيث
ماثلت خيانة الحبيب .

ويتحدث أبو فراس عن تنكر أصحابه وتخليهم عنه ، في وقت هو في
أمس الحاجة اليهم ، فقال :

تناسانى الأصحاب الا عصبية

ستلحق بالأخرى غدا وتحول

ومن ذا الذى يبقى على العهد؟ انهم

وان كثرت دعواهم لقليل

أقلب طرفى لأرى غير صاحب

يميل مع النعماء حيث تميل

وصرنا نرى أن المتارك محسن

(٣٨) وأن صديقا لا يضر خليل

(٣٧) ديوانه ٣٥٥/١ - ٣٥٦ ، ٢٧٧/١ - ٢٧٨ .

(٣٨) ديوانه ص ١٣٦ .

ير الشاعر بأزمة نفسية حادة سيما وأنه مثقل الفؤاد ، يعاني من الجراح بفعل خوضه للحروب ، غير أن الجراح الداخلية أعمق غورا وأشد أثرا عليه .

وبنفس يملؤها الحزن والاحباط على ما قدمت من أعمال جليلة ، يقول (تناساني الأصحاب ...) فالنسيان فيه اشارة الى أنهم لا يرون فيما قدمه من تضحيات ما يستحق الاشادة به ، أو أنهم يتجاهلون هذه المواقف منه . ثم يستثنى فئة قليلة منهم ، لا يعول عليها ، لازالت تذكره ، رغم أنها في طريقها للحاق بركب الأصحاب ، ففي تصغيره للمستثنى (عصيبة) دلالة على التقليل من عدد تلك الفئة المستثناه ولتشاؤمه وسوء ظنه بالصدافة والأصدقاء ، توقع أنهم في المستقبل القريب سوف ينضمون الى سابقهم ، مشيرا الى ذلك بالسين في كلمة (ستلحق) فاقتزان السين بـ(تلحق) فيه دلالة على قرب مسارعته في اللحاق بهم ، والتي أكدها بكلمة (غدا) وفي هذا المسلك تحول أى تلون وتبدل .

ويبدو أن اعراض الأصحاب عنه وتلون معاملتهم له ، جعله يفقد الثقة في الجميع ، لذا طرح هذا التساؤل : (ومن ذا الذى يبقى على العهد؟) .

ثم يؤكد ماذهب اليه من عدم وفاء الأصحاب بـ(ان) حيث يقول : (انهم وان كثرت دعواهم لقليل) .

لقد استطاع الشاعر أن يشد انتباه القارئ ليشاركه مشاعره ، عندما قال :

أقلب طرفى لأرى غير صاحب

يميل مع النعماء حيث تميل

ففى هذا البيت اشارة واضحة الى أن الشاعر يجلس وحيدا ، لأنيس ولاجليس غير نظراته المتتابعة المتأملة المشوبة بالحزن - فهى كالكتاب الملىء بالأتراح ، تقلب صفحاته واحدا تلو الأخرى - يستقرىء من خلالها

الروابط والعلاقات والخبرات الاجتماعية ، التي استفاد من تجاربها ، أن
الأصحاب لا يلتزمون ولا يحرصون على الوفاء بحق الصداقة .

وبعد ذلك التأمل الممض ، تغيرت نظرة الشاعر وتبدلت ، فقال :
وصرنا نرى أن المتارك محسن

وأن صديقا لا يضر خليل

قام الشاعر في هذا البيت بتغيير الضمير من المتكلم المفرد الى الجمع ،
ويبدو أنه لجأ الى هذا العدول لأن هذه الظاهرة أصبحت من العموم بحيث
لا تقتصر على الشاعر وحده . فهو يرى أن من ابتعد أحسن صنعا لأنه كشف
عن زيفه ، ثم يؤكد أن الصديق الذي لا يلحقك ضرره هو الصديق الحق في
هذا الزمان .

وأخيرا يشكو ابن العميد من تنكر صديقه ، وتخليه عنه بمجرد أن
أقبلت عليه الدنيا ، متناسيا اخلاصه له ، فيقول :

وصاحباً^(٣٩) كنت مغبوطاً بصحبته

دهراً فغادرني فرداً بلاسكن

هبّت له ريح اقبال فطار بها

نحو السرور وألجأني الى الحزن

نأى بجانبه عني وصيرني

من الأسى ودواعى الشوق فى قرن

وباع صفو وداد كنت أقصره

عليه مجتهداً فى السر والعلن^(٤٠)

(٣٩) صاحباً : منصوبة على العطف .

(٤٠) اليتيمة ١٧٢/٣ .

على غير ما ألفناه فى النصوص السابقة التى تحدثت عن التنكر ، يتحدث ابن العميد ، عن تنكر وتخلّى الصاحب ، نظرا لاقبال الدنيا عليه ، التى أنسته الأيام الخوالى التى نعم فيها بدفء الصداقة ، مع من يأنف اليوم الاتصال به .

ويظهر من خلال تعبير الشاعر عن شكواه من صاحبه الذى يقول فيه (وصاحباً كنت مغبوطاً بصحبته دهراً) أنه قبل أن يتضح له ما تنطوى عليه نفس صاحبه ، كان محسوداً على مرافقته إياه فترة طويلة ، يظهر ذلك من كلمة (دهراً) . ثم يصور حاله بعد تخلّى صديقه عنه ، بقوله : (فغادرنى فرداً بلاسكن) فالمغادرة تعنى البعد والنأى والصرم ، فقد كان لها أثرها السىء على نفس الشاعر الذى أضحى وحيداً "بلاسكن" أى بلا أنيس ولا جليس . أما اقبال الدنيا على الصاحب ، فقد وصفها الشاعر ، بهبوب الريح ، تمهيداً لتشبيهه بعده عنه بالطيران مع الريح ، والتحليق به فى أجواء السعادة . وفى المقابل كان لذلك الاقبال انعكاسه على الشاعر ، فقد عبر عنه ، بقوله : (وألجأنى الى الحزن) فهذه العبارة توضح ارغام الشاعر على الاكتئاب والحزن .

ونلمح أيضاً من تعبير الشاعر أنه لم يعد يستطيع أن يدنو من صاحبه لأنه لا يقوى على مجاراته فى حياته الجديدة المترفة .

ثم يفصح عن تألمه ، لما آلت إليه حاله فيقول : (نأى بجانبه عنى) فالنأى ينطوى على معنى البعد والجحود ، ولكنه بعد فيه إهمال ونأى منه . وهذا البعد والجحود كان السبب فى ضيق الشاعر وحنقه . لذلك رمز الى تنكر صاحبه بقوله : (وباع صفو وداد ...) فالبيع فيه إشارة الى عزم الصاحب على صرم الشاعر دون تردد .

وفى عبارة يشتم من خلالها وجد الشاعر ، يقول : (كنت أقصره عليه مجتهداً ...) كأنى بالشاعر يريد أن يقول : يا ضيعة صنيعى وإخلاصى الذى ذهب أدراج الرياح .

اللئام (٤١):

"من علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول ، سىء الفعل ، بعيد الغضب ، قريب الحسد ، حمولا للفحش ، مجازيا بالحقد ، متكلفا للجود صغير الخطر ، متوسعا فيما ليس له ، ضيقا فيما يملك" (٤٢).

ويحذرنا أردشير من اللئيم ، فيقول : "احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع ، واعلموا أن الكرام أصبر نفوسا ، واللئام أصبر أجساما" (٤٣).

يقول المتنبي :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وان أنت أكرمت اللئيم تمردا (٤٤)

لقد بدا الشعر في العصر العباسي متصديا لهذه الظاهرة ، التي لم تفتأ تبث سمومها بين فئات المجتمع ، ولما تنطوى عليه من أمراض اجتماعية خطيرة ، فهي بمثابة البؤرة التي ينطلق منها كثير من الأمراض الاجتماعية ، بل جلها ، كالنفاق ، والبخل ، والغيبة والنميمة ، والكذب ، والغدر ، والوشاية ، والحسد ، والرياء .

وعلى الجملة فاللؤم من الأدواء الاجتماعية التي تنخر في جسد المجتمع .

ويجمل بنا ونحن نتحدث عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، أن نبرز موقف الشعر العربي من الضرر الناجم عن هذه الظاهرة .

(٤١) اللؤم : ضد العتق والكرم واللئيم الدنيء الأصل الشحيح النفس . اللسان (لأم) .

ولؤم الرجل لؤما وملأمة : فهو لئيم . الجمهرة ١١٠٣/٢ .

(٤٢) الأدب الصغير ص ٣٣ .

(٤٣) بهجة المجالس وأنس المجالس ٦٢٧/١ .

(٤٤) ديوانه ٢٨٨/١ ، معجز أحمد ٣٨٢/٣ .

فالعسكري لا يؤمل انتظار الخير في الوقت الذي بدل فيه اللئام بالكرام ، سيما وأنهم يعتقدون بلوغهم ، متزلة نخولهم الاستعلاء على الكرام فيقول :

لاتأملن الخير فى الزمن الذى

حل اللئام به محل كرام

ومن البلية أن يرانى دونه

من ليس يصلح أن يكون غلامى (٤٥)

ينقل لنا الشاعر مشاعره نحو هذا التحول الخطير ، ومدى ما وصلت اليه غطرسة هؤلاء اللئام من تكبر وعجرفة .

فنفى الشاعر للخير وانقطاعه ، كان نتيجة حتمية لحلول اللئام مكان الكرام ، بمعنى غلبة اللئام وكثرتهم ، بحيث لم يعد هناك خير يرجى فى أولئك اللئام ، ويردف امتناع الخير باحتقارهم له .

وقد يغرق اللئام فى العداء للكرام ، دون رادع أو وازع من ضمير ، ولعل الشريف الرضى لم يغال عندما قال :

بئس التحية بيننا المران (٤٦)

وضراب يوم وقية وطعان

بسطوا الى أناملا مغروسة

فى اللؤم لم يعرق لهن (٤٧) عنان (٤٨)

(٤٥) ديوانه ص ٢١١ ، ص ١٨٤،٧٩ .

(٤٦) المران : الرماح الصلبة . اللسان (مرن) .

(٤٧) يعرق : أى لم يعرق لى بهذا السيف عن مودة ، انما أخذته منه غضبا ، وقيل هو القليل من الثواب . شبه بالعرق . اللسان (عرق) .

والعنان : المعانة : المعارضة . اللسان (عن) .

(٤٨) ديوانه ٥٥٨/٢ .

جعل الشاعر التحية المتبادلة بينه وبين اللئام الرماح ، مدللا بذلك على العداء المحتدم بينهم ، اذ قال : (بئس التحية بيننا المران) نلاحظ من هذه العبارة أن الشاعر لم يكن راضيا عن ذلك . غير أن معاملتهم اللئيمة التي لاكرم فيها ولاوفاء ، لم تكن ترق للشاعر .

فقد عبر عن اغراقهم فيها بقوله : (بسطوا) معبرا عن شدة لؤمهم ، وتعمقهم فيه ، بقوله : (أنا ملامغروسة في اللؤم) حيث يشتم منها ما يخفيه اللئام من حقد دفين ، وفي هذا اشارة الى تملقهم .

ومن سنة الحياة تبدل الأحوال ، وعدم الثبات على وتيرة واحدة في شتى مناحى الحياة ، وفي هذا الاطار ، نجد الشعر يسجل لنا انقراض الكرام وحلول اللئام مكانهم ، يقول ابن أبي فنن في ذلك :

ذهب الزمان برهط حسان الأولى

كانت مناقبهم حديث الغابر

وبقيت في خلف تحل ضيوفهم

فيهم بمنزلة اللئيم الغادر

سود الوجوه لئيمة أحسابهم

فطس الأنوف من الطراز الآخر (٤٩)

بدأ الشاعر أبياته بالحديث عن الزمن الماضي ، حيث قال : (ذهب الزمان ، ... ، كانت مناقبهم) ليدلل على انسداد الستار على الكرام الذين ولوا مع السنين الخوالى ، ثم يصور واقعه الذى يعيشه بقوله : (وبقيت) حيث وجد نفسه بين أقوام لئام ، لا يقرون الضيف ، ولا يحفظون الود . ويبدو أن هذا هو مادعا الشاعر الى هجائهم فى البيت الثالث .

وقد سبق الشاعر الى معناه الذى طرقة فى البيت الثانى ، من قبل
لييد (٥٠). كما عيب عليه عكسه لمعنى بيت حسان بن ثابت (٥١)، فى البيت
الثالث ، حيث عكس المدح الى ذم ، غير أنى لأرى فيه عيبا ، فالشاعر هنا
يهجو وحسان يمدح .

ويوجه الشعر اللوم على الدهر الذى كان قاسيا على الكرام ، وعطوفا
على اللئام ، يقول عبيد الله الميكالى فى ذلك :

يادهر ما أقساك يادهر
لم يحظ فيك بطائل حر
أما اللئام فأنت صاحبهم
ولهم لديك العطف والنصر
يبقى اللئيم مدى الحياة فلا
يرتاع منه لحادث صدر
تصفو له الدنيا بلا كدر
ويطيعه فى عيشه اليسر
فمرامه سهل وكوكبه
سعد وغصن سروره نضر
وعلى الكريم يد يسلطها
منك الجفاء المر والقسر
ان ناب خطب فهو عرضته
يفريه منه الناب والظفر

(٥٠) أخذ الشاعر المعنى من قول لييد .

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجر
انظر ديوانه ص ١٥٣ .

(٥١) البيت : انظر المنصف لابن وكيع ص ٣١ .

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

هذا البيت من قصيدة يمدح بها حسان عمرو بن الحارث . انظر ديوانه ص ٣٦٦ .

أو يبع معروفًا لديك غدا
 ينحى عليه حادث نكر
 مرعاه جذب والحظوظ له
 حرب وجانب عيشه وعر
 وجناه شوك والبحور له
 وشل وحشو فؤاده جمر
 يادهر دع ظلم الكرام فهم
 عقد لنحرك لو درى النحر
 سالمهم واستبق ودهم
 فهم نجوم ظلامك الزهر (٥٢)

يكرر الشاعر نداءه للدهر ، مبديا تدمره ، وضيقه به ، لرعايته
 وكلاءته للؤماء الذين أضحوا بفضل رعايته لهم ، يرفلون في أثواب السعادة
 ورغد العيش وسعة ذات اليد ، وتنكره للكرام وقسوته وجفائه لهم .
 لقد أضفت صياغة الشاعر لمعناه رونقا جذابا ، أثار به مايعتمل في
 النفوس ، تجاه الحياة المتقلبة ، والتزعزعات الاجتماعية المختلفة .
 ففي تعبيره عن اللئام ، وضح صداقة الدهر لهم ، من خلال قوله :
 (أما اللئام فأنت صاحبهم) . لذا فهم يعيشون حياتهم بالطول والعرض ،
 دون أن يكدر صفوها مكدر ، حيث يقول :

يبقى اللئيم مدى الحياة فلا

يرتاع منه لحادث صدر

فمطالبه مجابة ، والطريق إليها جد سهل ، لأن قيم المجتمع قد تبدلت
 وتغيرت حتى سمحت بسيادة السفلة واللئام ، يقول : (فمرامه سهل وكوكبه
 سعد) .

أما حديثه عن الكرام ، فيتضح منه مدى عداء الدهر وتنكره لهم ، فقد استعار للدهر يدا معبرا بذلك عن بطش الدهر بهم ، يقول : (وعلى الكريم يد ...) وإذا ما وقعت مصيبة كان الكرام هم ضحيتها ، مصورا حالهم ، بحال الفريسة ، وقد مزقتها أنياب وأظافر السباع والطيور الجارحة ، في قوله : (يفريه منه الناب والظفر) .

ثم عبر الشاعر عن قلة ما في اليد ، وشظف العيش ، ومعاندة الحظ له في أسلوب جميل راق ، اذ يقول :

مرعاه جذب والحظوظ له

حرب وجانب عيشه وعر

ورغم ذلك لم يأل جهدا ، ولم تلن قناته ، بل أخذ يكدح ويكافح من أجل حفظ ماء الوجه ، لكن دون جدوى ، يقول :

وجناه شوك والبحور له

وشل وحشو فؤاده جمر

وأخيرا أخذ الشاعر ينادى الدهر ، وكأنه يعقل ويسمع ، ويدعوه الى الاقلاع عن ظلم الكرام ، الذين يمثلون الوجه المضىء للحياة ، يقول :

يادهر دع ظلم الكرام فهم

عقد لنحرك لو درى النحر

سالمهم واستبق ودهم

فهم نجوم ظلامك الزهر

ومما يثير حفيظة الشعراء ، رؤيتهم للؤماء وهم يتنعمون ويتلذذون برغد العيش ، في حين حرم الكرام منه ، يقول : صردر في مثل هذا المعنى :

أرى الأموال فى اللؤماء تثوى

وتجتنب الكرام من الرجال

كذاك الدر فى ملح أجاج

وليس يكون فى عذب زلال (٥٣)

فتنعم اللؤماء بالمال وحرمان الكرام منه ، كان له الأثر الكبير على نفسية الشاعر القلقة الحزينة ، اذ يقول : (أرى الأموال فى اللؤماء تثوى) ، لقد خلع صفة البشرية على المال ، حيث أن الثواء ، يفيد الزول والمكوث طويلا . بمعنى أن المال يسير فى أيديهم بشكل دائم ومستمر ، وفى المقابل لانجد مثل ذلك بجوزة الكرام .

ويعزى الشاعر نفسه فى البيت الثانى ، حيث جعل الكرام كالماء العذب القراح ، الذى ينعدم فيه اللؤلؤ والمحار ، بينما وصم اللؤماء ، بماء البحر المالح ، الغنى بالأصداف والآلىء .

لقد كانت المقابلة هى السمة البارزة فى صياغة هذين البيتين . ونظرا لما يتصف به اللئيم من خصال سيئة ، فقد أصبح من الفئات التى يندر ، بل ينعدم الثناء عليها ، ففى عدم الثناء عليه يقول المعرى :

يعرى اللئيم من الثناء ويكتسى

حلل النواسج فهو كاس عار

والدهر لم يشعر بما هو كائن

فيه فكيف يذم فى الأشعار؟ (٥٤)

عبر الشاعر عن انتفاء الثناء على اللئيم ، بقوله : (يعرى) ويعبر عن افتضاح أمره وانكشاف ما يخفيه فى أعماقه بقوله : (فهو كاس عار) وهو وان حاول التظاهر بمظهر مزيف ، فلن يفلح فى ذلك . وفى نفس الوقت يشير الى

(٥٣) ديوانه ص ٢١٠ .

(٥٤) اللزوميات ٢/٩٩٧ ، ص ٥٣١ .

عدم ضلوع الدهر فيما يقترفه اللئيم من أعمال مشينة ، لعدم قدرته على الاحساس بما يجرى فيه من تجاوزات ، من قبل اللئام ، فهو برىء منها ، براءة الذئب من دم يوسف - عليه السلام - وهذا يذكرنا بقول الامام الشافعي (٥٥):

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

لذلك نجد الشاعر يتساءل عن الاسراف في ذم الزمن ، يقول : (كيف يذم في الأشعار؟) وقد امتد نقد اللؤماء واستهاجنهم الى أولئك الذين يمجدونهم ويرفعون من مكانتهم ، يقول ابن الرومي في ذلك :

لولا عبيد الله قلـ

ت ولم أخف رهق الجناح (٥٦)

يامادح القوم اللئام

م وطالبا نيل الشحاح

مأنت في زمن المديح

ح ولا الهجاء ولا السماح

حدثت أكف ليس يند

بط ماءها الا المساحي

(٥٥) شعره ص ٣٢١ .

(٥٦) الرهق : محرقة : السفه والنوك والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .

القاموس (رهقه) .

والجناح بالضم : الميل الى الاثم ، وقيل هو الاثم عامة .. والجناح : الجناية

الجرم . اللسان (جنج) .

وجلود قوم ليس تأ
لم غير أطراف الرماح
ماشتت من مال حمى
ياوى الى عرض مباح
فاشغل قريضك بالنسيب

ب وبالفكاهة والمزاح (٥٧)

بدأ الشاعر أبياته بـ(لولا) وكأن دماثة خلقه ، المتمثلة في اجلاله لعبيد
الله منعتة من افشاء ما يضره من سر دفين ، حتى لو كلفه ذلك الشيء
الكثير من ركوب الشر ، بل الاثم عامة .

ولعل سمات اللثام التي تعرفنا عليها من خلال النصوص التي بين
أيدينا مجتمعة ، هي التي حدت بالشاعر الى الدعوة لترك مدح اللثام ،
والانصراف الى كل ما يدعو الى المرح في خضم تلك الحياة المتقلبة ، والبعد
عن كل مايكدر صفو العيش ، طالما أن الزمن لا يحتمل المديح ولا الهجاء
ولا السماح .

وعبر الشاعر عن بذل الشحاح غير المألوف ، بل المستبعد في أسلوب
استعارى ، بقوله :

حدثت أكف ليس يند

بط ماءها الا المساحى

كما تحدث عن تبدل احساسهم وعدم حفاظهم على المثل والقيم وبذلهم
أعراضهم ، فقال :

وجلود قوم ليس تأ

لم غير أطراف الرماح

ماشتت من مال حمى

يأوى الى عرض مباح (٥٨)

وقد أخذ على الشاعر فى صياغته للبيت السادس (عكسه ما يصير بالعكس هجاء ، بعد أن كان ثناء) (٥٩) ، غير أن المقام هنا مقام ذم ، ولاضير فى ذلك فيما أرى . لقد وصمهم بالعار لحمايتهم المال . فاهتمام اللئام بالمال ، يجنى عليهم أكثر مما يلاقونه من العوز ، يقول المتنبي :

يجنى الغنى للئام لو عقلوا

ماليس يجنى عليهم العدم

هم لأموالهم وليس لهم

والعار يبقى والجرح يلتئم (٦٠)

علق أبو العلاء المعرى على هذين البيتين ، فقال : "يجلب الغنى على اللئيم ، مالا يجلب عليه الفقر ، لأن اللئيم اذا صار غنيا يبخل فيذم ، واذا كان فقيرا لم يذمه أحد . وأن اللئام خدم أموالهم ، وعبيدها ، حتى أوقعوا أنفسهم فى الهلاك بسببها ، وليست الأموال لهم ، لأنهم لا ينتفعون بها ، ولا يكسبون بها حمدا ولا أجرا ، ثم قال : (والعار يبقى والجرح يلتئم) . يعنى أن غناءهم عار عليهم ، يبقى بعدهم . والجرح يلتئم : أى أن الجرح أهون من العار ، لأن الجرح يندمل ويذهب أثره ، والعار يبقى على وجه الدهر" (٦١) .

(٥٨) هذا البيت عكس لبيت أبى نواس .:

فهو بالمال جواد وهو بالعرض شحيح

انظر ديوانه ص ٣٧٩ .

(٥٩) انظر المنصف لابن وكيع ص ٣١ .

(٦٠) ديوانه ٦٠/٤ .

(٦١) معجز أحمد ٣٢٨/١ .

عقد الشاعر مقابلة بين الغنى والفقر ، ليعبر الفارق بينهما ، وما يجره عليهم الغنى لعدم تمتعهم بعقول ترشدهم الى سبل الخير ، فانتفاء الادراك والتميز عنهم ، جعلهم خدما لأموالهم ، التي يفوق ضررها وايلامها ، ضرر وألم الجرح ، لأن الجرح يندمل في يوم من الأيام ، على عكس ما يحدثه المال من ضرر ، يبقى وصمة عار مدى الدهر ، يقول : (والعار يبقى والجرح يلتئم) .

لم يخل اللؤماء من التدليس والنفاق ، فقد تحدث عنه مهيار الديلمي فقال :

وملثمين (٦٢) على النفاق بأوجه

صم يصيح اللؤم من قسماتها

صبغوا الوفاء بياضه بسواده

والمكرمات هبوبها بسباتها

متراهنين (٦٣) على الدنية أحرزوا

غاياتها وتناهبوا حلباتها

ورثت نفوسهم خبائث أصلها

لؤما وزادت دقة من ذاتها (٦٤)

يظهر استهجان الشاعر بهؤلاء اللؤماء من خلال قوله (وملثمين) فاللثام هو ما تخفى المرأة خلفه فإها ، فوصفهم به فيه انتقاص من مكانتهم ، ثم أنهم مهما حاولوا اخفاء نفاقهم خلف الأقنعة والستر الزائفة ، فلن يفلحوا ، لأنه يظهر من قسمات وجوههم التي تدل على ما يعتمل في جوارحها.

(٦٢) اللثام : رد المرأة قناعها على أنفها ، ورد الرجل عمامته على أنفسه . اللسان (لثم)

(٦٣) متراهنين : الرهان والمراهنة : المخاطرة . القاموس (رهن) .

(٦٤) ديوانه ١٦٢/١-١٦٣ .

ويظهر تأصل اللؤم فيهم من خلال قوله : (وملثمين على النفاق)
وعن شدة لؤمهم بقوله : (بأوجه صم يصيح اللؤم ...).
أما تخليهم عن الوفاء والكرم واغراقهم في اللؤم والبخل ، فقد عبر
عنه في مقابلة جميلة ، في قوله :

صبغوا الوفاء بياضه بسواده

والمكرمات هبوبها بسباتها

فالبياض يعنى الظهور والبروز ، فهو رمز لكل عمل محمود ، أما
السواد فيعنى الظلمة والمقت ، وفي المقابلة بين الهبوب والسبات ، قصد
الشاعر بالهبوب القيام من النوم ، وبالسبات النوم .
اضافة الى مخاطرتهم باقتراف الأعمال المشينة ، وفوزهم بالوصول الى
أعلى مراتبها ، يظهر ذلك من قوله : (متراهنين على الدنية أحرزوا غاياتها) .
أما عدم وفاء اللئام وكذبهم وتنكرهم ، فقد تحدث عنه البخارزى ،
فقال :

ألا رب مولى غرنى من عهوده

يمين عليها صافحتنى يمينه

أكابد منه ضد ماأستحقه

فأصدق فى ودى له ويمين هو

عجبت لأخلاق اللئام كأنهم

عن الكرم المعجون فى شيمى نهوا (٦٥)

بدأ الشاعر أبياته بالتنبيه الى قلة نظير هذا المولى اللئيم الذى يندر من
يماثله ، فى اللؤم والخذاع ، فقد لقى منه الشاعر عنتا وأى عنت فقد عبر
عنه بقوله : (أكابد منه ضد ماأستحقه) .

فالمكابدة تغلب عليها صفة المشقة .

فالشاعر كان يتأمل مجازاته بما يتفق ومايسديه من خدمة ، وصدق في المودة والاخلاص ، في مقابل مراوغة وكذب اللئيم .
فتلك الأخلاق جعلت الشاعر يبدي عجبه من اتصاف اللؤماء بها ، نظرا لما تنطوى عليه من دناءة ، والبعد عن الكرم والسمو ، وهي الخصال التي جبل عليها الشاعر ، وقد عبر عن تأصلها فيه بقوله : (.. عن الكرم المعجون في شيمي نهوا) .

وباللقاء نظرة سريعة على هذه الأبيات ، نلاحظ أن الشاعر قد وفق في صياغته لهذه الأبيات ، المتمثل في الجناس في قوله : (يمين ، يمينه ، يمين هو نهوا) فالأولى تفيد القسم ، والأخرى تفيد اليد اليمنى ، والثالثة تفيد الكذب ، والرابعة تفيد النهى . وكذا المقابلة في البيت الثاني ، التي لعبت دورا كبيرا في ابراز المعنى وتجليته ، وأخيرا نجد التشبيه والمجاز في البيت الأخير .

أما دعبل الخزاعي فيطلب ممن وقع في مؤاخاة الذين لا يخلصون في ودهم ، أن يسرع في الابتعاد عنهم ، يقول :

وإذا آخيت من تقذى به

فاطلب الراحة منه والدعه

مدق يلقي أخاه بالرضى

وإذا ماغاب عنه سبعة (٦٦)

جعل الشاعر من بعض المخالين قذى تتأذى به العين حين تراه ، يقول (إذا آخيت من تقذى به) . وهذا ماجعل الشاعر يأمر بالابتعاد عن ذلك

الخليط المفسد ، حيث أنه يتظاهر بموافقة خليطه في ماذهب اليه ، غير أنه سرعان مايتبدل موقفه - في حال غيبة صديقه - فيكون أول من يمزقه أشلاء وقد عبر عن ذلك في مقابلة تم عن لؤم ذلك الخليط .
ويعد أبو بكر محمد الخالدي ، تلون الاخوة لؤما ، لصدوره منهم بعد ود واخلاص ، فيقول :

وأخ جفا ظلما ومل وطالما
فقنا الأنام مودة ونداما
فسلوت عنه وقلت ليس بمنكر
للدهر أن جعل الكرام لئاما
فالخمر وهى الراح ربتما غدت
خلا وكانت قبل ذاك مداما (٦٧)

لم يبعد الشاعر في شكواه من الاخوان عما ذهب اليه شعراء عصره ، لكنه عد جفاء الاخوة على كثرتهم ظلما وتنكرا لما كان يصل بينهما من مودة واخاء يضرب به المثل .
ويلاحظ أن نعمة الشاعر هنا تختلف عن كثير من الشعراء ، لأنه استسلم لهذا التنكر من صديقه ، حتى أصبح شيئا عاديا في أيامه .
لذا فقد وطن نفسه على تقبل ذلك .
ونتيجة لذلك الملل ، يقول الشاعر (فسلوت عنه) تشير هذه العبارة الى أن مارآه الشاعر من أخيه ، كفل له نسيانه ، الذى لايرى فيه غضاضة .
ويقول : (وقلت ليس بمنكر للدهر أن جعل الكرام لئاما) ، ينفى الشاعر في هذه الجملة أن يكون ذلك منكرا ومستغربا على الدهر ، وهو الذى يحول الكرام الى لئام .

ولكى يوضح صدق ماذهب اليه ، ضرب مثلا محسوسا ، حيث أشار
الى أن الخمر الصافية قد تصير خلا .
لعل الشاعر وهو يعقد هذه المقارنة بين الاخوة ، وهم يتنكرون
للصداقة ، وبين الخمر الصافية المعتقة وفسادها اذا طال بها الأمد ، يريد
بهذه المقارنة أن يوضح مايؤمن به في قرارة نفسه .

النفاق (٦٨):

النفاق هو اظهار خلاف الباطن ، فالمنافق يتظاهر بالتودد والمحبة ، بل الايثار أحيانا ، وفي نفس الوقت يخفى السم الزعاف .
ويجمل بنا أن نشير الى أن هذه الظاهرة لم تكن وليدة العصر العباسي بل وجدت منذ القدم . وقد تنبه العرب لهذه الظاهرة فأنكروها ، لذا فهم يكرهون النفاق ويحذرون منه (٦٩) ، حتى جاء القرآن الكريم ، ففضح المنافقين وكشف أساليبهم وعرى تصرفاتهم ، يقول عز من قائل : { إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون } (٧٠).

(٦٨) نفق : نفق الفرس والدابة وسائر البهائم ينفق نفوقا : مات . ونفق البيع نفاقا : راج . والنفاق بالكسر : جمع النفقة من الدراهم . وقيل فعل المنافق . وقيل انما سمى منافقا لأنه نافق كاليربوع ، وهو دخوله نفاقاه . والنفاق : الدخول في الاسلام من وجه والخروج عنه من آخر . انظر اللسان (نفق) .

(٦٩) يقول سويد بن الصامت في المنافق :

ألارب من تدعو صديقا ولو ترى

مقالته بالغيب ساءك مايفرى

مقالته كالشهد ماكان شاهدا

وبالغيب مأثور على ثغره النحر

تبين لك العينان ماهو كاتم

من الشر بالبغضاء والنظر الشر

تسرك باديه وتحت أديمه

قيمة غس تبترى عقب الظهر

فرشنى بخير طالما قد بريتنى

وخير الموالى من يريش ولايبرى

انظر بهجة المجالس ٦٨٤/١ .

(٧٠) سورة المنافقون : آية ١

ولم تغفل السنة المطهرة هذه الظاهرة ، فقد تحدثت عنها في عدة مواضع ، يقول أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب... " (٧١) الحديث . أخرجه الترمذى .

كان الناس يكثرون الشكوى من المنافقين الذين يظهرون التودد ومحاولة التقرب وهم - في نفس الوقت - يضمرون الحقد . وكان من حق الصداقة المنافحة عن الصديق في غيبته كحضوره ، يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه : " لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ صديقه في غيبته وبعد وفاته " (٧٢) .

وإذا كان الشعر العربى قد تصدى لهذه الظاهرة على مر العصور ، فإن تصدى الشعر العربى في العصر العباسى ، لهذه الظاهرة جعل منها غرضا من الأغراض الشعرية .

لذا يجمل بنا أن نقف على بعض نصوص الشعر العباسى ، التى تحدثت عن هذه الظاهرة وتصديها لها ، لما تنطوى عليه هذه الظاهرة ، وما يترتب عليها من أمور ، تهدم ولا تبني ، وتفرق ولا تجمع ، حيث أن الشعر كان مرآة معبرة عن المجتمع في العصر العباسى في الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ، حيث تتجلى معرفة الشعراء الجيدة بمجتمعهم ، بحكم علاقاتهم الاجتماعية مع فئات المجتمع المختلفة ، ومعرفتهم بسلوك الناس ، الذين استشرى فيهم النفاق .

المنافق دائما جميل القول قبيح الفعل ، لذا فهو يتظاهر بالنبل ويخفى خلاف ذلك ، يقول على بن الجهم في تلك الصفة :

(٧١) جامع الأصول في أحاديث الرسول ٥٤٤/٤ .

(٧٢) بهجة المجالس ٦٨٤/١ .

ماشئت من رجل نبيل
يأوى الى عرض دخيل
يأتى الجميل بقوله
وفعاله غير الجميل (٧٣)

إذا تخلى من يدعى النبل عن نبله ، فماذا يرجى منه؟ بعد أن فقد
مصداقيته بسبب التباين الواضح بين ما يظهر منه خلال حديثه ، وبين
ما يعمله فعلا .

ويظهر من صياغة البيتين خلوهما ، مما يدرجهما في مصاف الشعر
الجيد ، رغم الزينة اللفظية التي وشاهما بها .

ويتحدث البحترى عن تصنع المنافق للمودة والوفاء ، فيقول :

كم من أخ لك لست تنكره

مادمت من دنياك فى يسر

متصنع لك فى مودته

يلقاك بالترحيب والبشر

يطرى الوفاء وذا الوفاء ويد

حتى (٧٤) الغدر مجتهدا وذا الغدر

فاذا عدا والدهر ذو غير

دهر عليك عدا مع الدهر (٧٥)

(٧٣) ديوانه ص ٢٥٦ .

(٧٤) لحا الشجرة يلحوها لحوا : قشرها .. وفى الحديث : "فاذا فعلتم ذلك ، سلط الله عليكم شرار خلقه ، فالتحوكم ، كما يلتحي القضيب ، هو من لحوت الشجرة ، إذا أخذت لحاءها وهو قشرها . ولحا الرجل يلحاه لحيا : لامه وشمه وعنقه . اللسان (لحا) .

(٧٥) ديوانه ١١٠٢/٢ ، وانظر نفس المصدر ٤٦٤،٣٨٦/١ .

عبر الشاعر عن كثرة اخوان المخاطب ، بكم الخيرية ، في مستهل أبياته (كم من أخ) وفي نفس الوقت ينفى ظهور مايبعث الشك منهم ، طالما أن المخاطب يرفل في أثواب السعادة . غير أنه عمد الى المقابلة لكي يوضح عدم وفاء أولئك الاخوان على كثرتهم ، ولما فيها من كشف لتباين سلوك من يدعون الاخوة والصداقة في الظاهر وفي الباطن .

فالثناء والمدح كل المدح للوفاء وأصحابه ، يقابل الجد والسعى وراء الغدر والغدارين ، يقول :

يطرى الوفاء ، وذا الوفاء ويد

حى الغدر مجتهدا وذا الغدر

ونستشف من قول الشاعر (ويلحى الغدر) جد الأخ المنافق في الغدر وتأصله في نفسه حيث يكلفها المشاق من أجل الايذاء والنيل من أخيه ، ليصبح أثر ذلك الغدر مضارعا لأثر قشر اللحاء عن جذع الشجرة .

أما تربصه وترقبه لعوادي الزمن وهى تنقض على المخاطب ، فقد عبر عنها الشاعر في البيت الأخير في أسلوب تلاعب فيه بالألفاظ ، حيث يفهم من العدو شدة الحرص على النيل من صديقه ، كما تدل كلمة (عدا) على أن من يدعى أنه صديق حميم ، هو فى الواقع عدو مبين .

لم يقتصر النفاق على الأصدقاء الأبعدين فى النسب ، بل نجده فى الأقربين أيضا ، فهذا الشريف الرضى ، يعزو نفاق الأقارب الى ماورثوه من أجدادهم من احن ، فيقول :

وأقارب جعلوا العقوق سجية

يتوارثون سفاهة عن قعد

لبسوا لنا زرد النفاق فأصبحوا

فى ذمة الخلق اللئيم الأوغد

وكانما تلك الضلوع قساوة

تثنى على قطع الصفاء الجلمد (٧٦)

يشكو الشاعر من بعض الأقارب الذين انسلخوا في مسالك المنافقين .
معبرا عن ذلك بالعقوق ، حيث قرن صنيعهم ذلك بعقوق الوالدين ، ومع ذلك يلتمس لهم العذر ، اذ يقول : (يتوارثون سفاهة) فهذه السفاهة جعلتهم يناصرون الشاعر العدا ، ويقفون في وجهه . لذلك عبر عن عدائهم بأسلوب استعاري يوضح ما يضمرونه ويجليه ، يقول : (لبسوا لنا زرد النفاق) . ويؤكد ذلك بجنوحه الى التشبيه لما تنطوى عليه ألفاظه من شدة وقسوة تنبئ عن غلظتهم وحقدهم الدفين .

ومن صفات المنافقين وتزييفهم ، اظهارهم عدم الرضا عما يتصل بالسلطان ، ثم يغيرون موقفهم بمجرد حصولهم على بعض الدراهم ، يقول ابن المعتدل :

عذيري من أخ قد كان يبدى

على من لابس السلطان عتبه

وكان يذمهم فى كل يوم

يشى بالجهل والهذيان خطبه

فلما أن أتته دريهمات

من السلطان باع بهن ربه (٧٧)

يتحدث ابن المعتدل عما كان يجاهر بعتابه لمن يتصل بالسلطان ، بل ويستمر في ذمه ، الذى ينم عن جهله وعدم درايته .

(٧٦) ديوانه ٣٥٢/١ ، وانظر نفس المصدر ١٣٠/١ .

(٧٧) ديوانه ص ٦٤ . وقد سبق الى هذا المعنى من قبل أبى الأسود الدؤلى في قوله :

لاتنه عن خلق وتأقى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

انظر ديوانه ص ١٣٠ .

كان الزهاد يذمون من يتصل بالسلطان . وقد تظاهر المهجو بأنه زاهد فأخذ في ذم من يتصل بالسلطان ، ولكنه حينما نال بعضا من السلطان كف عن ذلك وتنكر لزهده ، ونسى كل شيء حتى خالقه ، يقول : (باع بهن ربه) ، ولعله يريد أن يشير بهذه العبارة الى أثر النفاق .

ومما يروج للنفاق لجوء الساسة لفتح باب النفاق ، لخدمة مصالحهم ، عن طريق بذل الهبات والعطايا ، يقول عبد المحسن الصورى فى مثل ذلك :
نفر من أمية نفر الاسـ

لام من بينهم نفور اباق

أنفقوا فى النفاق ماغصبوه

فاستقام النفاق بالانفاق (٧٨)

يظهر مقت الشاعر لظاهرة النفاق من خلال هذين البيتين ، مشيرا الى ماكان يجرى فى بيوتات الخلافة من بذل وهبات ، تشتري بها ذمم الناس . وتتضح سخرية الشاعر من المنافقين فى البيت الثانى ، حيث يفيد أن ماينفق فى أوجه النفاق من أموال ، هى أموال مغتصبة .

واضح أن الاسلام الحق لا يستقيم ، ولايتوافق فى طائفة الا اذا تخلصت من النفاق وأن الاسلام قوى لايمكن أن يتزعزع ، يقول : (نفر الاسلام من بينهم نفور اباق) نستشف من هذه العبارة ، أن نفور الاسلام لاينطوى على ضعف أو خوف ، ولكنه نفور ناتج عن عدم التوافق بين ظاهرة النفاق ومايدعو اليه الاسلام .

لقد أدى تلاعب الشاعر بالألفاظ وتوليده للمعانى دورا بارزا فى الصيغة .

ومن أهم مايلفت النظر فى هذين البيتين هو تكرار الجناس بين عدد من كلمات البيتين سعيا وراء التحسين .

ويبدو أن ظاهرة النفاق قد تفتت ، وطفى ضررها على السطح ، مما جعل كثيرا من الشعراء يصمون الناس ويتهمون كثيرا منهم بالنفاق ، يقول محمد العطوى في ذلك :

وانى امتحنت الناس طرا فعفتهم

مودتهم ممزوجة بنفاق

فما وثقت نفسى بهم وتركتمهم

وما فيهم مجنى وطيب مذاق (٧٩)

يؤكد الشاعر أنه قد اختبر الناس جميعا ، وكانت محصلة ذلك الامتحان أن تكشف له حقيقتهم ، فهم جميعا مغرورسون في النفاق ، وهذا ما جعله ينفى ثقته بهم ، كما ينفى في نفس الوقت ما يشفع لهم ، فكلهم لافائدة فيهم ولا مذاق لهم .

وتحدث المتنبي عن المنافقين حديث العالم الخبير ، بما يدور في خلدتهم ، فقال :

اذا ما الناس جربهم لييب

فانى قد أكلتهم وذاقا

فلم أرودهم الا خداعا

ولم أر دينهم الا نفاقا (٨٠)

واضح أن المحور الذى تدور حوله هذه الأبيات هو الناس ، الذين تخلوا عن مبادئهم - وقد اتسم أسلوبه في الحديث عنهم ، بأسلوب الشرط والاستثناء . فالشاعر خبير حصيف بالناس وسلوكهم ، فقد أكد ذلك في جواب الشرط (فانى قد أكلتهم وذاقا) . يتضح من خلال هذه العبارة اعتماد

(٧٩) شعراء بصريون ص ٤٢ .

(٨٠) ديوانه ٣٠٣/٢ ، معجز أحمد ٣/١٢٥-١٢٦ .

وانظر كذلك نفس المصدر الديوان ١٤٤/٤ ، معجز أحمد ٤/١٣٨ .

ديوانه ٣٠٣/٢ ، ١٤٤/٤ ، ومعجز أحمد ٣/١٢٥-١٢٦ ، ٤/١٣٨ .

الشاعر على التمثيل الحسى ليكون أدعى للفهم وألصق بالذهن ، فتجربة الشاعر معهم أعمق من تجربة اللبيب ، فاذا كان اللبيب قد ذاق ، فالشاعر قد أكل . فالأكل ليس كالذوق .

واستمرارا لهذه النظرة يشكو ابراهيم الصابى من فساد الناس ، وفقد الوفاء وعدم الاطمئنان للناس جميعا ، فيقول :

أيارب كل الناس أبناء علة

أما تعثر الدنيا لنا بصديق

وجوه بها من مضمر الغل شاهد

ذوات أديم فى النفاق صفيق (٨١)

إذا اعترضوا عند اللقاء فانهم

قذى لعيون أو شجا لحلوق

وان أظهروا برد الودود وظله

أسروا من الشحناء حر حريق

أخو وحدة قد آنستنى كأننى

بها نازل فى معشر ورفيق

فذلك خير للفتى من ثوائه

بمسبعة من صاحب وصديق (٨٢)

بدأ الشاعر أبياته بالتنبيه على خيبة أمله فى الناس الذين لا يصدقون ولا يثبتون على ودهم ، بل تعمر قلوبهم البغضاء والشحناء تماما كأبناء العلات . وقد عبر عن وقاحتهم بالمقابلة بين مضمر الغل وشاهد وبين أظهروا وأسروا ، ليبين مدى التنافر بين ما يخفونه وما يظهرونه .

(٨١) وجه صفيق : بين الصفاقة : وقح . القاموس (الصفق) .

(٨٢) معجم الأدباء ٥٧/٢-٥٨ .

كما لجأ الشاعر الى بعض العبارات الحسية ، نظرا لأثرها الكبير في تشنيع الدور الذى يضطلع به المنافقون مثل : (أبناء علة ، قذى لعيون ، شجا لخلوق ، أسروا الشحناء ، حر حريق ، من ثوائه بمسبعة) .
لقد وفق الشاعر في اختياره لهذه العبارات التى تجسم فظاعة الدور الذى يلعبه المنافق فى أسلوب حسى .
وأمام تفشى النفاق وانتشاره بين الناس ، ولصعوبة كشفه ، فللمعرى الحق فى أن يسيء الظن بالناس جميعا ، وأن يجعل النفاق طبعا من طباعهم يقول :

فؤادك خفاق وبرقك خافق

وأعياك فى الدنيا خليل موافق

تخير فاما وحدة مثل ميتة

واما جليس فى الحياة منافق

أردت رفيقا كى ينالك رفقه

فدعه اذا لم تأت منه المرافق (٨٣)

اهتم الشاعر فى هذه الأبيات بالزينة اللفظية ممثلة فى التصريح والتصدير والجناس التى كان لها أثرها الملموس على الايقاع الشعرى .
بالإضافة الى تكراره (اما) فى البيت الثانى لقصد التخيير ، وقد كررها فى أسلوب تقابلى ، حيث قابل بين وحدة وجليس منافق ، وهما أمران أحلاهما مر ، لاسيما أنه قد شبه الوحدة بالموت ، لأن الانقطاع عن الناس يعنى انتهاء الدور فى الحياة الدنيا ، وهذا هو الموت بعينه .

ويرى أبو هلال العسكرى أن الأصدقاء على كثرتهم ليسوا ذوى غناء بل هم غناء كغناء السيل ورغم ذلك لم يجد مناصا من مصادقتهم ، يقول :

(٨٣) اللزوميات ١١٠٠/٢ ، ١١٠٠،٥٥،٣٦/١ ، ٥٣٤،٤٧٤،٣٧١،١١٠،٥٥،٣٦/٢ ، ٦٦٧/٢ ، ١٠٦٩،٨٧٢،٦٨٩

١٦٨٢،١٦٧٢،١٦٠٦،١٢١٧،١١٥٣/٣ ، ١١٤٧،١١٤٤،١١١٠،١١٠٥،١٠٧١

ألا ان خلان الفتى ان عددتهم
كثير ولكن أين خل موافق
فغمض على قبح المراعاة منهم
فما منهم الا مرء منافق
ألم ترنى صادقت كل مداهن
فان لم أصادقه فمن ذا أصادق (٨٤)

بدأ الشاعر أبياته بالتنبيه ، وهذه البداية تذكرنا بأبيات الصابي السابقة
التي بدأها بالتنبيه ، للأمر الجلل الذي سوف يتحدث عنه ، وهو داء النفاق
الذي انتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم ، حتى لم يعد المرء يجد من
يثق به على كثرة الخلان .

وأيضاً عمد الى أسلوب الالتفات ، ليعضد به مابداً به من تنبيه ،
حيث نقل الحديث من الغائب الى المخاطب ، ثم يطلب من المخاطب
الرضوخ للأمر الواقع ، الذي عبر عنه بأسلوب الاستثناء ليؤكد اتصاف
الجميع بالنفاق . وازاء ذلك يقرر أنه قد صادقهم ، وكأني به يريد أن يقول
مكره أخاك لا بطل .

لم تقتصر الشكوى من النفاق على عامة الناس فحسب ، بل نجد أيضاً
علية القوم يشكون من هذا الداء ، فهذا الأمير ابن المعتز يقول :

بلوت اخوان هذا الزمان

فأقللت بالهجر منهم نصيبى

وكلهم ان تصفحتهم

صديق العيان عدو المغيب (٨٥)

(٨٤) ديوانه ص ١٦٦ .

(٨٥) ديوانه ٤٢٧/٢ .

ابن المعتز أمير من أمراء الدولة العباسية ، وهذا يعنى أنه يرفل فى
بجوحه من العيش ، لكن ذلك لم يجعله فى منأى عن مشاكل مجتمعه ، بل
نجده يتفاعل معها فيسجلها ، فقد أدرك نفاق الناس له لأنه أمير .

ونظرا لخصافة الشاعر ، لم يلجأ الى التقليل من الأصدقاء الا بعد أن
أجرى اختبارا دقيقا حكم بموجبه على الناس جميعا بالنفاق ، وهذا أقصى
درجات التشاؤم واليأس ، التى خيمت على الشاعر ، حيث أكد نفشى النفاق
فى الناس جميعا حينما قال : (وكلهم ان تصفحتهم ...) ويوضح ذلك عن
طريق المقابلة فى قوله : (.. صديق العيان عدو المغيب) .

ويرى مهيار الديلمى أن السعادة - فى مجتمع جبل جله على النفاق -
هى للجهلاء الذين لا يدركون ما يدور حولهم من خبث ونفاق ، وهو
مايشقى به العقلاء ، يقول :

يسىخ الفتى أيامه وهو جاهل

ويغتص بالساعات وهو لبيب

وبعض مودات الرجال عقارب

لها تحت ظلماء العقوق دبيب

تواصوا على حب النفاق ودينه

بأن يتنافى مشهد ومغيب

فما أكثر الاخوان بل ماأقلهم

على نائبات الدهر حين تنوب (٨٦)

(٨٦) ديوانه ٤٢/١ ، وانظر نفس المصدر ١/١٦٣، ٣٦٦، ٤١٣-٤١٤ ، ٣/٢٢١، ٣١٢ ، ٤/٣٢٢

لقد سبق الشاعر الى المعنى الذى طرقة فى البيت الأخير من قبل الشافعى رضى
الله عنه فى قوله :

ولكنهم فى النائبات قليل

وماأكثر الاخوان حين تعدهم

انظر شعره ص ٣٠٦ .

يدور حديث الشاعر حول المناقنين ، وقد اتكأ في حديثه على أسلوب المقابلة ، لما له من أثر في ابراز سلوكهم وفضح ماتنطوى عليه سرائرهم ، حيث نجده قد قابل بين يسيغ ويغتص وبين جاهل ولييب وبين مشهد ومغيب وبين أكثر وأقلهم .

ويضرب الشريف المرتضى مثلا حسيا لعدم الوفاء ، لكى يظهر بأسه من المخاطبين ، فيقول :

لو وفى صاحب وفى لى سواد

زار فودى منذ كنت صبيا

شط عنى لما ارعويت وقد كا

ن مقيما أيام كنت غويا

قد سلونا وفاءكم ويئسنا

أن نرى منكم عطاء هنيا

وسئمنا علاجكم وعلمنا

أن بين الضلوع داء دويا

يعد البر ماطلا فاذا أو

عد يوما شرا "أناك" وحييا (٨٧)

بنى الشاعر أبياته على المقابلة التى كان لها دور بارز فى اصفاء مسحة من الجمال على الصياغة والمعنى على السواء .

فقد تحدث الشاعر والألم يعتصر فؤاده على الأيام الخوالى التى نعم فيها بالشباب ونضارته معتمدا أسلوب المقابلة ، حيث قابل بين (شط وارعويت وبين مقيما وغويا) . ترمز هذه المقابلة الى تظاهر الصاحب بالوفاء وقت الرخاء وعدم الحاجة اليه ، لكنه سرعان ما يظهر على حقيقته عندما تدعو الحاجة اليه ، وهذا مادعا الشاعر الى نسيان وفائه الذى يدعيه ، بل اليأس

من صدور ما يبعث الأمل فيه ، حيث لم تعد تخفى الحقيقة ، فقد انكشف ما يضمه من مرض وحقد دفين ، تحدث عنه الشاعر في المقابلة التالية حيث قابل بين (الوعد بالبر والمطل في الوفاء به وبين الإيعاد بالشر والوفاء به) ، تدل هذه المقابلة على جرح في وفاء الصديق في حالتى الخير والشر .
ويجمل بنا أن نشير الى نظرة الشاعر التشاؤمية الى الصاحب ، التى عبر عنها بالمثل الحسى فى البيت الأول الذى ضربه لعدم وفاء الصاحب حين قال: (لو وفى صاحب وفى لى سواد ...) حيث قرن وفاء الصاحب ببقاء شعره على لونه الأسود ، ويبدو أنه يريد أن يقول : أن الزوال والتغير طبيعة فى كل شىء بما فى ذلك أجزاء جسم الانسان ، فكيف بالصديق .
ويدعو الخباز البلدى على الصاحب المنافق بابعاده عن رحمة الله ، فقال :

حوشيت من صحبة خوان

يأتى من الغدر بألوان

ولعنة الله على كل من

له لسانان ووجهان (٨٨)

يتحدث الشاعر فى هذين البيتين عن الخائن المنافق ، فتارة يدعو للمخاطب أن لا يبتلى بصحبة الخائن ، وأخرى يدعو على المنافق بالطرد والخروج من رحمة الله ، فى مبالغة يشتم منها فظاعة ما يقوم به ذلك الخائن فى اتقان ، رغم تعدد وتباين الطرق التى يسلكها ، يقول : (يأتى من الغدر بألوان) . وبعد أن اطمأن على المخاطب ، عاد وصدع بما يعتمل تحت جوانحه من كره وبغض للمنافق ، جعله يتمنى له البعد والخروج عن عفو الله .

ويمقت ابن أبي حصينة من يتظاهر بالود ويجفى تحت جوانحه الحقد
والضعينة ، فيقول :

وأمقت من لاتطلب الحمد نفسه

ولايضمر الود الصحيح ولاودا

صديقك مادام الرخاء وناهش

بنابيه فى الخطب الملم اذا اشتدا

لحى الله من يبدى لخل مودة

ويضممر فى حيزومه^(٨٩) ضد ماأبدا

دع الرجل المغتاب يشفى بغيبتي

فما غيبة المغتاب الا ثنا يهدا^(٩٠)

يظهر الشاعر شدة سخطه وغضبه على من يتصف بالنفاق فى قوله :
(وامقت من لاتطلب الحمد نفسه ...) . فالمقت يعنى شدة الكراهية ، ولكى
يبرز أخلاق المنافق فى صورة ممجوجة عمد الى المقابلة ، بين الأضداد .
فبالضد تتمايز الأشياء ، وهذا التمايز سيؤدى حتما الى مقت تلك الأخلاق
المتباينة - لدى المنافق - التى تفرق ولاتجمع وتهدم ولاتبنى . كإظهار الصداقة
والمحبة فى وقت الرخاء والانتقضاض بشراسة اذا حزب أمر وأيضا اظهار
الايثار والمودة واخفاء الحقد الدفين .

ويجتم حديثه عن المغتاب ، حيث عده مريضا لايمكن برؤه الا أن يغتاب فهو
الدواءالناجع لمرضه . لذا أمر المخاطب بترك المغتاب ، لأن فى غيبته ثنا
وحمدا للشاعر ، يقول : (فما غيبة المغتاب الا ثنا يهدا) .

(٨٩) الحيزوم : الصدر . اللسان (حزم) .

(٩٠) ديوانه ٢٦٦/١-٢٦٧ .

الغيبة والنميمة والوشاية (٩١):

لقد تفتشت ظاهرة الغيبة والنميمة والوشاية في المجتمع العباسي ، بشكل واضح ، ولعل ذلك نتاج للنقلة الحضارية المبهرة ، مما خلق نوعا من التنافس غير الشريف ، الذى وصل الى حد تأباه النفس الكريمة وتمتجه الأخلاق الفاضلة ، حتى أن الانسان اذا مر يوم وهو سالم ، كان ذلك فضلا من الله (٩٢).

اتخذ الناس الوشاية وسيلة الى الوصول الى مآربهم نكاية بمن لا يريدون خوفا من منافستهم لهم .

لقد شاع هذا اللون في المجتمع العباسي منذ تولى المأمون الخلافة حيث أخذ ذكر الكتاب والاشادة بهم ينتشر ، كما يقول الجاحظ (٩٣).

(٩١) اغتاب الرجل صاحبه اغتيايا : اذا وقع فيه ، وهو أن يتكلم خلف انسان مستور بسوء أو بما يغمه لو سمعه وان كان فيه ، فان كان صادقا فهو غيبة ، وان كان كذبا ، فهو البهت والبهتان ، كذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون ذلك الا من ورائه ، والاسم الغيبة . اللسان (غيب) .

النم : التوريش والاغراء ورفع الحديث على وجه الاشاعة والافساد ، وقيل : تزوين الكلام بالكذب ، والفعل .. التهذيب : النميمة : هى نقل الحديث من قوم الى قوم على جهة الافساد والشر . اللسان (نم) .

الوشاية : وشى به وشيا ووشاية : نم به . ووشى به الى السلطان وشاية أى سعى وفي حديث عفيف : خرجنا نشى بسعد الى عمر ، هو من وشى اذا نم عليه وسعى به ، وهو واش وجمعه وشاة . والواشى والوشاء : النمام . اللسان (وشى) .

(٩٢) فى هذا المعنى يقول أبو الدرداء : "ليس من يوم أصبح فيه لايرمينى الناس بداهية الا كان نعمة من الله على" . انظر عيون الأخبار ١٢/٢ .

وقال حسان بن ثابت فى مثل هذا المعنى :

وان امرأ يمسى ويصبح سالما من الناس الا ماجنى لسعيد

انظر شرح ديوانه ص ١٩٨ .

(٩٣) انظر رسائله ٢٠٣/٢ .

وقد تكون الوشاية لأمر فيه جاه أو ثروة أو الخوف من المنافسة على منصب ، كسعاية ابن الزيات بسليمان بن وهب وأحمد بن الخصيب لدى الواثق الخليفة العباسي (٩٤).

ولقد تصدى الشعر في العصر العباسي لهذه الظاهرة السيئة ، وما يترتب عليها من آثار ، سلبية سيئة ، تظل تنخر في المجتمع حتى تقوض دعائمه وأساسه التي بنى عليها . وعلى الجملة فإن أكثر الناس يتعرضون للغيبة والسعاية مهما كانت منزلتهم وعدالتهم وتورعهم .

قد يكون الحسد أبرز دوافع كل من الغيبة والنميمة ، وهو ماجعل دعبلا يشكو من الحسود الذي فتح عليه نار الغيبة ، فيقول :

وذى حسد يغتابنى حين لا يرى

مكاني ويثنى صالحا حين أسمع

تورعت أن أعتابه من ورائه

وما هو أن يغتابنى متورع

ويضحك في وجهي اذا مالقيته

ويهمزنى بالغيب سرا ويلسع

ملأت عليه الأرض حتى كأنما

يضيق عليه رحبها حين أطلع (٩٥)

يعزو الشاعر الغيبة الى الحسد الذي يعتمل في نفس المغتاب تجاهه . ولما يشعر به الشاعر من ألم جراء هذه الغيبة ، فقد خلع صفة النفاق على المغتاب حين صوره بوجهين ، أحدهما الهمز وقت الغيبة ، والآخر الشاء في الحضرة .

(٩٤) الأغاني ٥١٩/٢٣ .

(٩٥) شعره ص ١٨١ .

وإذا كان المغتاب قد انساق خلف سلوك سيء ، تنبىء عما يجتليج تحت جوانحه ، فإن الوازع الداخلى لدى الشاعر جعله يعزف عن اغتياب المغتاب ، رغم اغتيابه له ، وفي هذا اشارة الى ورع الشاعر وتمثله لأخلاقيات وسلوك الاسلام .

ومما يشد انتباه القارىء ويجعله يتفاعل مع المعنى ، ذلك التقابل بين الجانب المضىء وبين الجانب المظلم . فالجانب المضىء ينبىء عن طيب وأصالة معدن سالكيه ، وعلى النقيض من ذلك يظهر الجانب المظلم مساوىء سلوكيات المغتاب . فالتورع الذى يتصف به المتمثلون للقيم والأخلاق الفاضلة ، يقابله عدم التحرج فى ارتكاب المعاصى ، وهذا يعنى الخروج عن الأعراف والقيم الحميدة .

وكذا الضحك الذى يعنى انفراج الأسارير عند اللقاء يقابله الهمز عند الغيبة ، أى الثلب والانتقاص ، بل أشده ، فقد جعل شدة وقعه وسرعته كسرعة سريان سم الأفعى .

أما الكيد الدفين الذى يضمه المغتاب ، فقد بلغ به مبلغا لم يطق معه العيش ، مع من قام باغتيابه فى مكان واحد . بل بلغ به الحقد ذروته ، حتى أن الأرض قد ضاقت به على رحابتها ، ولم تعد تتسع لأحد معه .

جسد هذا المعنى ماأحدثه الشاعر من مفارقة أسلوية ، فضلا عن الحركية الفاعلة فى توظيفه للزمن الفعلى لـ (أغتابه ، يغتابنى ، يضحك ، يهمز يضيق) فى مقابل (تورعت ، لقيته ، ملأت) .

وقد يكون علو الهمة والمكانة الاجتماعية مبعث الغيبة ، ولأن الشريف المرتضى ذو همة عالية - ومن السابقين الى العلياء ، كما يقول - فقد أثار ذلك حفيظة المغتاب عليه ، فاجتهد فى غيبته ، يقول :

قل لمن كلما سبقت الى العدا
 سياء يفتابنى ويطعم نحضى
 أنت تجنى فى كل يوم على عر
 ضك عمدا فكيف يسلم عرضى
 لعن الله مدة كنت فيها
 كل همى وأنت منى كبعضى
 ليس أدعو عليك بالقتل علما
 أنك اليوم قاتل لك بغضى (٩٦)

يطلب الشاعر من المخاطب أن يبلغ الذى يجتهد فى غيبته ولا يتورع
 عن وصفه بأقذع العيوب ، أنه بصنيعه ذلك يصم عرضه هو . ثم يفصح
 عن شدة غضبه وحنقه ، بلعن الفترة التى قضاها فى صحبته يخلص له ويهتم
 لما يهمه ، وأنه يمقته أشد المقت جراء ما اقترفه تجاهه .

واضح أن مبعث هذه الغيبة هو الحسد نظرا للنجاحات التى يحققها
 الشاعر ، وقد بلغت الغيبة به مبلغا عظيما ، حيث ماثل بينها وبين نهش
 لحمه ، وما يحدثه من ألم .

ويؤكد عزمه واصراره على اىذاء نفسه ، فيقول : (أنت تجنى ...)
 فكلمة (تجنى) تعنى اقتراف الذنب وما هو مضر ومؤذى . أما كلمة (عمدا)
 فتفيد الى جانب تأكيد مذهب اليه الشاعر ، علم المغتاب بما يجنيه على نفسه .
 ولما كان الأمر كذلك أخذ الشاعر يتساءل مستنكرا (فكيف يسلم
 عرضى؟) ويظهر مدى حنق الشاعر وبغضه من خلال اطلاقه اللعن على
 الزمن ، حيث أن اللعن يعنى الابعاد والطرده ، يقول : (لعن الله مدة ...)
 فبالإضافة الى ماتفيده هذه العبارة من غضب فان فيها اشارة الى تحويل الزمن
 الى شىء محسوس .

ويمكننا أن نستشف أن السبب الذي جعل الشاعر يطلق اللعن هو أنه كان يعتبر المغتاب جزءاً منه . وقد عبر عنه بأسلوب التشبيه في قوله :
(..كل همى وأنت منى كبعضى) .

وأخيراً ينبغي أن يكون قد دعا على المغتاب بالقتل ، بل يكفى مقتته له حيث أكد بغضه ومقتته له في قوله : (أنتك اليوم قاتل لك بغضى) . ولعل الهوى هو التربة التي ينبت فيها كل من الغيبة والنميمة ، حتى ولو كان الضحية من يتصف بالعدل وصحة الحكم ، يقول أبو العلاء المعرى :

العيش ثقل وقاضى الأرض ممتحن

يضحى ونصف خصوم المصر يشكونه

زكوه دهرا فلما صار قاضيه

واستعمل الحق عادوا لايزكونه

يصوم ناس عن الزاد المباح لهم

ويغتذون بلحم لايزكونه (٩٧)

حول الشاعر العيش الى شىء ماضى محسوس ، وكأنه حمل كبير يثقل كاهل حامله ، وقد قرن ذلك باختبار القاضى المستمر ، حتى أنه ينتهى به الأمر ، ونصف الماثلين أمامه للخصومة وقد شكوه . أما تباين المواقف فقد عبر عنها بالتضاد (بين زكوه وبين لايزكونه) .

لقد تخلوا عن الثناء عليه واظهار مزاياه ، لالشىء سوى أنه أصبح قاضيا يحكم بالعدل ، وهذا لا يروق لهم ، لأنهم كلهم ظلمة أفاكون ، لا يستطيعون تحقيق النفع الشخصى من ورائه .

وأخيرا كنى عن الغيبة بقوله : (ويغتذون بلحم لا يذكونه) فعدم تذكية اللحم تعنى حرمة . ومشيرا الى تظاهرهم بالورع والتقوى وتمسكهم بالصيام عن الأكل المباح طاعة لله ، غير أنهم أفسدوه بما يمارسونه من غيبة ونميمة . وهذا يعنى أن الصيام ليس فقط الامساك عن الطعام والشراب ، بل ينبغى امساك اللسان وكبحه عن الحرام .

ومما يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب ، أن يعيب كثير من الناس الآخرين على بعض سلوكهم ، ناسين أو متناسين سلوكهم هم ، يقول ابن الرومى فى ذلك :

وكم عائب قد عابنى وهو صادق

وأدبر عنى والذى فيه أعيب

رمانى بسوء لست أعديه صاحبى

ولا هو مما يستفاد ويكسب

وباء بسوء فيه بعديه غيره

ويجلبه والسوء يعدو ويجلب

وماذاك الا ثلبه الناس طائعا

ومابرح الثلاب للناس يثلب (٩٨)

لم ينكر الشاعر مافيه من العيوب ، بل يؤكدها ، لكن مايقلقه أن الكثير ممن ينتقدونه ، فيهم من العيوب مايفوق عيوبه . مشيرا الى أن مايرمى به من سوء لايمثل سلوكه ، بل هو مما يتصف به العائب ، وأنه مهما حاول الصاقه بغيره ، فلن يفلت هو منه على الرغم مما سيلحق بالمعيب من ضرر لقاء وصمه بالسوء .

(٩٨) ديوانه ٢٥٣/١-٢٥٤ . وفى الديوان (ثلب) بالمشناه الفوقية ، ويبدو أنه تصحيف ،

ويبدو أن الشاعر قد استقى هذا المعنى من بيت أبى الأسود الدؤلى :

لاتنه عن خلق وتأقى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

لقد عبر الشاعر عن كثرة العائبين بقوله (وكم عائب) . ثم أكد صدق ماذهبوا اليه معترفا بعيوبه فقال : (قد عابني وهو صادق) . لقد بلغت الجرأة بالعائب أن يقف أمام الشاعر وجها لوجه ليعيبه ، يستشف ذلك من قوله : (وأدبر عني ...) فالادبار عادة مايكون بعد الاقبال ، ومما يفيد عظم عيب العائب وشدة فظاعته بالقياس بعيب الشاعر قوله : (والذى فيه أعيب) . أما تألم الشاعر فيتمثل في قوله : (رمانى بسوء ...) لما تفيدته كلمة الرمي من اصرار الرامى على الايذاء ، ويعضد ذلك الباء في (بسوء) التى تفيد اللصاق ، ورغم مايشعر به الشاعر من ألم ، ينفى أن يكون العائب بريئا مما وصمه به .

ثم حول السوء الى شىء محسوس ، نظرا لاستشرائه ولصوقه ، تماما كالداء الفتاك المعدى ، يتضح ذلك من قوله : (.. والسوء يعدو ويجلب) فالعدو والجلب من خصائص الحيوان ، لكن الشاعر أطلقهما على السوء مجازا.

وأخيرا جعل العائب هدفا ينبغى التصدى له ، رغم تجمله في الكذب والافتراء فكلامه عار عن الصحة ، كفقده الاستثناء المفرغ عمله . غير أنه لن يفلت من الانتقاص منه ، فقد أضحى هدفا تلوكه الألسنة وهذا المعنى هو ماألح عليه التكرار اللافت في الأبيات (عائب ، أعيب بسوء ، بسوء ، السوء ، أعديه ، يعديه ، يعدو ، ثلبه ، الثلاث ، يثلب) وهو تكرار قائم على تنوع الصيغ والاشتقاقات .

ومن المسلم به أن رضا الناس غاية لاتدرك ، لذا فمن المتعذر أن يجوز المرء رضا الناس جميعا ، يقول ابن دريد في هذا المعنى :

وماأحد من ألسن الناس سالما

ولو أنه ذاك النبی المطهر

فان كان مقداما يقولون أهوج

وان كان مفضالا يقولون مبذر

وان كان سكيئا يقولون أبكم

وان كان منطيقا يقولون مهذر

وان كان صواما وبالليل قائما

يقولون زراق^(٩٩) يرائى ويمكر

فلاتحتفل بالناس فى الذم والثنا

ولاتخش غير الله فالله أكبر^(١٠٠)

ينفى الشاعر سلامة أى شخص من ألسنة الناس الذين لايتورعون عن الغيبة والنميمة ، ولكى يشعها ويحذر منها ، قال : (ولو أنه ذاك النبى المطهر) ففى هذه العبارة تأكيد على عدم ارعوائهم واصرارهم ، وتعزية للمغتتاب .

ثم عمد الى المقابلة ليوضح مدى الفرق بين مايتصف به من وقعت عليه الغيبة وبين مايدعيه المغتتاب ، وفى نفس الوقت كان لتكراره (ان وكان) أثرهما فى تجلية مدى التباين بين أخلاق الذى وصم بالغيبة ، ومايبثه المغتتاب من ادعاءات باطلة .

وبعد أن شد انتباه القارىء واسترعى انتباهه ، أخذ ينهى عن الاهتمام بما يقوله الناس سواء كان مدحا أو قدحا، ويكرر ذلك النهى بقصر الحشية على الله جل وعلا دون سواه ، فهو الأكبر المهيمن ، فعبارة (الله أكبر) تعنى تفرد عزه وجل بصفة الكبرياء ، وأن كل ماعداه صغير ضئيل فى جنبه .

(٩٩) زرف : الزرف الزيادة على الشئ ، زرف الرجل فى حديثه ، اذا زاد فيه .

الجمهرة (زرف) .

(١٠٠) ديوانه ص ٢١ .

واضح أن الأسلوب الذى جلى الشاعر به هذا المعنى شاخص فى
المفارقة التى بناها على المتضادات اللغوية : (مقدام ، أهوج ، مفضال ، مبذر
سكيت ، أبكم ، منطيق ، مهذر ، صوام ، زراف ، الذم ، الثناء) .
ولهذا فإن المغتاب فى الواقع الاجتماعى مكروه مذموم ، يقول ابن
أبى حصينة :

وأمقت كل مغتاب نوم

حريص بالنميمة غير وانى

ألا بئس الحديث حديث زور

يبلغه فلان عن فلان (١٠١)

يعبر الشاعر عما يعتلج فى نفسه تجاه المغتاب النمام ، من بغض شديد
له ، نظرا لعزمه الأكيد واصراره المقيت ، على السعى بالنميمة ، يقول :
(حريص بالنميمة غير وانى) فهذه العبارة تعنى التمسك والاصرار ، وبذل
الجهد وعدم التكاسل ، كل ذلك نتاج لما يملأ قلب المغتاب والنمام من حقد
دفين ، ونفس تواقه الى الايقاع بين الناس ، حيث تجد متعتها .

وهذا ماجعل الشاعر يقبح ماينقله ذلك المغتاب من زور وبهتان ،
حيث بدأ بـ(ألا) لتقبيح مايقوم به ذلك المغتاب ، وذمه بأسلوب صريح
(بئس) ولكى يؤكد تقبيحه ذلك عمد الى التكرار اللفظى فى البيت الثانى .
نعلم أن مقت المغتاب والنمام أمر مألوف ، أما أن يحمده هذا مايشير
الدهشة والاستغراب ، يقول الوأواء الدمشقى :

أهلا بنمام ينم بطيبه

فى كل ابان وكل زمان

لاكان عائبه فقد أبدى لنا
عين المحال وجاء بالبهتان
يحدو المفيق الى الخمار لأن في
نصف اسمه ثمل الفتى السكران
وهجاء نمام اذا نكسته

لك طارف (١٠٢) من طارق الحدثان (١٠٣)

يرحب الشاعر بالنمام الذي ينم في كل وقت ، ولعل ترحيب الشاعر بالنمام - على غير المؤلف - راجع لأنه ينم على سجيته ، دون التفكير في ما تجره تلك النميمة ، يقول : (ينم بطييه ..) ثم يدعو على من ينتقصه ، فيقول : (لاكان عائبه) حيث يعزو دعاءه هذا الى تحققه من أن هذا المغتاب قد أوضح ما كان خافيا ، بل ما يستحيل معرفته ، يقول : (فقد أبدى لنا عين المحال) ، واذا كان هذا المغتاب قد فضح ما كان مستحيلا كشفه ، فانه قد ارتكب شيئا فظيحا ، يظهر ذلك من قوله : (وجاء بالبهتان) .

ويرمز الشاعر الى فضل النمام لكونه يصرف سامعه عن الاقتراب ممن اغتابه تحاشيا للتخلق بأخلاقه ، يقول : (يحدو المفيق الى الخمار ...) فالظاهر من هذه العبارة الدعوة الى السكر ، بينما المقصود هو ابعاد غير النمام عن النمام ، ودعوته الى النوم ، لأنه يبعدة عن سماع النميمة ، فقد كنى عنه بقوله : (لأن في نصف اسمه ثمل الفتى السكران) .

ويبرر موقفه المتعاطف مع النمام بذكر اسمه معكوسا لدلالته على الأمان ، وأنه بمثابة عين الرقيب التي تحرسه من عوادي الزمن . واذا أنعمنا النظر في هذه الأبيات ، اتضح لنا قدرة الشاعر اللغوية في توظيف اللفظ ،

(١٠٢) طارف : الطرف ، طرف العين ، والطرف اسم جامع للبصر . اللسان (طرف) .

(١٠٣) ديوانه ص ٢٣٧ .

لكى يبرر رأيه فى النمام ، اذ ألغز بعبارة (نصف اسمه) الى كلمة (نم) أى النوم . وعبارة (وهجاء نمام اذا نكسته) بعكس كلمة نمام (مامن) أى الأمان والمأمن ، اضافة الى حرصه على تحسين الأداء بالجناس .

أما الوشاية فلها فى الشعر العباسى مكانة ، اذ انكشف الواشون للشعراء ، فلم تعد لأعييهم تنطلى على ذوى الألباب ، فهذا ابن الرومى يتحدث عن ذلك فيقول :

وقد حاول الواشون افساد بيننا

فأعيبى على ذى المكر منهم وذى الارب (١٠٤)

سوى أنهم قد آذنونا بجفوة

أدالت رضانا ماحيينا من العتب

وشوا فعرفنا للتجافى مرارة

وهبنا لها مهما أتيناها من ذنب

فعدنا وأصبحنا بحيث يسرنا

من الوصل والواشون فى مزجر الكلب (١٠٥)

يقرر الشاعر أن الوشاة فعلا حاولوا عبثا أن يفرقوا بينهم ويفسدوا العلاقات الوطيدة ، والأواصر والروابط الحميمة التى تجمع بينهم . غير أن مناصبة الوشاة العداة لهم كان له أثر طفيف ، فقد أضحى العتاب من السمات التى يتصفون بها ، لكنهم استطاعوا الخروج من هذه التجربة المريرة

(١٠٤) الارب : بالكسر : الدهاء . القاموس (الارب) .

(١٠٥) ديوانه ٢٠٩/١ ، ٣١٩،٢٣٩،١٣٩/١ ، ١١٨٦/٣ ، ٢٢٤٩،٢٠٧٠/٤ ، ١٨١٣/٥ .

مزجر الكلب : قال سيبويه : وقالوا هو منى مزجر الكلب ، أى بتلك المنزلة .
اللسان (زجر) .

- التي كان مبعثها هؤلاء الوشاة - أكثر تماسكا ودراية بأساليبهم في بث
الفرقة.

لقد باءت محاولات الوشاة بالفشل ، رغم ما يتمتعون به من مكر ودهاء
فصنعهم هذا كشف نواياهم الشريرة ، وبغضهم ، مما ترتب عليه تبدل في
المواقف تجاههم . وفي هذا اشارة الى يقظتهم وتماسكهم ضد أى عدو يحاول
التغلغل فيهم ، ليقوض أواصر المحبة والألفة التي تجمع بينهم ، بل ان ضرر
ذلك عاد على الوشاة أنفسهم لانكشافهم وافتضاح نواياهم السيئة . ثم يعزو
الشاعر ما أحدثته الوشاية من ألم الى أنها جزاء ما اقترفوه من أخطاء ، ورغم
كل تلك المحاولات اليائسة عادوا الى سابق عهدهم من المحبة والألفة ،
وأضحى الوشاة في منزلة قصية كمنزلة الكلب المزجور .

وبالقاء نظرة على هذه الأبيات نلاحظ أن الشاعر كرر كلمة (الوشاة)
عدة مرات ، ومدللا على حذقهم ويقظتهم ، وصعوبة النيل منهم باعتماده
أسلوب الانصاف حيث خلع صفة المكر والدهاء على الوشاة التي لم تفلح في
تفتيت أواصر المحبة والترابط بينهم .

وإذا كان من شأن الوشاة أن يحاولوا افساد العلاقة بين الناس عند
ابن الرومى ، فاننا نجدهم عند مهيار الديلمي قد بشوا سمومهم وأخذوا
يرقبون نتيجة ذلك ، يقول مهيار :

مد الوشاة له رقابهم

يتطلعون عواقب المكر

يرمون بالأبصار رائدة

أنى تصوب سحابة الشر

ظنوا اليد اليمنى اذا بطشت

قعدت بيسراها عن النصر

والنيران وان هما اختلفا

فالشمس لاترتاب بالبدر

ياخاب سعى مرقشين مشوا

بالغش بين الماء والخمر (١٠٦)

يرى الشاعر فى الوشاة عيوننا ترقب نتيجة سعائتهم ، يظهر ذلك من خلال قوله : (مد الوشاة له رقابهم ..) و(يرمون بالأبصار رائدة) .

فى البيت الأول يتضح اصرارهم على بث سعائتهم ، حتى يهنأوا بما تحدثه من فرقة وتصدع . وفى البيت الثانى نلحظ تخفيهم بعد اطلاقهم سعائتهم والاكتفاء بمراقبة الموقف عن بعد ، معتمدين على أبصارهم المصوبة التى لا تخطىء هدفها الذى ترقبه . لكن الوشاة أخطأوا التقدير فالقوم يد واحدة فى السراء والضراء ، تماما كيدى الانسان ، اللتين لاتخذل احدهما الأخرى وقت الشدة ، ولا يغمط احدهما الأخرى . فالقمران رغم اختلافهما لم يغمط أو ييز أحدهما وظيفة الآخر، بل يتمم أحدهما الآخر .

وأخيرا يستهجن الشاعر الأسلوب الذى يمارسه الوشاة فى التفريق بين الناس ، ومن ثم الطريقة التى يتخفون من خلالها ، وهم يراقبون مايجل بالقوم من جراء السعاية بينهم بتزوير الأخبار الملفقة وزخرفتها ، ومحاولة ضرب بعضهم ببعض ، وأنى لهم ذلك حيث يقول :

ياخاب سعى مرقشين مشوا

بالغش بين الماء والخمر

فالخبية تعنى الاحباط وكشف الأعييبهم وحيلهم ، رغم مايزخرفونه من أكاذيب ، لأن الود الذى يربط بين الشاعر وأحبائه وثيق ، فهما تمازجا تمازج الماء والخمر الصرف .

(١٠٦) ديوانه ١/٣٨٨-٣٨٩ .

مرقشين : التريش : المعاتبة والنم والقنم والتحرش وتبليغ النميمة . ورقش كلامه : زوره وزخرفه . اللسان (رقش) .

ولم ينفك الوشاة يبثون سموهم للتفريق بين الناس ، حتى أن أذاهم امتد لذوى القربى ، فقد رصد ذلك ابن أبى حصينة بقوله :

ساموا لنا عنده أمرا ليحمدهم

فالحمد لله قد ليموا وماحمدوا

ونحن أنفع منهم ان ألم به

خطب وأوجد اللهم الذى يجد (١٠٧)

فى أسلوب شائق تحدث الأمير ابن أبى حصينة عن الوشاة ، فقال :
(ساموا) بمعنى طلبوا ورجبوا ، ففى هذا اشارة الى أنهم جهدوا فى الدس بين الشاعر وبين تلك الشخصية التى يجبها ويرجو لها الخير ، غير أن عناية الله سبحانه وتعالى ردت كيدهم فى غورهم ، فقد انقلب الحمد والشكر الذى كانوا يؤملونه الى اللوم والتعنيف ، حيث ان الشاعر أقرب لحمة وسدة ، وأنه حصن منيع ، وسيف مصلت ومستودع لما تجيش به نفسه من هموم ، فيسرى عنه آلامها .

فهل من يتمتع بمثل هذه المكانة لديه يمكن النيل منه؟

لقد وفق الشاعر فى صياغته لبيته التى اتسمت بالتكرار غير المخل ، حيث كرر (ليحمدهم ، فالحمد لله ، حمدوا) والمقابلة بين (ليموا ، وحمدوا) ، وجنوحه للمبالغة فى البيت الثانى . وتظهر مسحة الهدوء بادية من خلال الصياغة ، ولعل مرد ذلك ثقة الشاعر واطمئنانه لجانب من بلغته الوشاية ولمكانته فى نفسه .

ونجد صردر يتساءل : لماذا يصر الوشاة على النيل منه وضعضة

مكانته؟ فى حين نعتهم بالأعداء لأن مايبثونه من سموم ينم عن عداء مقيت .
يقول :

فمالى يثلم الأعداء حدى
ويختلق الوشاة على بطلا
ويرمونى بزور القول حتى
تمنى جانبى لو كن نبلا
فيالله حيث وضعت جنبى
أمارس عقربا منهم وصلا (١٠٨)
محالهم (١٠٩) يمد الى باعا
وباطلهم يحط على رجلا
خصوم ينظرون الى شزرا (١١٠)
ومن ذا يقهر الخصم المولى (١١١)

اتسمت هذه الأبيات بالشكوى والتضجر من ظلم الوشاة ، الذين استطاعوا النفاذ ، وبث الفرقة والحاق الضرر بالشاعر ظلما وعدوانا ، فمضاؤه وثقله الاجتماعى الذى افتقده ، عبر عنه بقوله : (فمالى يثلم الأعداء حدى) .

وعن زيف ماتفوه به الوشاة يقول : (ويختلق الوشاة على بطلا) . أما شدة الألم الواقع على الشاعر من جراء سعايتهم ، فقد عبر عنه بقوله : (تمنى

(١٠٨) الصل : الحية التى تقتل اذا نهشت من ساعتها .. وقيل الصل : الداهية . اللسان (صلل) .

(١٠٩) المحال : الكيد ، ومحل به محلا ومحالا : كاده بسعاية الى السلطان . القاموس (المحل) .

(١١٠) الشزر : النظر عن اليمين والشمال وليس بمستقيم الطريقة ... وأكثر مايكون النظر الشزر فى حال الغضب . اللسان (شزر) .

(١١١) ديوانه ص ١٧١ ، ص ١٩٦ .

جانبي لو كن نبلا ، أمارس عقربا منهم وصلا ، خصوم ينظرون الى شزرا) ،
أما تمكنهم الممض فقد قال عنه :

محالهم يمد الى باعا

وباطلهم يحط على رجلا

خصوم ينظرون الى شزرا

ومن ذا يقهر الخصم المولى

يفصح الشاعر عن ضيقه وألمه من تلك المكائد التي تلاحقه حتى قضت
عليه ، معبرا عن ذلك القهر والظلم الواقع عليه بقوله : (وباطلهم يحط على
رجلا) .

وأخيرا يصور عجزه عن أخذ حقه من خصمه ، رغم مايعتمل تحت
جوانحه من آلام .

ولما لم تفلح محاولاتهم ، انقلبوا ضد من لم يصدقهم ، وينجرف خلف
ترهاتهم ، يقول أبو الحسن على بن الحسن اللحام الحرائي :

ان الذين مشوا اليك على دمي

لم أصغ فيك لهم وهم عذالي

حتى اذا ما استيأسوا مني سعوا

ووشوا بما لم يجر قط بيالي (١١٢)

يعتذر الشاعر في هذين البيتين عما نقل عنه من وشاية ، معبرا عن
ذلك بقوله : (مشوا اليك على دمي) بكل ماتعنيه هذه العبارة من سحق ،
وامتهان ، مشبها الوشاة بالقتلة لشدة وقع ألم تلك الوشاية على نفسه ، وفي
نفس الوقت يبين أنهم وشوا اليه بصديقه ، غير أنه نفى أن يكون قد
صدقهم أو اكثرث بما سعوا به لديه عن صديقه ، ولما لم يجدوا لديه أذنا
صاغية لما يحكيونه من سعاية ، قلبوا له ظهر المجن فوشوا به لدى صديقه .
فكانت سعائتهم بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير .

وقد عبر الشاعر عن مبدئه الذى لا يجيد عنه بقوله : (... بما لم يجز قط
ببالي) . فالشاعر لم يكن يفكر قط فى الخفاء ، فى اىذاء المخاطب ، فضلا عن
الجهر بايذائه ، ففى هذا دلالة على تطابق سلوك الشاعر فى الظاهر والباطن
على عكس كلام الوشاة .

لقد بدأ الشاعر بيتيه بـ (أن) ليؤكد صدق ماذهب اليه ، ونافيا تصديقه
لهم ، وأيضا ينفى أن يكون قد حدث نفسه بما يكرهه المخاطب . ومن
خلال تعبير الشاعر نلاحظ أنه يدافع عن نفسه لدحض التهمة التى ألصقت به
وفى نفس الوقت يحذر المخاطب - من طرف خفى - أن يقع فى شركهم .
وإذا كان الوشاة قد حاولوا افساد العلاقة عن طريق الدس الرخيص
حيننا والمناوأة حيننا آخر ، والتزلف والاصرار عليه ثالثا . فان صلابة الشاعر
وفطنته حالت دون وصول الوشاة الى مآربهم . وأحيانا تنقطع بهم السبل
فلا يستطيعون دفع التهم التى توجه اليهم ، فيذعنون لها على مضض .

لكن عبيد الله بن سليمان بن وهب وكل دفع الظلم والأذى من قبل
الوشاة الى الله عز وجل الذى تكفل بهم ورد كيدهم فى نحورهم ، فقال :
كفاية الله خير من توقينا

وعادة الله بالاحسان تغنينا

كاد الوشاة^(١١٣) ولا والله ماتركوا

قولا وفعلا وبأساء وتهجيننا

فلم نزد نحن فى سر وفى علن

على مقالتنا الله يكفيننا^(١١٤)

(١١٣) كاد الوشاة : بلغوا الأمر الذى كادوا، يريد : طلبوا أو أزدادوا . اللسان (كيد) .

(١١٤) اعتاب الكتاب ص ١٧٦ ، آل وهب ص ٣٢١ .

يتضح من خلال هذه الأبيات أن الشاعر قد عانى كثيرا من الوشاة ،
ولعل ذلك راجع الى تقلده منصب الوزارة ، مما يجعلنا نعزو الوشاية به الى
الوشاية السياسية.

فالشاعر يتحدث وهو مسلم أمره الى الله في شأن الوشاة متمثلا قول
الله عز وجل : {الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} (١١٥)، طالبا منه جل وعلا أن
يكفيه شرورهم ، التي تحدث عنها في البيت الثاني .

فالشاعر عندما أعيته الحيلة ، وفقد القدرة على الدفاع عن نفسه ،
التجأ الى الله تعالى ، وتوجه اليه بالدعاء .

اتكأ الشاعر في صياغته لهذه الأبيات ، على مضمون الآية القرآنية ،
حيث التسليم لأمر الله سبحانه ، كفاية من شرهم ، وفي هذا الاستخدام
تعبير عن نزعة دينية لدى الشاعر .

في الكذب :

الكذب داء من الأدواء الاجتماعية ، التي تدل على خسة الطبع ودناءة النفس ، لذلك فالإنسان الفاضل يتحاشى الكذب ، وتأباه نفسه ، لأنه مقرون بالذل والحمق والجهل ، يقول الأحنف : "أثنان لا يجتمعان أبدا : الكذب والمروءة" (١١٦).

لذا تجب محاربة الكذب ، حتى لو كان اطلاقه من باب المداعبة ، يقول ابن المقفع : "لاتتهاونن بارسال الكذبة عند الوالى أو غيره في الهزل ، فانها تسرع في ابطال الحق ورد الصدق مما تأتى به" (١١٧).

لقد تصدى الشعر العباسى لظاهرة الكذب ، منتقدا اياها وأصحابها ، ليس فقط من أجل أن الدين حاربها ، ولكن لما تجره من خراب وتفكك في العلاقات الاجتماعية ، نظرا لافتئاته على الحقيقة والواقع .

ومن المسلم به أن الشاعر عنصر فعال في المجتمع ، يتفاعل معه ، فيعيش أفراحه وأتراحه .

ويتضح من حديث أبي العلاء المعرى عن الكذب ، أن تخرص الناس الكذب على الله يستتبع شيوعا في الكذب على البشر ، ولهذا أخذ الشاعر يطلب من المخاطب أن يتجمل بالصبر حتى يعود الود والوئام ، يقول :
إذا قال فيك الناس مالاتحبه

فصبرا يفىء ود العدو اليكا

وقد نطقوا مينا على الله وافتروا

فما لهم لا يفترون عليك؟ (١١٨)

(١١٦) عيون الأخبار ٢/٢٦ .

(١١٧) الأدب الكبير ص ٦٩ .

(١١٨) اللزوميات ٣/١١٧١ .

يدور حديث الشاعر حول الكذب ، مستخدماً أسلوب الشرط ، ليبين أن الصبر يكسب المخاطب ، ارعواء العدو وعودته الى المحبة ، وفي نفس الوقت لجأ الى تعزية المخاطب عندما أكد كذب الناس وافترأهم على الله جل وعز في قوله : "وقد نطقوا مينا على الله ...".

كما لم يسلم الأنبياء من الكذب عليهم ، لنسمع ما يقول أبو العلاء المعرى :

غدا أهل الشرائع فى اختلاف

تقض به المضاجع والمهود

فقد كذبت على عيسى النصارى

كما كذبت على موسى اليهود

ولم تستحدث الأيام خلقا

ولاحالت من الزمن العهود (١١٩)

يصور الشاعر فى هذه الأبيات ، حال الناس وقد انتشر بينهم الكذب ، الذى لم يسلم منه الأنبياء عليهم السلام . فالأمر جد خطير ، حيث عم الخلف بين الناس ، مما أدى الى عدم الاطمئنان ، وأقضى على الناس مضاجعهم .

ثم أكد كذب النصارى واليهود على عيسى وموسى ، حينما قالوا أن عيسى ابن الله ، وأن اله موسى هو العجل ، وفى هذا اشارة لقوله تعالى : {وقالت اليهود عزيز بن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون} (١٢٠)

وقوله تعالى : {فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى} (١٢١).

(١١٩) اللزوميات ٤٤١/١ .

(١٢٠) سورة التوبة : آية ٣٠

(١٢١) سورة طه : آية ٨٨

ويشير من طرف خفى فى البيت الأخير الى كذب المشركين على النبى
محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يعنى أن أخلاق الناس باقية على ماهى
عليه ، من فساد على مر الزمن .

جرت العادة اذا حزب أمر فيه حيف ، أن تتصاعد الصرخات مستنكرة
حيناً ومستنقدة حيناً آخر . غير أن أبا الطيب المتنبى ، أخذ ينهى عن تلك
الشكوى ، ويأمر بأخذ الحذر والحيطه ، فقال :
ولاتشك الى خلق فتشمته

شكوى الجريح الى الغربان والرخم

وكن على حذر للناس تستره

ولايفرك منهم ثغر مبتسم

غاض الوفاء فماتلقاه فى عدة

وأعوز الصدق فى الاخبار والقسم (١٢٢)

ينهى أبو الطيب عن الشكوى ، لأنه يرى أنها تؤدى الى الشماتة نظراً
لاستشراء الكذب بين الناس ، لذلك يأمرنا بأخذ الحذر والحيطه وعدم
الاغترار بما يظهره من بشاشة ورضا . فالناس جميعاً فى نظره كذابون
أفاكون .

لقد عبر عن هذا المعنى فى أسلوب جميل ، ينم عن مقدرة الشاعر
وملكه ناصية الشعر حيث بدأ أبياته بالنهى عن الشكوى ، التى تدل على
الذل والهوان والانهازم ، كشكوى الجريح الى طيور الغربان والرخم ، التى
تتمنى موته لتأكل لحمه ، وهو لا يستطيع دفعها .

والشاعر وهو يطلب عدم كشف شكوى المخاطب للناس ، فانما يريد
أن يحذر من مغبة ذلك ، حيث أنهم اذا ما اتضحت لهم استغلوا الموقف
لممارسة خبثهم .

وأخيرا وضح السبب الذى من أجله نهى المخاطب عن الافصاح بشكواه ، فقد زال الوفاء فى كل الأمور وقل الصدق على الحالين : الاخبار والقسم .

ويجمل بنا أن نشير الى بعض الملاح الفنية فى هذه الأبيات ، حيث نجد التشبيه فى قوله : "شكوى الجريح الى الغربان والرخم" ، والاستعارة فى قوله "غاض الوفاء ... " ، والجناس فى : "تشك - شكوى" .

قد يجبر الدهر المرء على الكذب فى مدح من ليسوا أهلا له وهذا ينبىء عن جهل منشئه ، يقول أبو هلال العسكري :

مدحت ولم تصدق ولم تك مذنبا

ولكن دهرا لم يساعدك مذنب

وماالجهل الا أن تقرظ معشرا

خلاتقهم يشهدن أنك تكذب (١٢٣)

نلاحظ على صياغة هذين البيتين تكرار النفى بشكل لافت للنظر ، ولعله يهدف من وراء ذلك الى تبرئة المخاطب ، مما وصم به من كذب . وقد لجأ الشاعر الى أسلوب القصر ، حيث قصر الجهل على مدح الذى لا يستحق المدح .

ولم يسلم الكريم من الكذب ولاالحبيب من الخيانة وهى الكذب ، يقول الشريف الرضى :

كل جواد كاذب فى الوعد

وكل خل خائن فى الود (١٢٤)

اتسم هذا البيت بالتكرار اللفظى المشوب بالمبالغة ، فى حين أكد فى مماثلة بين الجواد والخل ، كذبهما وعدم وفائهما على حد سواء .

(١٢٣) ديوانه ص ٥٣ .

(١٢٤) ديوانه ١/٣٢٨ .

ويرى الشريف المرتضى أن الكذب سيعود على صاحبه مهما بذل في
تجنب ذلك من جهد ، فالكذب حبله قصير ، يقول :
وعضيها جاءتك من عقب بها
أزرى عليك فلم يجزه كلامه
ورماك مجترئا عليك وانما
وافاك من قعر الطوى سلامه
وكانما تسفى الرياح بعالج
ماقال أو ماسطرت أقلامه
وكان زورا لفقت ألفاظه
سلك وهى فانحل عنه نظامه (١٢٥)

يتوجه الشاعر بجديته الى المخاطب لكي يسليه عما وقع عليه من
كذب وبهتان ، وموضحا أن ذلك دليل على ضعف من وصمه به ، غير أن
تلك الكذبة لن ترحزه ولن تؤثر فيه ، فهو طود أشم ، يمتص مثل تلك
الترهات ، ولن يكون لها أثر فيه .
وقد عبر عن هذا المعنى في أسلوب واعم فيه بين المعنى والألفاظ ، التي
جاءت مواكبة للمعنى . فالكذبة التي أطلقت على المخاطب كان مطلقها من
المفتونين بها ظنا منه أنها ستشيع بين الناس وتحدث من الضرر ماكان يرمى
الى احداثه ، ولكن ظنه خاب .
يقول : "وعضيها جاءتك من عقب بها" . غير أنه من العجز أن ينال
من المخاطب ، يقول : "أزرى عليك ..." ويؤكد ضعفه وعدم قدرته ،
بوضعه في قاع البئر مجازا ، وهو يتأهب لاطلاق كذبتة ، وكذا بعد الكاذب .

كما أن المكانة الدنيئة التي يقبع فيها ، لم ولن تمكنه من تسديد سهامه .
وأمام تلك الاباطيل يشبه المخاطب بالريح الهوجاء التي تثير الرمال
لتغطي ، بل لتزيل مايعترضها . كما شبه تلك الأكاذيب بألفاظ نظمت في
سلك سرعان ما انفرط وظهر زيفه .

وقد يكون الثراء من أهم العوامل المساعدة على التماذى فى الكذب ،
فالثراء كفىل بالحصول على تصديق الناس ، يقول أبو العلاء المعرى :
إذا أقبل الانسان فى الدهر صدقت

أحاديثه عن نفسه وهو كاذب

أتوهمنى بالمكر أنك نافعى

وما أنت الا فى حبالك جاذب

وتأكل لحم الخل مستعذبا له

وتزعم للأقوام أنك عاذب (١٢٦)

بدأ الشاعر حديثه بأداة الشرط ، ليوضح لنا رؤيته ، حيث أنه يرى
تصديق الانسان فى بعض الأحيان انما يكون نتيجة لما يملك من ثروة ، والتي
عبر عنها بقوله : "إذا أقبل ... " ، ويتساءل الشاعر مستنكرا على الكاذب
ايهامه له ، وفى نفس الوقت يظهر استهجانه اياه ، حيث أنه - أى الكاذب -
فى الواقع يجذب الشركاء التى نصبها ، ثم يبشع كذبه - وهو يتظاهر بالورع
- على من يصفيه الود ، بمن يأكل لحم أخيه .

ومن مظاهر الكذب الخلف بالوعد ، وعدم الصدق فى التعامل .

وقد يعمد مخلفو الوعد الى التضليل والتعمية ، يقول ابن أبى فنن :

(١٢٦) اللزوميات ٩٤/١ .

وانظر نفس المصدر ٣٦٨/١ ، ٥٤٨/٢ ، ١١٢٥،١٠٢٩،٧٠٢،٦١٦،٥٨٠،٥٤٨/٣ ، ١٥٣٢/٣ .

يقول لنا فى الجمعة السبت موعد

وهل جمعة الا ومن بعدها سبت؟ (١٢٧)

عمد الشاعر لتأكيد عدم صدق الوعد الى الاستفهام الدال على التقرير هنا .

وقد غلب على تعبيره التحسين اللفظى ، ممثلا فى التكرار اللفظى بين الجمعة ، جمعة ، وبين السبت ، سبت .

ولعل من أشد أنواع الخلف ايلاما ، التنصل من الوعد ، والتحلل منه ، يقول منصور الفقيه :

من قال: لا فى حاجة

مطلوبة فما ظلم

وانما الظالم من

يقول : لا بعد نعم (١٢٨)

جعل الشاعر من يعد ويخلف الوعد ظالما ، وهى صفة ذميمة عند ذوى الألباب .

فالشاعر لا يرى ضيرا فى عدم الاستجابة لأمر مطلوب ، مهما كان ذلك المطلوب ، غير أنه يرى أن من الظلم الفادح أن يمتنع بعد الايجاب .

لم ترق صياغة هذين البيتين الى مصاف الشعر الجيد ، بل غلبت عليها المباشرة وان كان قد أكد على ظم مخلف الوعد فى قوله : "انما الظالم من ..."
وتكراره النفى .

ويشكو ابن الحجاج من الخلف بالوعد ، الذى يفوق فى نظره ، ما يحل به من مصائب ، فيقول :

انى ابتليت بأقوام مواعدهم

تزيد فوق الذى ألقاه من محن

(١٢٧) شعراء عباسيون ص ١٤٥ .

(١٢٨) منصور الفقيه (حياته وشعره) ص ١٣٤ .

ومن يذق لسعة الأفعى وان سلمت

منها حشاشته يفزع من الرسن (١٢٩)

يؤكد ابن الحجاج مدى قلقه من المواعد الزائفة، التي تعود عليها ،
ولشدة حرصه ، فقد أضحى يجشى كل شيء ، ويتوقع عدم الوفاء في كل
لحظة .

وقد جعل اتصاله بغير الأوفياء مصيبة تضاف الى المحن التي تتالت
عليه والتي تثقل كاهله . ثم ضرب مثلا لأولئك بلدغ الأفعى ، التي ان سلم
منها اللديغ فلن يزول خوفه منها ، حتى أنه يظن أن الجبل أفعى .
وفي هذا اشارة الى سوء ظنه بالناس جميعا ، وأنهم كلهم على تلك
الشاكلة .

ويتحدث البستي عن صديقه ، موضحا التباين بين صورته ، وطريقة
معاملته ، المتسمة بالخلف بالوعد ، فيقول :

أخ لى أما خلقه فمطهم
جميل وأما خلقه فقبيح
له أسهم قد راشها بجفائه
وقلبى من تلك السهام جريح
مواعيده ريح ولاخير فى فتى

مواعيده عند الحقائق ريح (١٣٠)

يرى الشاعر عدم توافق المظهر الخارجى الجميل ، مع الخلق السئ
الذى يتحلى به صديقه ، فما يمارسه من خلف أشد ألما على نفسه من ضرب
السهم .

(١٢٩) معاهد التنصيص ١٩٢/٣ .

(١٣٠) أبو الفتح البستي (حياته وشعره) ص ٢٤٠ ، وديوانه ص ٥٨ .

لقد أجاد الشاعر في هذه الأبيات ، حيث نجد المقابلة بين (خلقه مطهم
وبين خلقه قبيح) . أما التفصيل فيتجلى في قوله :

أخ لى أما خلقه فمطهم

جميل وأما خلقه فقبيح

ويجمل بنا أن نشير الى الزينة اللفظية كالجناس بين خلقه وخلقه ،
أسهم السهام ، مواعيد ، مواعيده ، والتصدير بين ربح وريح .
ويستنكر أبو العلاء المعرى ، ماذهب اليه القوم من أن القياس ،
يجيز لهم تصرفهم فى الوعد ، فهو يرى عدم جواز ذلك الخلف فى القياس ،
يقول :

أبيتم سوى مين وخلف وغلظة

فليس لوعده فى الجميل نجوز

وان الذى تحكون ليس بجائز

ولكن سواه فى القياس يجوز (١٣١)

يرى الشاعر أن مثل هؤلاء ، قد أصروا على مخالفة الوعد وعدم
الوفاء به .

ولقد عبر عن اصرارهم على الكذب بقوله : (أبيتم) وهذا ما جعل
الشاعر يستبعد بل ينفى انجاز الوعد أمام اصرارهم العجيب . ويعمد الى
(ان) ليؤكد عدم جواز مايتفوهون به من كذب ، حتى فى القياس .
ويعد المطل من مظاهر الكذب ، لما فيه من تسويق وتضييع للحقوق ،
ولما له من أثر سلبي على العلاقات الاجتماعية ، وقد تحدث عنه ابن الرومى
مستبظاً ، جحظة اليرمكى ، فقال :

أبا حسن ان حبل المطا

ل ان مد كان بلا آخر

فاما اصطنعت الى شاكر

واما اعتذرت الى عاذر

ولاعذر ان أنت خاتلتنى

عن العذر فعل امرىء ماكر (١٣٢)

أنشأ الشاعر هذه الأبيات يستبطن جحظة ، مبتدأ بأداة النداء ، لكى يستحثه لانجاز ما وعد به - فالمطال فى الانجاز ليس له نهاية - فهو مخير فى أن يسدى المعروف له فيشكره ، أو يعتذر له فيقبل عذره ، عبر عن ذلك بقوله :

فاما اصطنعت الى شاكر

واما اعتذرت الى عاذر

غير أن الشاعر لا يعذره اذا حاول المماطلة والمخاتلة ، مقتفيا فى ذلك أثر الماكرين المخادعين .

وربما يجبر المرء على الوعد بالعطاء مجارة للعادة فحسب ، رغم عدم قدرته على العطاء ، فيعمد الى المماطلة ، لهذا السبب أو لغيره من الأسباب يقول جحظة اليرمكى :

اذا كانت صلاتكم رقاعا

تخطط بالأنامل والأكف

ولم تجد الرقاع على نفعا

فهاخطى خذوه بألف ألف (١٣٣)

استغرقت جملة الشرط بيتى الشاعر . فقد بدأهما بأداة الشرط منتقدا عدم تنفيذ ما أمر به له من صلة فى رقعة سلمها للمسئول عن الخزينة ، فاذا كان الأمر كذلك ، وأن هذه الرقاع لافائدة فيها ، سوى تنميق خطها والتفنن فيه ، فخطى أجمل منها بمراحل ، فلايكفينى ثنا له سوى ألف ألف .

(١٣٢) ديوانه ٩٨٤-٩٨٥/٣ ، ٩٩٢/٣ .

(١٣٣) جحظة اليرمكى (الأديب الشاعر) ص ٢٨٩ .

وتحدث الشريف المرتضى عن المماطل ، فى معرض حديثه عن العدل
والانصاف فقال :

كم فيكم من ماطل وعده

فان يجد يوما به أخلفا

ومن مصر زاد اصراره

ان ليم فى السىء أو عنفا؟ (١٣٤)

فى أسلوب واءم فيه الشاعر بين اللفظ والمعنى ، تحدث عن تعجبه من
أمر أولئك القوم ، بسؤال عن عدد المماطلين منهم والمخلفين بوعدهم حتى
فى حال جودهم ، وعن عنادهم كذلك ، الذى يزداد اذا ليموا على ذلك
الخلق السىء .

ويرى الشريف العقيلي أن لجوء المماطل الى المماطلة ، مرده قصر
الهمة فى الفضائل ، رغم غطرسته وتعاليه ، فقال :

قرونك تحت أقصرها الثريا

ونفسك تحت (١٣٥) همتها الحضيض

قتلت بسيف مطلق حى وعدى

فلم يقعد عن النار القريض

اذا قعد الوفا بك عن حقوقى

فمالك فى قضا حق نهوض (١٣٦)

واضح أن مهجو الشاعر ، قد بلغت به الغطرسة ، والتعالى مبلغا ، غير
أن حظه فى الفضائل فى الحضيض . ولكى يبين ثقل ماوقع عليه من المهجو

(١٣٤) ديوانه ٢٦٢/٢ .

(١٣٥) هكذا وردت فى الديوان .

(١٣٦) ديوانه ص ١٩٢ .

عقد مقارنة بين مطله الذى قتل الأمل فى نفسه وبين النار بعد توهجها وهى تتلاشى ثم تنطفىء . وأخيرا لجأ الى أسلوب الشرط ، ليوضح عدم وفائه بوعدده .

كما لجأ الشاعر فى تعبيره الى المقابلة لما لها من أثر كبير فى شحذ الذهن ، ووضوح المعنى ، حين قابل بين (تحت أقصرها الثريا وبين فوق همتها الحضيض) ، وبين (قعد ، نهوض) .

وإذا كانت الغوانى تنفر من الشيب ، فان من هجاهم ابن حيوس ، ينفرون بنفس الدرجة ، ممن يشفع لديهم ، نظرا لما جبل عليه من الامهال ، بل الالهمال واللامبالاة يقول :

عصب موقع الوسائل منهم

موقع الشيب من ذوات الحجال

وعدهم معوز فان بذلوه

فهو وقف على المطال المطال

وإذا ما الحاجات حلت لديهم

متن طوع الالهمال والاهمال (١٣٧)

يبدو أن المماطلين كثر ، لذا بدأ الشاعر أبياته بـ (عصب) ثم كرر ضمير الغيبة ، موضحا أنهم يكرهون الوسائل التى يتقدم بها أصحاب الحاجات اليهم ، وينفرون منها ، كما تنفر النساء من الشيب . فوعدهم يفتقر للوفاء به فى وقته المحدد ، وإذا ما عنت الحاجة لديهم ، فان التأخير ، بل الالهمال هو مصيرها .

ولذلك فقد لجأ الشاعر الى أسلوب الشرط ، كما هو واضح فى البيتين
الثانى والثالث .

وإذا كان الشاعر قد اهتم بالمعنى فإنه لم يغفل الزينة اللفظية ، ممثلة فى
الجناس ، بين المطال والمطال ، وبين الامهال والاهمال .

وأخيراً تملأ الحيرة الشريف الرضى ، أين يتجه بشكواه من هذا الداء
ألصديقه؟ أم للزمن؟ فقال :

أشكوك أم أشكو الزما

ن لأن مطلق من ذنوبه

بل أشكويه فكم دفعـ

ت الى الغرائب من خطوبه (١٣٨)

غلبت المباشرة على صياغة هذين البيتين ، فقد طرح تساؤله على
المخاطب أيتقدم بالشكوى منه؟ أم من الزمن الذى تفشى فيه المطل
والتسويق ، لكن الشاعر كفى المخاطب مؤونة الاجابة ، حيث قرر شكوى
الزمن ، الذى رزأه بكثير من مصائبه ، يظهر ذلك من قوله : (فكم دفعت
الى الغرائب من خطوبه) .

فى الحسد (١٣٩) :

لقد كانت الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى مرتعا خصبا للحسد ، نتيجة للنقلة الحضارية ، وماترتب عليها من ابراز طبقة معينة من الناس بسبب اتصالهم بالدولة وخدمتها .

وتنافس الناس فيها هو الذى أدى بالضرورة الى التنافر والتقاطع بين فئاته المختلفة ، وبخاصة المبرزون منهم الذين حققوا مكاسب كثيرة ، فى شتى مناحى الحياة ، فقد كانت تلك المكاسب المادية والنجاحات الاجتماعية والسياسية ، وغيرها مبعثا للحسد واستفحال أمره ، لذلك فقد كان الأثرياء وذوو الجاه من الناس معرضين للحسد دون فقرائهم ، اذا فالنعماء والحسد مقترنان . يقول البحتري :

محسد بخلال فيه فاضلة

وليس تفترق النعماء والحسد (١٤٠)

وينهى ابن وكيع التنيسى عن حسد الصديق فىقول :

لا تحسدن صديقا على تزايد نعمه

فان ذلك عندي سقوط نفس وهمه (١٤١)

ولهذا فابن المعتز يتلذذ بالحسد ، لأنه يرى أن زواله مؤذن بزوال

المجد والسؤدد ، يقول :

واذا ملكت المجد لم

تملك مودات الأقارب

والمجد والحساد مقرو

نان ان ذهبوا فذاهب

(١٣٩) الحسد : أن تمنى زوال نعمة المحسود اليك . اللسان (حسد) .

(١٤٠) ديوانه ٤٩٦/١ .

(١٤١) ابن وكيع التنيسى (شاعر الزهر والخمر) ص ٩٥ .

وإذا فقدت الحاسد

ين فقدت في الدنيا الأطايب (١٤٢)

ولكى يبرز الشاعر أن الحسد يدل على المكانة العالية التي يتسنىها المحسود ، عمد الى المقابلة ، فالمجد لا يتواءم مع محبة الأقارب . لذا أضحي الحسد علامة من علامات النعمة والمكانة الرفيعة ، في حين يصبح فقد الحسود نذير بزوال النعمة وتسمم الرتب العليا .
ونجد فيما بين أيدينا من نصوص أن الثروة والمجد والسؤدد ، هي أهم دواعي الحسد ، لذلك فابن الرومي يرى أن من الظلم حسد الأغنياء الباذلين في حين يرى أن من الانصاف أن يحسد ذوو الحسب والشرف ، يقول :

يظلم الحاسدون اذ حسدوه

وهو في ماله شريك الأنام

غير حساده على الشيم الغر

ر اللواتى سلمن من كل ذام

فهم منصفون فى ذاك لاشك

ك لدى المنصفين فى الأحكام (١٤٣)

بدأ الشاعر أبياته بقوله : (يظلم) ليدلل على أن حاسديه يظلمونه بحسدهم ، لأنه من أولئك الأغنياء الذين يجودون على الناس ، مما منحهم الله من ثروة ، ثم يستثنى حسد ذوى الهمم والمجد والمكانة العالية له ، حيث يرى أنهم منصفون لأنهم يشاركونه هذه الصفات العالية . لقد وفق الشاعر فى هذه الأبيات فى توليده للمعاني .

(١٤٢) ديوانه ٤٠/٢ .

(١٤٣) ديوانه ٢٣٧٦/٦ ، ٣٢٢/١ ، ٦٧٤/٢ ، ٩٣١/٣ ، ١٣٨٠/٤ .

كما تحدث البحتري أيضا عن مكارم الأخلاق والنعمة فقال :
ولا عيب في أخلاقه غير أنه

غريب الأسي^(١٤٤) فيها قليل المساعد

مكارم هن الغيظ بات غليله

يضرم في صدر الحسود المكايد

ولن تستبين الدهر موضع نعمة

إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد^(١٤٥)

يؤكد الشاعر على رفعة أخلاق الممدوح ، التي قل وجود نظير لها ،
مشيرا الى أن تلك الأخلاق الرفيعة والمجد الذي تبوأه ، هما السبب الذي
أدى الى اضطرام الحقد في نفوس حاسديه . ولكن العزاء كل العزاء ، أن
النعمة لا تظهر ولا تتضح الا عن طريق الحاسد ، وهذا يعني أن الحاسد
لا تضطرم جوارحه بالحسد والحقد الا جراء النعمة الوفيرة ، التي أسبغها الله
على المحسود .

ويرى الصنوبري أن حسد الحاسد له دليل على وجود النعم التي
أسبغها الله عليه ، لذلك يدعو له حسده ، بل ويشكره على ذلك . حيث قال :

أيها الحاسد المعد لذمي

ذم ماشئت رب ذم كحمد

لا فقدت الحسود مدة عمري

ان فقد الحسود أخيب فقد

كيف لأوثر الحسود بشكري

وهو عنوان نعمة الله عندي^(١٤٦)

(١٤٤) الأسوة والاسوة : بضم الهمزة وكسرهما : القدوة . اللسان (أسا) .

(١٤٥) ديوانه ٦٢٥/١ .

(١٤٦) ديوانه ص ٤٧٢ .

يخاطب الشاعر الحاسد الذي وقف نفسه لذمه (الشاعر) ، ويأمره
بمواصلة حسده اياه ، وفي هذا اشارة الى ثقة الشاعر بنفسه واعتداده بها ،
فقد شبه حسده اياه بحمده من غيره . ويؤكد حرصه على بقاء حاسده ،
بـ(لا) الدالة على الدعاء ، و(ان) التي للتوكيد ، بقوله :

لافقدت الحسود مدة عمري

ان فقد الحسود أخيب فقد

وأخيرا يتساءل عن اثاره الحسود بالشكر ، وفي نفس الوقت يجيب
نفسه بأنه هو المؤشر لنعمة الله عليه ، بمعنى أن حسده اياه ، أظهر وأعلن
مايتمتع به من نعمة ، وأن انقطاع ذم الحاسد ، يعني زوال النعمة .
وباللقاء نظرة أخرى على هذه الأبيات نلاحظ أن أسلوب الشاعر قد
اتسم بتوليده للمعاني .

ثم تحدث ابن الرومي عن الحسد ، لكنه حسد لا يقصد منه زوال
النعمة ، بل هو حسد يقصد به أخلاق المحسود الرفيعة ، التي يتمنى أن
يكون له منها بعضها ، وهذا معنى جديد سلكه ابن الرومي ، يقول :

هل يعرى امرؤ من الحسد المحد

ض على نيل أفضل الأقسام

أنا من حاسديه لكنني لس

ت بباغ نعماه غير الدوام

حسدى أننى أريد لنفسى

بعض أخلاقه بغير اكتتام

واذا حاسد صفا من غليل

فهو فى وزن عاشق مستهام (١٤٧)

بدأ الشاعر بأداة الاستفهام (هل) ليسأل عن مدى صدق خلو المرء من الحسد الخالص لمن حباه الله بأفضل النعم ، فقد ضرب مثلا حسيا ، حيث جعل الحسد كالكساء ، فقد عبر عنه بـ(يعرى) ، ثم أفصح عن حسده للممدوح ، غير أنه يوضح أن حسده لا يتمنى به زوال النعمة عن المحسود ، بل انه يغبطه على المكانة الرفيعة ، ويتمنى أن يكون له بعضا منها .

ولكى يوضح كلف الحاسد بغبطة المحسود ، عقد مماثلة بين الحاسد الخالي من الضغينة وبين العاشق الولهان .

ولم يكن الفضل والمروءة ، هما مبعث الحسد فحسب ، بل الرؤساء وعلية القوم كان لهم نصيب من مناصبة الحساد العداء لهم ، يقول ابن المعتز :

يا آل عباس لنا من عشرة

لا تركزن الى الغواة الحسد

اياكم من بعده اياكم

كونوا لهم كأراقم في مرصد (١٤٨)

يدعو الشاعر للعباسيين باقالة العثرة والعز والتمكين ، على رغم حسادهم ومبغضيتهم ، مبتدئا بياء النداء ، ومشيرا الى ذهابهم لحد بعيد في الاطمئنان لحسادهم وتصديقهم في ودهم المزيف ، وينهاهم عن الركون والاطمئنان للحساد ، فيقول : (لا تركزن ، اياكم .. اياكم .. كونوا لهم كأراقم) فهذه العبارات تدل على مايعتمل في نفس الشاعر من غيظ من هؤلاء الحساد ، ومناصبة العداء لهم أينما حلوا وحيثما رحلوا .

ويبدو أن الحسد قد امتد الى الرؤساء أنفسهم ، يقول السرى الرفاء :

تحاسدت الملوك فليس تخبو

طغائنها ولا تفنى الحقود (١٤٩)

يتضح لنا من خلال هذا البيت أن الحسد لم يقتصر على الأفراد والجماعات من العامة ، بل تعداهم الى الرؤساء ، وهذا يدل على أن الحسد مركب في النفس الانسانية أيا كانت مكانتها الاجتماعية والاقتصادية ، بل هو مستفحل مع تعقد التركيبة الاجتماعية .

ولعل حب التسلط والظهور واتساع دائرة الحكم من أهم العوامل التي أدت الى تحاسد الرؤساء .

في هذا البيت اشارة الى أن تحاسد الرؤساء ، لم يكن وليد الوقت ، الذى كان يعيش فيه الشاعر ، لكنه ظهر منذ زمن مضى ، وفي نفس الوقت ينفى أن تهدأ حدته أو تزول ، فهو مسمار دق في سفينة الخلاف بين الرؤساء .

ويرى ابن أبى طاهر أن حسد الحساد ، لذوى الفضل ، انما يزيدهم رفعة وسموا ، وعلى النقيض من ذلك الحاسد ، يقول :

يا حاسدا فضل امرىء سيد

أصبح قد أحسن فى فعله

لازلت الا باغيا حاسدا

لكل ذى نبل على نبله

وزاد من تحسده نعمة

دائمة تبقى على مثله

ولم يزل ذو النقص من نقصه

يحسد ذا الفضل على فضله (١٥٠)

لم يرق للشاعر ما يلقاه ذو الفضل والمكانة الرفيعة ، من حسد الحساد ، لذلك بدأ أبياته بياء النداء، لكي يلفت انتباه القريب منهم ، لما سيقوله لهم

حيث وصفهم بالبغاة ، وقد عبر عن تأكيده لدمهم بما يشبه المدح ، لكن ما يبعث السرور في نفس الشاعر ، أن المحسود قد زاد فضله ونعمته ، في حين لزم النقص الحاسد ، ما بقى على حسده لذوى الفضل والنعمة .
أما أبو فراس الحمداني ، فيرى أن لمجاهد الحساد أجر كأجر المجاهد ، يقول :

لمن جاهد الحساد أجر المجاهد
وأعجز ما حاولت ارضاء حاسد
ولم أر مثلى اليوم أكثر حاسدا
كأن قلوب الناس لى قلب واجد
ألم ير هذا الناس غيرى فاضلا؟

ولم يظفر الحساد قبلى بما جد؟ (١٥١)

يشكو أبو فراس من الحساد الذين سعوا به ، الذين بلغت سعائتهم هدفها ، مما سبب له جرحا عميقا . ونظرا لما يعتمل في نفسه تجاه هؤلاء الحساد ، فقد أكد على مضاهاة فضل مجاهدتهم ، بفضل الجهاد ، حيث بدأ بلام الجر في قوله : (لمن جاهد ...) سيما وأنه قد أعلن عجزه وقصوره عن ارضاء الحاسد ، ثم صور حاله ، وقد كثر حساده ، بعقده مقابلة بين قلوب حساده وبين قلوب الأجابة تجاه معشوقهم . يتضح ذلك من أسلوب التشبيه (كأن قلوب الناس لى قلب واحد) . ولضيقه بالحساد وتذمره منهم ، فقد طرح تساؤله عليهم : ألا يوجد من يتصف بالفضل غيره؟ فيتجهون اليه بحسدهم .

ورغم شكواه منهم ، الا أنه يفخر بنفسه في ثنايا حديثه ، عندما وصف نفسه بالفضل .

ورغم صعوبة بلوغ الحساد مآربهم ، الا أنهم يصرون على بلوغها ،
مهما واجههم من مصاعب وشدائد ، يقول البحترى :
لقد جشم الأعداء ورد نفاسة
عليك يلاقون الردى فى شروعه
وكم ظهرت بعد استتار مكانها
شناة خباها كاشح فى ضلوعه
ومرضى من الحساد قدكان شفهم
توقع هذا الأمر قبل وقوعه
وماعذرهم فى أن تغل صدورهم

على ناشر الاحسان فيهم مشيعه؟ (١٥٢)

يصف الشاعر الحساد بالأعداء - فكلا الفريقين شبيهه بالفريق الآخر -
فهم يتكلفون المشاق ، ويعرضون أنفسهم للموت فى سبيل الايذاء .
لقد عبر عن حقدهم بقوله : (لقد جشم الأعداء ورد نفاسة) فالتجشم
لايكون الا فى أمر جد صعب ، اضافة الى عقده مقارنة بين الحسد وممارسته
وبين تزاحم الناس على مورد الماء وتقاتلهم عليه ، وكثيرا مايفتضح مايجفيه
الحساد من حقد وبغض دفين ، رغم حرصهم على اخفاء مشاعر الحقد يظهر
ذلك من قوله :

وكم ظهرت بعد استتار مكانها

شناة خباها كاشح فى ضلوعه

ويرى أن الحسد مرض ووباء مميت لمن تمكن منه ، حيث أنه يحس
بحدوث الخير قبل أن يقع ويحزن له .

وأخيرا يوجه الشاعر سؤالاً للحساد فى أسلوب تقابلى جميل ، مفاده ،
مالذى يجوز لكم الحسد والحقد، تجاه من أحسن وعمل على نشر الخير
والاحسان؟

ثم ان تفشى السر الذى كان مكتتزا بين أضلعهم ، أظهر مدى مايعتمل فى النفوس من حقد ، وان كانت هناك فئة منهم ، كانت تنظر الى فشل أولئك الحساد . واذا كان الحساد والحاقدون قد دأبوا على اخفاء حسدهم وحقدهم ، كما عرفنا عند كثير من الشعراء ، فاننا نجد أن الحال قد تغيرت عند الشريف الرضى ، حيث أضحى الحقد والحسد مجاهرا بهما، فى حين لم يعد للود والمحبة مكان ، بل أصبحت حياته كلها حقدا وحسدا ، يقول :

وحولى من هذا الأنام عصابة

توددها يخفى وأضغانها تبدو (١٥٣)

وبامعاننا النظر فى هذا البيت يظهر لنا مدى ضيق نفس الشاعر ، وتبرمه من الناس . فقد صور الشاعر نفسه ، وكأنه فى معركة أحاط به الأعداء من جميع الجوانب ، فى صورة تم عن استفحال الشر وعدم قدرة الشاعر على الخلاص منه ، لاحكامهم قبضتهم واحاطتهم به احاطة السوار بالمعصم .

ويتحدث أبو العلاء المعرى عن تأصل الحسد فى النفس الانسانية ، فيقول :

فينا التحاسد معروف ، فهل حسدت

مجترة الابل أخرى ، مالها جرر

ماشرة من خليل النفس واحدة

لابل توافيك من تلقائه شرر (١٥٤)

فى أسلوب سلس وتصوير جميل ، يعترف المعرى بتأصل الحسد فى بنى آدم وانتفائه عن البهائم . فقد ضرب لنا مثلا حسيا ، بقوله : (فهل حسدت مجترة الابل أخرى مالها جرر؟) .

(١٥٣) ديوانه ٣٣٣/٢ .

(١٥٤) اللزوميات ٧٥٢/٢ ، ٢٢١،١٠١/١ ، ٧١٦،٥٦٣/٢ .

أما سورة الحسد التي ينطوى عليها الحساد ، والمتمثلة في ايدائهم لأصدقائهم ، كلما واتتهم الفرصة ، فقد عبر عنها الشاعر بقوله : (مباشرة من خليل النفس واحدة) اذا فهو يتوقع من الصديق أن يزل مرات ومرات. فتقدمه الجار والمجرور يدل على قصر خلق الحسد على الناس ، الذين استشرى فيهم الحسد وتعمقهم ، لأن هذا التقديم يفيد الاختصاص ، ولذلك أثبت الحسد للانسان ونفاه عن البهائم .

ولما كان من الصعب ارضاء الحساد ، والاقتصاص منهم ، فقد لجأ ابن نباتة السعدي الى الله للاقتصاص منهم ، فهو القادر على أخذ هؤلاء الحساد بجريرتهم ، يقول :

طلب الله بالضغينة قوما

حبسونا بمنزل جعجاع

أكلوا جارهم من اللؤم والدق

ة (١٥٥) خرصا (١٥٦) وماهم بجياع

وأرادوا به البديل فباعو

ه بوكس والمجد غير مباع

ليتهم خولوا من الزهد والعف

ة ماخولوا من الأطماع (١٥٧)

(١٥٥) الدقة : دقة بالكسر ، الأمر الغامض القليل الخير .

القاموس المحيط (دقة) .

(١٥٦) الخرص : بتسكين الراء المهملة ، الكذب ، وتحريكها الجوع ، وهى هنا بمعنى

الكذب . اللسان (خرص) .

(١٥٧) ديوانه ٥٢٦/٢ ، وانظر نفس المصدر ٢٦/٢ .

يصور الشاعر ممارسات الحساد في صور تم عما يعتمل في نفسه من قهر وضيق ، معبرا عن ذلك بقوله : (حبسونا بمزل جعجاع) فالحبس فيه تقييد للحرية ، و مما زاد قهرهم ، وآلامهم ، المكان الذى كان من الضيق والخشونة ، بحيث لا يستقر بهم مقام .

بالاضافة الى حشده كثيرا من الصفات الذميمة ، كالغيبة والنميمة واللؤم والكذب ، التى يرى أنها تتمثل جميعها فيهم ، يقول :

أكلوا جارهم من اللؤم والدقـ

ة خرصا وماهم بجياع

فقوله : (أكلوا...) اشارة الى الآية الكريمة {أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه} (١٥٨). فقد قرن الحديث عن الناس ، ونقل الأخبار الباطلة عنهم ، بمثابة اقدام المرء على أكل لحم البشر ، الذى تأباه النفس ، لاسيما اذا كان ميتا ، ليدل بذلك على بشاعة ما اقترفه الحساد ضدهم.

غير أن الحساد عندما أقدموا على صنيعهم ذاك ، انما كانوا يرمون من ورائه الى الانتقاص من المحسود ، ذى المجد ، وما علموا أن المجد ليس سلعة تباع ، لكنه اكتساب مشروع تحكمه العلاقات الحميدة والايتار واقالة العثرة .

فى ذم اللحية والخضاب (١٥٩):

اللحية علامة من علامات الوقار ، ان لم تكن علامة على تقوى الله ،
ولذا فان صدر من ملتج مايتنافى مع الورع والتقوى ، كان ذلك أشنع من
صدوره من غير الملتجى . لذا فتجاوز بعض المسلمين الملتحين فى أمور الدين
كان موضوعا لنقد عنيف من الشعراء ، اتسم بالعمق والحدة ، رغم حساسية
الاثارة وحرص الموقف . ولعل أول مآثر الشعراء هو عدم الأخذ من
اللحية . لقد نظر يزيد ابن مزيد الشيبانى الى رجل ذى لحية عظيمة ، وقد
تلففت على صدره ، فاذا هو خاضب ، فقال : "انك من لحيتك فى
مؤونة" (١٦٠).

ان عدم الأخذ من اللحية ، والالتزام بالشكل الجميل ، أثار اهتمام
الشعراء ، يقول ابن الرومى :

لحية أهملت فسالت وفاضت

فاليها تشير كف المشير

مارأتها عين امرىء مارآها

قط الا أهل بالتكبير

روعة تستخفه لم يرعها

من رأى وجه منكر ونكير (١٦١)

(١٥٩) اللحية : بالكسر : شعر الخدين والذقن جمع لحي ولى . القاموس (اللحية) .
أما الخضاب ، فهو : ما يخضب به من حناء ، وكم ونحوه ... الخضاب ، ما يخضب
به . اللسان (خضب) .

(١٦٠) الكامل للمبرد ٦٥٣/٢ .

(١٦١) منكر ونكير : فتانا القبور . أى لصا القبور . القاموس والمحكم (نكر) .
وقيل نكير اسم أحد الملكين اللذين يقال لهما : منكر ونكير ، والله أعلم أو هو
اسمهما ، أم من صفتها . الجمهرة (نكر) .

فاتق الله ذا الجلال وغير
منكرا فيك ممكن التغيير
أو فقصر منها فحسبك منها
نصف شبر علامة التذكير
لو رأى مثلها النبي لأجرى
فى لحنى الناس سنة التقصير
واستحب الاحفاء فيهن والحد
ق مكان الاعفاء والتوفير (١٦٢)

لقد أثارت اللحية المهملة الاستهجان فى نفس الشاعر ، فأخذ يصور
مراحل تكوينها ، فعدم الاكتراث بها من قبل صاحبها ، كان السبب فى
اهمالها ، مما نتج عنه الزيادة فى طولها ، وهذه الزيادة بلغت حدا كبيرا لم
يعد مقبولا ، حيث أضحت معلما بارزا يشار اليه ، فقد أكد الشاعر استنكار
الجميع لمنظرها المزرى ، يقول : "مارآها قط الا أهل بالتكبير" ، هذه العبارة
مشحونة بمشاعر السخرية والاستهزاء ، لحد الانهيار ، غير أن الفرق جد كبير
بين الأمرين ، ففي الحالة الأولى بشاعة منظر اللحية وعدم استساغته أدى الى
استنكاره ، بشكل مشوب بالذهول ، أما الحالة الثانية فالاهلال بالتكبير فيه
تعظيم واجلال يليق بعظمة الخالق .

ثم عقد مقارنة حسية بين ماتبعته تلك اللحية البشعة من خوف شديد
يفوق ماتحدثه رؤية "منكر ونكير" . وهذه المقارنة بعثت الحركة والحيوية فى
اللحية .

وبعد الخوف الشديد والاستهجان فى نفس الوقت ، تغلب على الشاعر
النزعة الدينية ، يقول : "فاتق الله ذا الجلال ..." ، فهذه العبارة دائما

ما يطلقها المتدينون ، اذا حزبهم أمر أو لم يرق لهم ، أو كان مخالفا للمعتقد فقد جعل من تقوى الله تغيير ذلك المظهر المزرى للحيية ، الذى خلع عليه صفة المنكر . ثم نقل الحديث عن اللحية الى صاحبها ، حيث أخذ يبين له أنه لا يطلب منه شيئا مستحيلا ، ولكنه يطلب أمرا باستطاعته الاضطلاع به ، فهو يجيره بين التغيير والتقصير ، موضحا المقدار الذى ينبغى أن تكون عليه اللحية ، يقول : "فحسبك منها نصف شبر" ، كما يرى الشاعر أن الغرض من اللحية هو مجرد التفريق بين الرجل والمرأة .

وأخيرا يقرر أن النبي صلى الله عليه وسلم لو رأى مثل تلك اللحية لأمر باحفاؤها وحلقها ، بدل الاعفاء والتوفير .

ففى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باحفاء الشوارب ، واعفاء اللحية" (١٦٣)

وأخيرا نلاحظ من خلال تعبيره عن تلك اللحية فى البيتين الأخيرين ، أنه اشترط الرؤية نظرا لما تبعثه ، وما تحدثه من آثار فى النفس ، وبالتالي يصدر الحكم بعد تأمل وترو .

ويرى ابن لنكك أن اللحية بهذا الشكل لاتعدو كونها مشاركة شكلية فى الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية ، يقول :

لاتخدعك اللحية ولا الصور

تسعة أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشرا

وليس فيه لطالب مطر

فى شجر السرو منهم مثل

له رواء وماله ثمر (١٦٤)

(١٦٣) مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى ، ومعالم السنن لأبى سليمان الخطابى ١٠١/٦ .

(١٦٤) اليتيمة ٣٥٠/٢ .

بدأ الشاعر أبياته بـ"لا" الناهية ليدلل على مدى معرفته بالناس ، وفي نفس الوقت يظهر سخريته منهم ، حيث خلع على أكثرهم الصفة البهيمية ، يقول : "تسعة أعشار من ترى بقر" اذا فاللحية عنده مظهر من مظاهر الجهل والغباء .

ولكى يماثل بين تلك اللحي والصور ، في عدم الاحساس ، عمد الى الواو لافادتها التشارك . ولم ينفك يتحدث عن أصحاب اللحي ، الذين جعل اللحية رمزا لهم ، فهم لاغناء فيهم ، ولاتدل مظاهرهم على مخابريهم ، يتضح ذلك من خلال عقده للتشبيه ، بينهم وبين السحاب الكاذب ، غير الممطر ، وتشبيه التمثيل في قوله : "في شجر السرو منهم مثل" . فالشاعر بهذين التشبيهين ، أكد أن المظهر لا يدل بالضرورة على المخير .

أما أبوهلال العسكري فيرى أن الجهل والحمق سمة من سمات أصحاب اللحي الكثيفة ، يقول :

قل للمدل^(١٦٥) بلحية موفورة

وسماد لحية كل أحي جهله

لا يعجبك طول بندك^(١٦٦) انه

من طال لحيته تكوسج^(١٦٧) عقله^(١٦٨)

(١٦٥) المدل بكسر الميم : الخفي ، الشخص القليل الجسم .. المدل ، بفتح الميم : الخسيس من الرجال . اللسان (مدل) .

(١٦٦) البند : الذي يراد به علم الجيش ، فليس بالعربي الصحيح .
انظر : الجمهرة ٣٠٢/١ ، المعرب للجواليقي ص ١٢٥ .

(١٦٧) الكوسج : الذي لاشعر على عارضيه ، وقيل الناقص الأسنان .. ويبدو أن الشاعر يريد به نقص عقل صاحب اللحية الطويلة .

انظر : المحكم ٤٢١/٦ ، المعرب ص ٣٣١ .

(١٦٨) ديوانه ص ١٨٣ ، ص ١٥٠ .

ينصب حديث الشاعر في هذين البيتين على من يهمل لحيته، ويتركها دون أن يأخذ منها ويجملها . فهو يرى أن طول اللحية ، فيه دلالة على جهل صاحبها .

يبدو من تعبير الشاعر ارتباطه بالأرض والزراعة ، يظهر ذلك من قوله "وسماد ..." فالسماد من مستلزمات خصوبة الزراعة ووفرته . لقد ضرب الشاعر هذا المثل الحسى ليدلل على أن طول اللحية وغزارتها ، لا يتأتى الا للجهلاء ، وذوى العقول الناقصة . فقد أكد نقص عقل المخاطب بقوله : "انه من طال لحيته ..."

لقد كانت اللحية الطويلة ، مدار الحديث في البيتين السابقين، فقد كررها ثلاث مرات ، لما فيها من دلالة على جهل حاملها ، فقد عبر عن ذلك الجهل بقوله : "وسماد ... جهله، تكوسج عقله" .

كما يظهر تأثر الشاعر بالألفاظ الفارسية المعربة ، من خلال قوله : "بندك ، تكوسج" .

والطول الناتج عن الإهمال قرين القبح ، ومظهر الحماسة ، لأنها في تجاوزها للشكل المقرر ، أصبحت علامة على الدروشة ، يقول أبو جعفر البحاثي :

يا لحيه قد علقت من عارضى

لا أستطيع لقبحها تشبيها

طالت فلم تفلح ولم تك لحيه

لتطول الا والحماسة فيها

انى لأظهر للبرية حبها

والله يعلم أننى أقلبها (١٦٩)

يعبر الشاعر عن حالة نفسية يمر بها ، فقد جعل محور حديثه يدور حول اللحية ، فقد بدأ حديثه بـ "يا" النداء - المفيدة للتقبيح - وأتبعها بكلمة "لحية" حيث جعل منها انسانا يسمع ، ثم أكد شدة قربها منه ، بقوله "قد علقت من عارضى" نلاحظ من هذه العبارة أن اللحية ليست ماينبت على الذقن فحسب ، بل هى أيضا ماينسدل ويتدلى على العارضين . ويبدى تضجره منها نظرا لقبحها ، ومايبعثه منظرها من اشمئزاز ، أعجب الشاعر أن يجد له نظيرا فيشبهه به ، بقوله : "لا أستطيع لقبحها تشبيها".

وأنها وان طالت ، فليست ذات غناء ، ولافائدة ترجى منها ، يقول : "طالت فلم تفلح" ، ويبدو أن الشاعر كان يأمل من وراء اطلاقها أن تكسبه حمدا ووقارا أو تسعفه فى تسنم مركز اجتماعى ، لكنها خيبت أمله ، مما دعاه لوصمها بالحماقة ، يقول : "... ولم تك لحية لتطول الا والحماقة فيها". اذا فياس الشاعر جعله ، يعد طول اللحية مظهرا من مظاهر الحمق . فبشاعة اللحية كانت مبعثا للسخرية من ناحية ، وأسلوبا رمزيا معادلا لكثير من المعانى المنافية لروح الاسلام ، كالنفاق ، الذى أفصح عنه فى البيت الثالث . فالشاعر يظهر حب اللحية ، وهو فى نفس الوقت يحفى مقتته وكرهه لها . وأخيرا نتساءل لماذا يحفى الشاعر كرهه للحى؟ ويجمل بنا أن نجيب عليه ، فنقول لعله كان يحشى من أن يتهم بالخروج عن العرف المتبع والمألوف ، ومن ثم تقدير ذوى اللحية ، لما تمثله من رمز دينى وحشمة ووقار .

واذا كان عدم الأخذ من اللحية قد أثار مشاعر الاستياء والسخرية ، ممن يطلقونها ، فان هناك من يذم خروجها على الاطلاق ، لأنها تنبىء عن تحول صاحبها من حياة متفتحة الى أخرى قائمة ، فمن نبتت لحيته فكأنما قد انتقب بالديجور بعد النور فدولة حسنه قد دالت وأعرضت أيامه ، وانقرضت

دولته وأحكامه . استحال خده دجا ، وزمرد خطه سبجا ، وأخمدت نار
حسنه بعد الايقاد ، ولبس عارضه ثوب الحداد" (١٧٠)

لعل ذم ظهور اللحي للمرد يعود لافتتان كثير من الناس في العصر
العباسي بالغلمان ، يقول السرى عن المرد الذين نبتت لحاهم :

لكل شيء حسن آفة

وآفة المرد نبات اللحي

ياغصنا لما اكتسى نضرة

وابتسم النور عليه ذوى

أحلك الشعر محل القلى

وفل من جفنيك سيف الفنا

كسوف أقمار الدجا شنعة (١٧١)

فكيف ان حل بشمس الضحا

من سودت لحيته خده

مات وان لم يك رهن الثرى (١٧٢)

اقرن حديث الشاعر عن اللحية بذكر المرد ، وهذا يدفعنا للاعتقاد
بأنه لم يذم اللحية على وجه العموم ، ولكنه يذمها لدى المرد فقط ، ولعل
الشاعر ممن يهتمون بالمرد ، كعادة غيره من أبناء المجتمع آنذاك .

لقد نعت المرد بالحسن والجمال ، غير أنه جمال يفسده نبات لحاهم ،
حيث يغلب سواد الشعر على جمالهم الفائق فيحجبه . ولكى يوضح تلك
الصورة أخذ يضرب مثلا حسيا ، حيث تحدث عن الغصن الممتلىء نضارة
وحيوية ، ذو الأزهار المتفتحة ، الذى لا يلبث أن يذوب ويفقد نضارته .

(١٧٠) زهر الآداب ٧٣٢/٢ .

(١٧١) الشناعة : الفظاعة . والاسم : الشنعة . اللسان (شنع) .

(١٧٢) ديوانه ٢٩١/١-٢٩٢ ، وانظر نفس المصدر ٣٠٩،٢٥٠/٢ .

ونتيجة لظهور ذلك الشعر ، فقد أصبح ذلك الأمرد مكروها ، وأيضا أفقده مضاء جماله ، الذى كان يسلب به قلوب المفتونين به . ويعود ليضرب مثلا حسيا آخر ، لكى يعزز به مذهب اليه من قبح منظر الأمرد ، الذى أدى الى النفور منه ، حيث حدثنا عن أثر كسوف القمر ، وهو يأتى والناس يخلدون للراحة والدعة ، لكنه يتساءل عما يحدثه خسوف الشمس فى وضخ النهار . فالشاعر وهو يرمز الى الأمرد بالشمس فى توهجها وضياؤها ، يريد أن يبين ، مدى تأثير ظهور الشعر على الأمرد ، الذى يفوق فى قبحه والاشمئزاز منه ، مشاهدة كسوف القمر وخسوف الشمس ، وطبعى أن الحرمان من اشباع الرغبة وممارسة المخالفات ، جعلت الشاعر يحكم على من ظهرت لحيته بالموت حيا . نظرا لفقده جماله ونضارته والاقبال عليه .

لقد نحا الشاعر فى حديثه عن اللحنى منحى آخر ، فهو لم يكن ينتقدها لأنها طويلة ، أو مشاكل ذلك ، لكنه يقلبها لأنها أفقدته نضارة فتاه وهذه عادة سيئة من عادات ذلك العصر .

لم يرق ظهور الشيب لبعض الناس ، وهو كما يقول الشاعر من المفاخر فى الاسلام . يقول بديع الزمان :

والشيب فى الاسلام حسبك مفخرا

فى عارضيك فلاترع لبياض (١٧٣)

ورغم أن الخضاب مظهر من مظاهر التزييف والخداع فى بعض الأحيان الا أن الاسلام قد أباحه ، لما له من أثر نفسى يتولد عن توهم الجمال ، بل أمر به ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود والنصارى" (١٧٤).

(١٧٣) ديوانه ص ٩٣ ، وترع وردت فى الديوان "تدع" وهو تحريف والصواب ما أثبتناه (١٧٤) شرح السنة ٨٩/١٢ .

لذلك يلجأ من تحول لون شعره الى البياض ، الى الخضاب ، يقول
الجاحظ :

ان حال لون الرأس عن حاله

ففى خضاب الرأس مستمتع

هب من له شيب له حيلة

فما الذى يحتاله الأصلع (١٧٥)

يجلب تحويل لون الرأس من البياض الى اللون القاتم - عن طريق
الخضاب - متعة لدى من له شعر وافر ، لكن ماذا يصنع الأصلع حتى يخفى
صلعته؟

يبدو أن الشاعر يرمى الى معنى ، رمز اليه بالخضاب والصلع ، وهو
أن هناك من يحسن التخلص والتضليل مما يقترفه من أعمال مشينة ، وفي
المقابل ينكشف الذى يعدم الحيلة للتخلص مما يقترفه .
وقد يعمد المرء الى الخضاب من أجل اشباع نزوته ، يقول يزيد
المهلبى :

صبغت الرأس ختلا للغوانى

كما غطى على الريب (١٧٦) المريب

أعلل (١٧٧) مرة وأساء (١٧٨) أخرى

ولاتحصى من الكبر الذنوب

(١٧٥) شعراء بصريون ص ٨٨ .

(١٧٦) الريب المسك والتهمة . الجمهرة ٣٣٢/١ .

المريب : أراب الرجل : صار ذا ريبة فهو مريب . اللسان (ريب) .

(١٧٧) التعلة العلالة : ما يتعلل به .

وفي حديث عاصم بن ثابت : ما علمتى وأنا جلد نابل؟ أى ما عذرى فى ترك الجهاد

ومعى أهبة القتال ، فوضع العلة موضع العذر . اللسان (علل) .

(١٧٨) أساء : أساء الشئء : أفسده ولم يحسن عمله . اللسان (سوأ) .

أسوف (١٧٩) توبتى خمسين عاما

وظنى أن مثلى لايتوب

يقوم بالثقاف (١٨٠) العود لدنا

ولايتقوم العود الصليب (١٨١)

لجأ الشاعر الى خضب شعر رأسه ، ليخدع به الفاتنات ، وهو يبنى نفسه بالتوبة والعزوف عن الغوانى . وقد سلك أسلوب التشبيه للتعبير عن هذا المعنى ليبين انتفاء الفائدة من ذلك الخضاب ، اضافة الى الريبة والشك الذى يصاحب ذلك الخضاب ، كما تتضح النزعة الدينية التى تعتمل فى نفس الشاعر ، والتى لم يوفق فى الالتزام بها ، وردع نفسه عن مهاوى الرذيلة ، رغم المدة الزمنية الطويلة التى لم يستطع الوازع الدينى خلالها من التغلب على صботه ، فقد عبر عنها بقوله : "أسوف توبتى خمسين عاما ..."

ولكى يقطع الأمل فى رجعتة وانضوائه تحت لواء الحق والعدل ، ضرب لذلك مثلا حسيا ، وهو أن العود طالما كان غضا لدنا ، فانه يسهل تقويمه ، أما اذا يبس ، فيستحيل تقويمه ، تماما كحال الشاعر بعد أن كبر ، وقد شب على الغواية ، فمن الصعب اصلاح ما عوج ، بعد أن تمكنت منه الغواية ، يقول :

يقوم بالثقاف العود لدنا

ولايتقوم العود الصليب

ويتحدث كشاجم عن اللحية المخضوبة ، وقد بدأ الخضاب يزول عنها

أو زال . فقال :

(١٧٩) السوف : الصبر ، وسوفت الرجل أمرى تسويفا أى ملكته . اللسان (سوف) .

(١٨٠) الثقاف : حديدة تكون مع القواس والرماح ، يقوم بها الشىء المعوج .
اللسان (ثقف) .

(١٨١) شعراء عباسيون ص ٢٤٠ .

ياخاضب الشيب والأيام تظهره

هذا شباب لعمر الله مصنوع

أذكرتني قول ذى لب وتجربة

فى مثله لك تأديب وتوزيع

ان الجديد اذا مازيد فى خلق

تبيين الناس أن الثوب مرقوع (١٨٢)

يبدو أن خيال الشاعر قد طاف به ، وهو يتملى الكون ، حيث امتزج خياله بخبرته المعرفية ، فالشيب لم يكن وليد اللحظة ولكنه كان نتاج سنوات عديدة ، بل انه نتيجة حتمية لامناص منها . لذلك فمهما حاول الخاضب أن يعيد النضارة والشباب والحيوية ، فى الظاهر ، بفعل خضب الشعر ، فلن يستطيع أن يكفل الشباب والحيوية ، بل ان ماقام به لايعدو أن يكون تزييفا مصنوعا لاغناء فيه .

واضح أن الشاعر قد توجه بمحدثه الى خاضب الشيب ، حيث بدأ بـ(ياء) النداء لما لها من أثر فى شد انتباه الخاضب ، لكى يعمل فكره ، فيما سيحدثه به الشاعر . فقد كان السبب فى أن يتذكر الشاعر قول المجرب اللبيب ، وفحواه أن كل شىء يزداد لايمكن بأى حال أن يندمج مع سابقه ، دون أن يكون هناك رتق بينهما . وفى هذا دعوة للخاضب ، بأن يعود الى مخزونه المعرفى ، فحتما سيجد فيه مايبين له خطل ماقام به .

لقد اتجه الشاعر فى توضيح ذلك الى التأكيد بأن ، وحرصه على توضيح ماتذكره من أقوال المجربين ، بضربه مثلا حسيما ، حيث يقول : "تبيين الناس أن الثوب مرقوع" فالثوب اذا حدث فيه خرق ، فان رقعته بالجديد مهما كان دقيقا ، لايمكن اخفاؤه ، فلايلبث الشيب أن يظهر .

الخضاب لاينفى ما يظهره الواقع الفعلى من حقائق ، بله المبالغة فى التلون به ، لاتبرز الا الزائف من الأصيل ، يقول الشريف العقيلي :

أيامن غدا يعنى بحال خضابه

ويجمع من أخلاقه كل مظلم

اليك فما تحظى بوصل مليحة

إذا كنت تلقاها بوجه مسخم

وهبه أتى منه شباب مزور

أترضى شبابا تشتريه بدرهم (١٨٣)

بدأ الشاعر بـ"أيا" لكى ينبه المخاطب ويشده لسماع استهجانه له ،
جراء عنايته بخضاب شعره. ويبدو أن المخاطب كان يخضب شعره بالسواد
المخالف لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام :
"ان أحسن ماغير به الشيب : الحناء والكتم" (١٨٤).

يتضح من تعبير الشاعر أنه عد خضاب لحية المخاطب ، من التزييف
والخداع ، لأنه لايمثل الحقيقة ، وأيضا قرن بين خضابه وبين أخلاقه ، حتى
يصل الى اتهام المخاطب بالنفاق . ثم ينفى في استهجان ، أن تكون عنايته
بالخضاب ستكسبه القرب من الصبايا الحسنوات ، طالما أنه قد سخم وجهه
بالسواد .

ويضرب أسوأ الاحتمالات في أنه لو أحكم صناعته ، وظهر بمظهر
الشباب المورق ، فهل يرضى في قرارة نفسه بشباب قيمته بضع دريهمات؟
واضح أن المخاطب انما عمد الى خضب شعره ، كى يحظى بوصل
الحسنوات ، غير أنه لم يوفق في ذلك .

ولقد أفاد أسلوب الالتفات في ابراز المعنى وتجليته .

لقد منح الشاعر نفسه صلاحية الحكم على المفسدة الداخلية لانسان
ذلك العصر ، فهذا أبو العلاء يحكم باقتراف الظلم من قبل المزيفين ، فيقول :

(١٨٣) ديوانه ص ٢٦٨ ، ص ٢٥٦،٧٨ .

(١٨٤) شرح السنة ٩١/١٢ .

من يخضب الشعرات يحسب ظالما
ويعد أخرق كالظليم الخاضب
والشيب فى لون الحسام فلاتدع
جسد النجيع على الحسام القاضب
عمرى غدير كل أنفاسى به

جرع تغادره كأمس الناضب (١٨٥)

تتجلى قدرة الشاعر ، وتملكه لناصرية الشعر ، فى هذه الأبيات ، من خلال توليده للمعانى ، فقد عد من يخضب الشعر فى زمرة الظالمين ، وفى استهجان ظاهر شبهه بذكر النعام وقد تملكته الشهوة ، التى يدل عليها احمرار ساقى الظليم ، وهنا تتضح غلبة الشهوة والسفه على من يخضب شعره اذا فالخضاب فى نظر الشاعر يدل على الصبوة والحرص عليها .

ثم ماثل بين بياض الشيب وبياض الحسام الناصع ، بجامع البياض فى

كل .

ويمكننا أن نستخلص من هذه الأبيات ، أن الخضاب لا يمكن أن يوقف تقدم السن ، أو يعيد نضارة الشباب مرة أخرى ، فالعمر فى نظر الشاعر كغدير يتناقص ماؤه شيئا فشيئا حتى ينضب ، بتوالى الجرعات التى هى الأنفاس . وهذه صورة فريدة سبق إليها أبو العلاء المعرى فيما أعلم .

فى الجبن وقصر الهمة (١٨٦) :

الجبن ضد الشجاعة والاقدام . فهو من الخصال الذميمة التى ياباها الكرام من الناس .

لقد حفلت هذه الظاهرة باهتمام الشعراء فى العصر العباسى ، فقد أخذ الشعراء يعرضون بأولئك الجبناء وقصيرى الهمة ، عن طريق الحديث عن الشجاعة أمام الموائد ، وعند الجلوس مع الأقارب فى أوقات السلم ، وعن عدم دراية أولئك الجبناء بعواقب الأمور .

ولم يغفل الشعراء الحديث عن التواكل والخنوع الذى أضحى سمة من سمات الجبناء .

فعلى سبيل الهزل والضحك ، يتحدث القاسانى عن جنبه ، حيث حصر اقدمه وشجاعته - التى تفوق شجاعة الشجعان - أمام الأكل وهو يلتهمه بشراهة ، يقول :

أرى فى النوم رمحا أو سنانا
فأسلح فى الفراش على مكانى
ولكنى المبارز حين أدعى
الى أكل العصيدة والفرائى
وما عمرو هناك أشد منى
ولا العبسى عنتره الطعان
ولا زيد الفوارس حيث أدنو
فألقي بالكلاكل والجران

(١٨٦) الجبان من الرجال : الذى يهاب التقدم على كل شىء ، ليلا كان أو نهارا .
اللسان (جبن) .

أما قصر الهمة : فقصرت فى الأمر تقصيرا ، أى توانيت .

الجمهرة ٧٤٣/٢ .

ترانى عندها لينا نغيرا
اذا ما اصطك منى الماضغان
أشد على الخبيصة لأبالي
بأى جنوبها وقعت بنانى
وكم طبق رددت وليس فيه

من البقل المحصل حبتان (١٨٧)

هذه ظاهرة جديدة ظهرت فى العصر العباسى ، قل أن نجد لها مثيلا فى العصور السابقة ، ظاهرة عدم الحرص على الاتصاف بالشجاعة ، وعدم الاستحياء من الاتصاف بالجبن . فالشاعر هنا يتحدث عن نوع معين من الشجاعة اتصف به ، وهو شجاعته على الموائد لافى المعارك الحربية . وربما يكون هذا راجعا الى أن الجهاد أصبحت له طبقة خاصة تنقطع له وهى طبقة الجند .

ومن ناحية أخرى فان الحرص على المال اشتد فى هذا العصر حتى أن بعض الناس كان يوفر المال بكل وسيلة ، بما فى ذلك التطفل على موائد الناس ، حتى أن الطفيليين أصبحوا من الكثرة فى العصر العباسى ، بحيث شكلوا ظاهرة تحدث عنها الشعر العباسى كثيرا .

اذا فالنفس الأبية ، تأبى الذل والخنوع والجبن ، وتتوق الى الحرية والتعبير عما يجتليج فى نفسها . ونخلص الى أن الجبن وقصر الهمة ، ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى تناولها الشعر بالنقد والتحليل .

يقول دعبل بن على الخزاعى عن الجبناء :

أسود اذا ما كان يوم وليمة

ولكنهم يوم اللقاء ثعالب (١٨٨)

(١٨٧) ديوان المعانى ٢/٢٥٠ .

(١٨٨) شعره ص ٥٥ .

في مقابلة جميلة تحدث الشاعر عن الجبناء المتخاذلين مبينا ما يظهرونه في وقت الرخاء ، وفي المواقف التي تتطلب المتعة والوجاهة ، من شجاعة واقدام - وهي مقابلة ربما يكون قد أخذها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الى الأنصار ، حين قال : "انكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع"^(١٨٩) - لكن ذلك المظهر لا يلبث أن يزول كالغمامة وهي تنقشع دون أن تظفر ، بل تتبخر كل تلك الوعود والشجاعة التي يتفوهون بها . لقد عبر عن مظهر الشجاعة بالأسد ، لما يمثله من قوة وبأس ، وعلى النقيض من ذلك شبه الجبان بالثعلب الماكر ، الذي يختلق الحيل في حال وقوعه في مأزق .

والشاعر بهذا صور مهجوه في حالتين ، حاله وهو يتأهب للأكل ليشبع نهمه وحرصه على ابتلاع أكبر كمية من الطعام ، في شراهة منقطعة النظر ، أما حاله الأخرى ، فهي يوم يجد نفسه ، في موقف لا يحسد عليه ، يوم ملاقات الأعداء ، للدفاع عن النفس والحياض ، حيث لا يجد بدامن أن يهتبل الفرصة لكي يفر لعدم قدرته على قراع الخطوب .

ولا يلبث الجبان أن تنكشف حقيقته اذا جد الجد ، يقول ابن الرومي :

رأيتكم تبدون في الحرب عدة

ولا يمنع الأسلاب منكم مقاتل

فأنتم كمثل النخل يظهر شوكة

ولا يمنع الجرام ما هو حامل (١٩٠)

عمد الشاعر للحديث عن الجبناء الى التشبيه ، الذي ساوى فيه بين العاقل والنبات . فقد تساويا في عدم القدرة على الدفاع عن النفس . ولقد كان لتصويره المنتزع من البيئة ، أثره في ترسيخ صورة الجبناء ، فالقوة

(١٨٩) الكامل للمبرد ٢/١ .

(١٩٠) ديوانه ٢٠١١/٥ .

والعدة التي يجتمون بها ، ليست ذات غناء ، تماما كشوك النخل ، لم يحل بين ثمره وجامعيه ، وفي هذا وهن وأى وهن .

يرمز الشاعر بهذه المقارنة الى استهجانه وسخريته بالجبناء .
وإذا كان الجبان بصفة عامة محل مقت ونفور ، فمقته أكبر اذا اتصف بالجهل ، اضافة الى جنبه ، لذلك يحذرنا أبو العلاء المعرى من الاقتراب من الجبان الجاهل ، فيقول :

فلاتدن من جاهل آهل (١٩١)

لو انتزعت خمسه مادرى

أبى سيفه قتل أعدائه

وساف (١٩٢) وليدته أوهرا (١٩٣) (١٩٤)

ينهى الشاعر عن الاقتراب من الجبان الجاهل ، الذى يعيش بين أهله ، وقد عبر عنه فى أسلوب ينم عن السخرية والاستهزاء فى قوله : " لو انتزعت خمسه مادرى " . فى هذه الجملة اشارة لشدة فرقه وتبلد احساسه عند اللقاء ، حتى أن قواه جميعها لاتستطيع الوقوف فى وجوه الأعداء ، نلحظ ذلك من خلال أسلوبه الاستعارى فى قوله : " أبى سيفه قتل أعدائه " . وزيادة فى الاستخفاف والسخرية من الجبان الجاهل ، يفصح الشاعر عن مايمارسه من استعراض لقوته وقدرته على الضعيفات من امائه ، تلك القوة التى لم يكن ليجرؤ أن يقابل بها الأعداء . وهذا ما حدا بأبى العلاء الى النهى عن معاشرة الجبان الجاهل ، حيث أن الشرفاء تأبى عليهم نفوسهم التخلق بمثل تلك الأخلاق التى يتصف بها ذلك الجبان .

(١٩١) آهل : له أهل . القاموس المحيط (أهل) .

(١٩٢) ساف : ساف المال يسوف ويساف : هلك . القاموس (سوف) .

(١٩٣) هرا : هراه هر وتهراه : ضربه بالعصا . القاموس (الهرأوة) .

(١٩٤) اللزوميات ٧٩/١ ، وانظر نفس المصدر ٤٧٧/١ .

ونخلص الى أن الجبن سلوك تأباه الهمم العالية ، المعتدلة في همتها وحرصها ، ولنعلم "أن الجبن مقتلة ، وأن الحرص محرمة" (١٩٥). ولهذا فالطريق الى الحياة الحرة الكريمة ، لايتأتى الا لمن يملك الشجاعة لمجابهة الأعداء ، ورد الظلم ، يقول أبو بكر رضى الله عنه : "أحرص على الموت توهب لك الحياة" (١٩٦). وكثيرا ماكان بعض الشعراء العرب - على مر العصور - يتغنون بالأجاد وينبذون الاستكانة والانهزام (١٩٧).

يقول المتنبي فيمن قصرت همته من الناس :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده (١٩٨)

لم يكن الناس على وتيرة واحدة من الهمة واستشراف المجد . فنجد القادة والفرسان الذين يشرفون بما يقدمونه لأمتهم وأنفسهم من تضحيات تكسبهم الحمد من الجميع ، وعلى النقيض من هؤلاء ، نجد من تأصل فيهم الخنوع وقصر الهمة ، والرضى باليسير من العيش ، والاكتفاء بالدور المتواضع بين أبناء المجتمع . ان من هذه همته ، فقد ارتضى لنفسه أن يعيش أبد الدهر بين الحفر .

(١٩٥) الأدب الكبير ص ٩٧ .

(١٩٦) بهجة المجالس ٤٦٦/١ .

(١٩٧) يقول امرؤ القيس فى علو الهمة .

فلو أن ماأسعى لأدنى معيشة

كفانى - ولم أطلب - قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثـل

وقد يدرك المجد المؤثـل أمثالى

انظر ديوانه ص ٣٩ .

(١٩٨) ديوانه ٢٣/٢ .

وفي موضع آخر يقول :
من يهن يسهل الهوان عليه

مالجرح بميت ايلام (١٩٩)

واضح من كلام الشاعر أن من تأصلت فيه الذلة والخنوع ، فلن يضيره شيء ، وهذا يعني أنه قد فقد الاحساس ، وبالتالي فقد دوره المنوط به في هذه الحياة.

فلم يعد يحفل بأى شيء ، ولا يؤثر فيه شيء أيضا ، فهو كالميت الذي لم يعد يحس بما يجري لجسده بعد مفارقة نفسه له . ان هذه المماثلة الحسية ، كان لها وقعها في النفس لما فيها من استهجان بهذا الخانع ، الذي لم تنفع معه كل الوسائل التي من شأنها انتشاله ، وبعث الحياة فيه ، ولكن هيهات لمن هذا ديدنه .

ويفصح ابن وكيع عن قناعته بالخمول والاستكانة ، فيقول :

لقد قنعت همتي بالخمول

وصدت عن الرتب العاليه

وما جهلت طعم طيب العلا

ولكنها تؤثر العافيه (٢٠٠)

لقد تمكن منه الخمول وقصر الهمة ، يتضح ذلك من تأكيد قناعته باليسير من المكانة الاجتماعية ، وهذا يبرز لنا حالة الشاعر النفسية التي لم تتق الى الطموح ، وتسم المناصب العالية ، التي ينشدها كثير من الناس ، ولعل للشاعر عذرا ونحن نلومه . فقد أوضح في البيت الثاني أنه لم يكن

(١٩٩) ديوانه ٩٤/٤ .

(٢٠٠) ابن وكيع (شاعر الزهر والخمر) ص ١٠٠ .

يعزف عن المكانة الرفيعة ، لجهل منه ، ولكنه يخشى من الوقوع فهو يدرك أن الطلوع واستشراق الأماكن العالية مخوف بالمخاطر ، لذلك آثر أن يبقى في مكانه خشية أن يقع ، ويبدو أن هذه الخشية افراز لما كان سائدا في تلك الحقبة من تنصيب وعزل ، بل ونكبة في بعض الأحيان ، لكثير ممن تسنموا المناصب العالية .

كما يتضح من تعبير الشاعر أنه رمز الى نفسه بالهمة ، لما لها من دلالة نفسية ، يغوص من خلالها الى دلالة عميقة ، تبين بشكل واضح ماتكنه نفس الشاعر .

ولم يجانب البحترى الصواب في ذمه للفتيان ووصفه اياهم بالأراذل ، حين قال :

وأكثر فتیان الزمان أراذل

موازينهم فی السرو غير ثقال

إذا كلفوا للمجد حسوة طائر

أطالوا الونى من سامة وکلال (٢٠١)

لقد وصمهم الشاعر بانتفاء المروءة والشهامة وقصر الهمة ، يتضح ذلك من المماثلة الحسية التي عقدها بين قصير الهمة والطائر ، حيث قرن مايقومون به من جهد ضئيل ، بما يحتسيه الطائر من الماء بمنقاره ، بجامع القلة والضعف في كليهما .

وبناء على ضعفهم وقصر همتهم ، فانهم عند أدنى مهمة ، يظهر واضحا مدى تدمرهم وترددهم عن القيام ، بما يوكل اليهم من مهام ، مهما كانت سهولتها .

ويعزو الأحنف العكبرى الذلة ، الى قلة مافي اليد لدى سراة القوم ،
وكثرته بيد الأندال فقال :

عشت فى ذلة وقلة مال

واغتراب فى معشر أندال

بالأمانى أقول لابلمعانى

فغذائى حلاوة الآمال

لى رزق يقول بالوقف فى الر

أى ورجل تقول بالاعتزال (٢٠٢)

يصور الشاعر حياته المعذمة ، التى تعاورت عليها ، عدة أمور أفضت
به الى الذلة والخنوع .

فنظرا لقلة مافي اليد والشعور بالغرابة وسط الأراذل وكونه يعيش بين
قوم أندال ، فقد أحبطت همته ، وقضى على طموحه ، مما جعله يقصر
نجاحه وتفوقه على الأمل .

فالأمل وحده هو الذى بقى للشاعر بعد أن فقد الخلاص من الذلة
التى عاشها ويعيشها ، وهذا يعنى أنه أسلم نفسه للخنوع والذلة .

وأخيرا يبين تردده فى اتخاذ القرار المناسب ، أيرضخ للأمر الواقع؟ أم
يتزع القناع ويشمر عن ساعد الجد؟ معبرا عن ذلك بـ"الرأى .. والاعتزال"
حيث لم يقصد بهما المذاهب الدينية ، وان كان قد ورى بذلك ، ولكنه أراد
بهما المعنى اللغوى ، أى التوقف عن ابداء الرأى واعتزال الناس .

ويرى ابن الحجاج أن الذلة تتمثل فى التبعية العمياء ، حيث يقول :

ان الملوك اذا هم اقتتلوا

أصبحت فيهم كلب من غلبا

فلذاك أسكر غير مكترث

وألف مع خيشومى الذنبا (٢٠٣)

يشير الشاعر الى النزاعات المحتدمة بين الملوك ، مؤكداً ذلك بأداة التوكيد "ان" وموضحا انخيازه الى جانب الغالب ، بل نصب نفسه محاميا عنه .

ثم يسخر من نفسه ويستتهجنها ، لمدافعتها عن الغالب بخلع صفة الكلبية عليها ، حيث قال : "أصبحت فيهم كلب من غلبا" ، ثم ان خضوعه وقبوله الالهانة ، جعلته يقترف الأعمال المشينة ، غير عابىء بما يترتب عليها ، ولم يعد يهتم بالقيم والمنافحة عنها ، بل ألف العيش فى ذل وهوان ، اذ يقول "وألف مع خيشومى الذنبا" .

واضح أن الشاعر يرمى من وراء تعبيره "أصبحت فيهم كلب من غلبا" الى كونه أصبح بلا ارادة ، ينجر خلف الغالب تماما كالكلب وهو يتبع صاحبه أنى ذهب . كما وضع ما بلغه من الذلة والهوان ، فمن عادة الكلب اذا ذل لصاحبه أن يقارب بين أنفه وذنبه .

ويرى الشريف العقيلي أن الهوان كل الهوان ، يتمثل فى تناول

الضعيف ، القليل القدر على علية القوم ، فيقول :

ووضع يقاوم الشرفاء

ويناوى الملوك والكبراء

ساحلى يغدو به الهجو أرضا

كلما راح بالهجاء سماء

ذل شعري في عرضه بعد عز

فكأنى به هجوت الهجاء (٢٠٤)

يتضح من خلال هذه الأبيات ماتنطوى عليه نفس الشاعر من استعلاء
وأنفه ، فهو يرى أنه في هجائه للوضيع - كما يراه - قد امتهن الهجاء نفسه
فكأنه في هجوه له قد هجا الهجاء .
ويبدو أن مكانة الشاعر الاجتماعية ، جعلته يغلظ في حديثه عن
مادعاه بالوضيع .

أما الخباز البلدى فيدعو الى مسايرة الأوضاع ، فيقول :

ياذا الذى أصبح لاوالد

له على الأرض ولاوالده

قد مات من قبلهما آدم

فأى نفس بعده خالده

ان جئت أرضا أهلها كلهم

عور فغمض عينك الواحده (٢٠٥)

بدأ الشاعر أبياته بـ"ياء" النداء ، لكى ينبه المخاطب ، ويذكره بالموت
الذى لامفر منه . ولكى يسليه أكد موت سيدنا آدم عليه السلام ، ثم أخذ
يشحذ ذهنه ، بطرح تساؤله عليه ، عمن يخلد على هذه الحياة ، ويبدو أن
الشاعر أراد أن يماثل بين الموت وبين الخنوع وقصر الهمة ، لذلك طلب من
المخاطب الاستكانة ومسايرة الأوضاع ، واظهار البلاهة ، وهذا ينبىء عن
تشاؤمه لانتفاء الفائدة من قبلهم .

ومن أهم الملامح الفنية التى بنى الشاعر حديثه عليها ، المقابلة ، فقد
قابل بين "الوالد" وبين "الوالدة" ، وبين "مات" و"خالدة" .

(٢٠٤) ديوانه ص ٤١-٤٢ .

(٢٠٥) شعره ص ٣٠-٣١ .

الفصل الثالث

للوقبال على لماويان والحرص على

ولماه

الاقبال على الماديات

والحرص على المال

- (١) أثر المال فى العلاقات الاجتماعية .
- (٢) البخل .
- (٣) ظاهرة الكدية .

أثر المال فى العلاقات الاجتماعية :

لم يعد الوقار والنظرة الثاقبة والتروى فى الأمور التى تحدد مكانة الشخص بين أفراد مجتمعه ، بل بقدر مايملك من مال .
ولعلنا لانجانب الحقيقة اذا قلنا ان كثيرا ممن يملكون الدنانير الكثيرة لم يكونوا من ذوى رأى الصائب ، والنظرة الثاقبة ، والحنكة والدربة . بل نجدهم يتصرفون باستعلاء واضح ، يفرضه مايملكونه من مادة .
يقول المتنبي :

فلامجد فى الدنيا لمن قل ماله

ولامال فى الدنيا لمن قل مجده (١)

اذا فقلة المال تخفض كثيرا من الناس - رغم أحقيتهم بتبوء أعلى الرتب - ممن تشهد لهم مواقفهم بذلك .
وقد يرفع أرباب المال الى الدرجات العليا ، وهم غير مؤهلين لذلك الشرف والمكانة المرموقة ، لفقدهم مقومات الرفعة والعلو .
وهذه ظاهرة تتورط فيها المجتمعات التى تبلغ فى تطورها مرحلة الترف والثراء الواسع .
ويجمل بنا أن نقف على بعض النصوص الشعرية التى تناولت هذه الظاهرة .

فقد عزا عمارة بن عقيل الحصول على المكانة الرفيعة الى المال ، فقال :
ويرفع المال أقواما وان خملوا
ويرزأ الفقر أقواما وان كرموا
وقد رأيت رجالا اذ رأيتهم
خلوا مواريتهم للناس واخترموا

لم يحمدوا بالذى خلوا وراءهم

ولم يحوزوا به الا الذى اجترموا (٢)

يبين الشاعر كيف أن المال يكسب صاحبه حظوة ومكانة عالية ، حتى لو لم يكن صاحبه نشطا وعضوا فاعلا في المجتمع ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن العدم يقلل من منزلة المعدم حتى لو كان كريما ذا رأى حصيف . لقد كان لابتداء الشاعر أبياته بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار ، أثره في بث الحركة ، اضافة الى المقابلة الجميلة بين المال والفقر .

ثم انتقل الى الزمن الماضى ، ليزكرونا بذوى الثروة ، الذين ارتحلوا الى الدار الآخرة .

وفى هذادعوة من طرف خفى الى الانفاق فى أوجه الخير ، الذى يعود بالنفع على منفقها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

يتضح ذلك من تكرار أسلوب نفى الحمد والحصول على المكانة الرفيعة بعد الممات ، وقصر ذلك على الأعمال الصالحة التى اكتسبها فى الحياة . واذا كان عمارة بن عقيل يؤكد أثر المال فى تكوين المكانة الاجتماعية لمالكه ، فان أبا العيناء يذهب الى أبعد من ذلك ، فيجعل للمال قدرة على قلب الحقائق فى أعين الناس ، يقول :

من كان يملك درهمين تعلمت

شفتاه أنواع الكلام فقلا

وتقدم الفصحاء فاستمعوا له

ورأيته بين الورى مختالا

لولا دراهمه التى فى كيسه

لوجدته شر البرية حالا

ان الغنى اذا تكلم كاذبا
قالوا صدقت ومانطقت محالا
واذا الفقير أصاب قالوا لم يصب
وكذبت يا هذا وقلت ضلالا
ان الدراهم فى المواطن كلها
تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة
وهى السلاح لمن أراد قتالا (٣)

يتحدث أبو العيىاء فى أسلوب ساخر عن الموسر الذى يعتقد أنه ذو رأى صائب ، ينبغى الانصات له .

تظهر سخرىته منه فى قوله : " تعلمت شفتاه أنواع الكلام فقالا " . ففى هذه العبارة اشارة الى عدم الابانة والفصاحة ، وأن ما يتفوه به مجرد ثرثرة ، ولم يكن تقدمه على الفصحاء والبلغاء الا لما يملك من ثروة فقط ، ثم يؤكد أن هناك خلا اجتماعيا يتمثل فى أن الغنى اذا تحدث كذبا جامله القوم وأثنوا عليه وصدقوه ، واذا ماتحدث الفقير المعدم بالصدق حكموا بكذبه ، لالشىء الا لأنه فقير معدم .

ويؤكد أيضا أن المال هو كل شىء فى الحياة ، فهو بمثابة الرءاء الجميل الذى يخفى تحته ما لله عليم به .

وهو البلاغة كل البلاغة والسلاح الماضى أشد المضاء .
ويدلل أبو العلاء المعرى على مكانة صاحب المال ، بتفرق الناس عنه بمجرد خلو يده من المال ، فىقول :

إذا قلت فوائدنا جفينا
بذاك يزم^(٤) أينقه الخليط
ولم أوثر لمصباحى خمودا
ولكن خان موقده السليط^(٥)

تتجلى قدرة أبي العلاء المعرى - الخبير بأحوال مجتمعه ، البصير
بمجريات الأمور فيه - فى توليده للمعانى ، فى عبارات يفضح من خلالها
الاعجاب المزيف ، الذى سرعان ما انكشف بمجرد نفاذ المال .
فقد بدأ بأداة الشرط - مفخما نفسه باستعماله ضمير الفاعلين - وفى
هذا اشارة الى تجمع الناس حوله الآن ، أما اذا زال السبب فى تجمعهم فلن
يترددوا عن مقاطعته وجفائهم له ، ولعل جملة " يزم أينقه الخليط " تدل على
شدة ألم القطيعة .

وفى دعة وتسليم لعوادى الزمن ينفى أن يكون قد حبذ العدم على
اليسر ، مصورا ذلك فى أسلوب استعارى اعتمد فيه على الأمثلة المحسوسة -
وقد غير الضمير من المتكلمين الى المتكلم المفرد - حيث شبه نفسه بالمصباح
غير المضىء ، كما عبر عن خلو يده من المال بالزيت حين ينقطع عن الموقد
ولعل الشاعر ينفى بذلك اللوم عن نفسه ويلقيه على الوضع الاجتماعى .
ووصم منصور الفقيه الناس بالتبعية لأرباب الثروة ، وفيها ما فيها من
امتهان للقيم ، يقول :

الناس أتباع من دامت له النعم

والويل للمرء ان زلت به القدم

(٤) يزم : زم الشىء يزمه زما فانزم : شده . وزم البعير بأنفه زما اذا رفع رأسه من
ألم يجده . وزم الرجل بأنفه اذا شمخ وتكبر فهو زام . اللسان (زمم) .
وأينقه : وقد أنقت به أى أعجبت . الأساس (أنق) .
والمقصود : سحب الاعجاب المشبوه .
(٥) اللزميات ٩٨٦/٢ .

مالى رأيت أخلائى وخالصى
أساء مستكبر عنى ومحتشم (٦)
لما رأيت الذى يبدون قلت لهم
أذنبت ذنباً؟ فقالوا ذنبك العدم
والمال عز ومن قلت دراهمه
حى كما مات الا أنه صنم (٧)

يؤكد لنا الشاعر صدق مذهب اليه - عن طريق استخدامه أسلوب
القصر - بأن المال هو العز والرفعة لمن يملكه ، لما يحدثه من حركة وتفاعل
مع الحياة ، وقلته تعنى الجمود والثبات ، وعدم الحركة ، تماما كالصنم
المنصوب الذى لا يتحرك ، اضافة الى انتفاء الافادة منه .

ومادام أن المال هو المحرك ، فقد وصم الشاعر الناس بالتبعية لما فيها
من ايماء لترسم خطأ أرباب المال ، دون وعى أو تمحيص ، بمعنى أنهم
أضحوا مسلوبى الارادة ، ثم يشير الى حلول الشر بالمعدمين بمجرد حدوث
أى هفوة .

ويضرب لنا مثلاً بنفسه ، وقد تنكر له أخص أصدقائه والمهتمين به ،
بمجرد خلو يده من المال . ونتيجة لذلك التنكر ساوى بين المستكبر فى
اساءته اليه وبين من يهتم به ، باستخدامه أسلوب العطف فى قوله : "أساء
مستكبر عنى ومحتشم" .

وأمام ذلك لم يجد بدا من أن يطرح تساؤله عن هذا التحول السريع
الذى لم يكن يتوقعه وبخاصة ممن يجلونه .

جرت العادة أن يحتفل الناس بالأثرياء ويترلونهم فى غير منازلهم ،
غير أن جحظة البرمكى ، أخذ يتعجب من ثرى بليد العقل ، فقال :

(٦) محتشم : قال بعض العرب ، انه لمحتشم بأمرى أى مهتم به . اللسان (حشم) .

(٧) منصور الفقيه (حياته وشعره) ص ١٣٦ ، ص ١٢٥ ، ١٣٣ .

قلت لما رأيتَه في قصور

مشرفات ونعمة لاتعاب

رب ماأبين التباين فيه

منزل عامر وعقل خراب (٨)

يبدو أن التباين العجيب لفت نظر الشاعر ، فأخذ يتملى صنع الله في عباده ، وماأنعم به على أحدهم ، وهو لايستحق ذلك الانعام ، لعدم قدرته على التمتع به وتصريفه فيما يعود عليه بالنفع العميم ، وفي هذا اشارة الى حرمان من يتمتع برجاحة عقل وقدرة على تصريف الأمور - وربما عنى بهذا نفسه - وقد أشار الى الثراء بمظاهره ، من سكن فاخر ووفرة في النعم غير المعيبة ، بقوله : "في قصور مشرفات ونعمة لاتعاب" . ورمز الى المال ومايبعثه من حركة وحيوية بقوله : "منزل عامر" وفي المقابل عبر عن تبدل تفكير صاحب المال وخوائه ، وعدم قدرته على الاضطلاع بدوره في الحياة ، بقوله : "وعقل خراب" .

لقد وفق الشاعر في المقابلة بين عمارة المال وبين العقل الخراب ، لما فيها من اشارة الى قصور المال عن أن يحدث في العقل مايبعثه من حيوية وحركة في شتى مناحى الحياة . ويرى الشريف الرضى ، أن الجبان الملىء قد يتساوى مع الشجاع المعدم ، يقول :

قد يبلغ الرجل الجبان بماله

ماليس يبلغه الشجاع المعدم

لاتخدعن عنه فرب ضريبة

ينبو الحسام بها ويمضى الدرهم (٩)

(٨) جحظة البرمكى (الأديب الشاعر) ص ٢٧٥ .

(٩) ديوانه ٣٢٥/٢ .

بدأ الشاعر بيتيه بـ"قد" ليوحى بأن الوضع الصحيح خلاف ما يحكيه هو ، وأن وجود هذا الذى يحكيه ، يدل على شذوذ الأوضاع الاجتماعية . ورغم استخفاف الشاعر بالجبان الا أنه يحذر من الركون الى الدعة واستبعاد بلوغ الجبان بماله مبلغ الشجعان ، يظهر ذلك من قوله : "لا تخدعن عنه ..."

ويصف أحمد بن فارس المقيم الذين يقومون على خدمة الأغنياء بالحمق فيقول :

ياليت لى ألف دينار موجهة

وأن حظى منها فلس افلاس

قالوا: فمالك منها؟ قلت يخدمنى

لها ومن أجلها الحمقى من الناس (١٠)

يظهر لنا أن الشاعر فقير معدم ، بدليل تمنيه الحصول على ألف دينار حتى لو كانت موجهة ، ليست ذات غناء ، ليخدع بها الحمقى من الناس . فانتقاد الشاعر واستخفافه بعقول الناس فيه اشارة الى عدم استطاعتهم تمييز الغث من السمين أمام الاغراءات المادية . ولذلك كان لزعتة النفسية الأثر الكبير فى أن يتحقق ما تمناه ، حتى يسعد بامتتهانه اياهم .

ولم يكن الملوك بمنأى عن السعى وراء المال ، فقد يمتهنون أنفسهم من أجل الحصول عليه ، يقول مهيار الديلمى فى ذلك :

أذلهم الطلاب وعز وجهى

وضامهم الثراء ولم يضمنى

أحبوا المال فاعتبدوا ملوكا

وماكل العبيد عبيد قن

تنفخت الحظوظ لهم فظنوا

ورام البطن يسمن وهو يضنى (١١)

بدأ الشاعر أبياته بالذل لما فيه من اهانة وتحقير وما يترتب عليه من تصغير ، وفي المقابل عبر بالوجه ليدل على أعلا مراتب العز ، حيث أن الوجه يمثل أعلى ما يعتز به المرء . ثم عبر عن الألم الشديد بقوله : " وضامهم الثراء " وينفى أن يكون قد تألم لعدم وفرة المال بيده .

أما تملك المال لعقولهم وسيطرته على وجدانهم ، فقد صيرهم عبيدا ، وفي هذا إشارة لعدم قصور العبودية على العبيد الخالص - لقد أجاد الشاعر في تصويره لهذا المعنى في البيت الثاني .

كما عبر عن اقبال الدنيا عليهم بقوله : " تنفخت الحظوظ لهم ... " . لم يكن استقبالهم لها استقبال بصير فاحص ، تدل تصرفاته على رجاحة عقله ، بل كان مبنيا على الحدس والتخمين الذى جر عليهم الويل والحراب .

يظهر ذلك من قوله : " فظنوا ورام البطن يسمن وهو يضنى " ، فقد شبه المال فى أيديهم بورم البطن ، حيث أن ورم البطن لا يدل على السمن ، ولكنه مصدر قلق وتعب لمن يحمله .

ويلفت نظرنا فى هذه الأبيات اتكاء الشاعر على المقابلة ، ثم لجوءه الى التحسين المعنوى المتمثل فى الطباق بين أذل وأعز ، ضام ولم يضمنى . وكذا التدييج الذى كان له أثره الكبير فى اضعاف مسحة من الجمال على الأبيات ، ولانسى الدور الذى اضطلعت به الاستعارة فى البيت الأخير حيث وفق الشاعر فى تصويره لحال أولئك المخدوعين بالمال .

ويتعجب بديع الزمان ممن يحرم نفسه من التمتع بماله ، ونسى أو
تناسى أنه مهما طال به الأجل سيرحل ، ويترك ماجمعه من مال لمن بعده ،
وربما كان من يأتي بعده هو زوج امرأته ، فقال :

عجبا من رجل ذى سعة

تأخذ الأيام من منسأته

يحرس المال ولا يأكله

نظر البازى على مربأته

انما يجمع ما يجمعه

راغم الأنف لبعل امرأته (١٢)

يبدى الشاعر تعجبه من انسان ملء صرفته ثروته عن التفكير فى
حياته وقوته التى تتناقص يوما بعد يوم ، وقد أشار الى ذلك بقوله : "تأخذ
الأيام من منسأته" ، مكنيا بذلك عن طول أجله الذى يتناقص يوما بعد
يوم .

وقد جعل همه وغاية مطلبه الحفاظ على المال والذود عنه مترقبا الانتقضاض
عليه من كل جانب ، وما علم هذا المحروم أن هذا المال سوف يؤول لورثته
وهو صاغر ، وزيادة فى الاستخفاف به قال :

انما يجمع ما يجمعه

راغم الأنف لبعل امرأته

وهذا يعنى أن ماله الذى حرم نفسه منه سيتمتع به زوج امرأته الذى سيقترن بها بعد رحليه .

فالشاعر وهو يبدى تعجبه من صاحب الثروة المحروم منها ، يشير الى تناقص قوته التى رمز اليها بقوله : "تأخذ الأيام من منسأته" ، فالأخذ من الشىء يعنى نقصه بالضرورة . وقد أحسن الشاعر عندما قارن بين صاحب المال المحروم من التمتع به ، وبين طائر البازى وهو يرقب من مربأته ، فالمال بين يدى صاحبه لكنه بعيد لعدم تمتعه به ، وكذلك البازى لم تسعفه حدة نظره بالفوز بصيده .

ويظل العدم مصدر قلق وعدم رضا لكثير من الناس حتى لو كان المعدم من العلماء الأفاضل ، يقول أبو الفتح البستي :

بكت اذ رأتنى من حلى المال عاريا

ومن حلل الآداب والعلم كاسيا

وقالت وقد أذرت جمانا جفونها

أمثلك يلقى بالخصاصة راضيا

تعزى فشر من خلاء خزانتي

من المال أن أمسى من الفضل خاليا

على المرء نيل العلم فهو يحظه

وليس عليه أن ينال الأحاطيا (١٣)

يتضح لنا مدى التباين بين نظرة المرأة ونظرة الشاعر تجاه المال ، فهى ترى كغيرها أن السعادة والشرف والعلو لاتأتى الا بالحصول على المال ، أما الشاعر فيرى أن الفضل كل الفضل فى العلم .

(١٣) أبو الفتح البستي (حياته وشعره) ص ٣٣٠ ، ديوانه ص ٢١٧ .

ثم صور حال المرأة وهي تتحدث وقد عز عليه اكتئابها وحزنها الذي تحدثت عنه قطرات الدموع الناصعة البياض وهي تنساب من جفنيها ، وفي هدوء ممزوج بالحزن تتساءل : "أملك يلقى بالخصاصة راضيا؟" . وازاء تلك المشاعر التي تفيض بالحزن عليه ، يطلب منها أن تتجلد بالصبر ، فما تظنه نقصا في حقه فلا يراه شيئا ، اذا ما قوبل بالفضل والعلو .

وأخيرا يوضح رأيه فيما يجب أن يفعله المرء من حرص على التحصيل العلمى ، لأن يلهث خلف الأمانى من أجل عرض من الدنيا قليل .
ويجمل بنأ أن نشير الى بعض اللمحات الفنية التي تضمنتها أبيات أبي الفتح البستي ، حيث نجد المقابلة في البيت الأول وتكرار الفعل الماضى في البيتين الأول والثانى ، والتصدير في البيت الأخير .

ويعد ابن المعتز الثروة شرطا أساسيا في تولى الرئاسة ، يقول :

اذا كنت ذا ثروة من غنى

فأنت المسود فى العالم

وحسبك من نسب صورة

تخبر أنك من آدم (١٤)

بدأ الشاعر بيتيه بأداة الشرط ، مشيرا الى أهم شرط لتولى الرئاسة وتسم الرتب العليا ، وهو المال . ولم يعد ينظر الى الأصل وكرم المحتد من حسب ونسب ، فقد انتهى دوره ، وليس يلزم للمرء الا صورة الآدمية التي تثبت نسبته لآدم ، وأن المعول عليه المال وحسب ، لتسم المناصب العليا . ويرى أبو الطيب المتنبي أن المجد لا يتأتى الا بالمال ، فكلاهما متمم ومكمل للآخر ، يقول :

وأتعب خلق الله من زاد هممه
وقصر عما تشتهى النفس وجده
فلا ينحلل فى المجد مالك كله
فينحلل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجد كفه
إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلامجد فى الدنيا لمن قل ماله

ولامال فى الدنيا لمن قل مجده (١٥)

مما يلفت الانتباه فى صياغة هذه الأبيات تكرار لفظة "المجد" ولعلى
لأعدو الحقيقة إذا قلت أن هذه اللفظة تدل على ما تنطوى عليه جوانحه من
طموح لم يتحقق له لاصطدامه بالواقع . لكنه أدرك أن قلة المال هى العقبة
الكأداء والحاجز الذى يحول بينه وبين تحقيق طموحاته .
لذا نجده ينهى عن تبديد الثروة ويأمر بتدبيرها .
ويضرب لنا مثلاً حسياً عن طريق المقابلة بين المجد والمال ، حيث رمز
للمجد بـ "الكف" ورمز للمال بـ "الزند" ، فالكف لا يمكن أن يشتد عودها
وتؤدى دورها الا بالزند ، فهو الذى يحركها وهو مصدر قوتها ، وفى المقابل
نجد أن المجد لا يكتمل ولا يضطلع بما نيط به من مهام الا بالمال حيث أنه هو
الذى يثبت دعائمه ، ويبعث فيه الحركة والحيوية .

البخل (١٦) :

تحدث كثير من الأدباء والمفكرين عن هذه العادة السيئة . يقول الجاحظ : "وليس عجبي ممن خلع عذاره في البخل ، وأبدى صفحته للذم ، ولم يرض من القول الا بمقارعة الخصم ، ولامن الاحتجاج الا بما رسم في الكتب ، ولاعجبي من مغلوب على عقله مسخر لظهار عيبيه ، كعجبي ممن قد فطن لبخله ، وعرف افراط شحه ، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه ، ولربما ظن أن قد فطن له ، وعرف ماعنده ، فموه شيئاً لايقبل التمويه ، ورقع خرقة لايقبل الرقع (١٧) .

لقد عالج الشعر هذه الظاهر في هذه الفترة ، موضحاً صور البخل وسلوك البخلاء ، في بناء فني متسق مع الموضوع .

فعن انتشار البخل بين الناس ، يحدثنا أبو الفتح البستي ، فيقول :

هل منعم في الناس أو مفضل

يرغب في الشكر وفي الذكر

يجود بالقيراط من بره

ويأخذ القنطار من شكرى

كلا وقد غاب الندى والسدى

ومات أهل الفضل والقدر

وأصبح الناس ومافيهم

حر الى أكرومة يجرى

ماشئت من مال ومن ثروة

ومن عديد وافر دثر

(١٦) البخل والبخول : ضد الكرم . اللسان (بخل) .

(١٧) البخلاء ص ٣ .

لكنهم من ضيق أخلاقهم

فى أضييق العسرة والفقير

والمال مالم يحوه عاقل

أضييع من عقد بلانحر (١٨)

بدأ الشاعر أبياته بأداة الاستفهام "هل" باحثاً عن كريم سخي ، يقبل
عثرته ، ولقناعته بعدم وجود ذلك الكريم المفضل ، أجاب على نفسه بالنفى
قائلاً : "كلا وقد غاب الندى والسدى" . فكلا تفيد انتفاء الكرم الذى عبر
عنه بقوله "وغاب" ، فالغياب يعنى عدم الحضور وبالتالي انتفاء الكرم ،
ويرد ذلك بقوله "ومات" فالموت يعنى الذهاب الذى لاعودة منه ، وفى
هذا اشارة الى انقراض ذوى الفضل والكرم والمزلة الرفيعة .

لم يكن اقلعهم عن الكرم بسبب قلة مافي اليد ، بل يعود الى شح
مقيت ، رغم ما يتمتعون به من الثروة الطائلة ، التى أكدها الشاعر بتكراره
عدد من الألفاظ التى تدل على الكثرة مثل : "ثروة ، عديد ، وافر ، دثر" .
ويعزو ذلك اليبس الى ما يعتمل فى نفوسهم من أفكار ضيقة ، جعلتهم
يدورون فى حلقة مفرغة ، مما جر عليهم البؤس والفقير .

ثم استدرك على الأثرياء قصور أخلاقهم وحنقهم بالرغم مما يتمتعون
به من نعم ، مستخدماً أسلوب المبالغة فى قوله : "فى أضييق العسرة والفقير"
ليبين شدة الضيق الذى يعانون منه .

وأخيراً يؤكد عدم اضطلاع المال بدوره المنوط به ، بمقابلة حسية ،
حيث قابل بين المال فى يد من لم يحسن التصرف فيه ، وبين عقد ثمين لدى
الصائع .

فالمال لا ينبض بالحياة الا اذا كان بجوزة عاقل يعرف كيف يصرفه ،
وكذا العقد لا يكتمل جماله الا بتقلد الحسنة له ، فكلاهما يكمل الآخر .

ويصور عمارة بن عقيل ما يلاقيه الضيف من جوع ونصب بالصفراء ،
ويذم أهلها لبخلهم ، فيقول :

ترى الضيف بالصفراء تغسق عينه

من الجوع حتى تحسب الضيف أرمدا

بها كل تنبال (١٩) كأن جبينه

قفاه اذا ما استنتج الضيف أخمدا

قصير يد السربال لم يسر ليلة

لنهب ولم ينقل الى الضيف مرفدا (٢٠)

ولم يهد جيشا نحو جيش ولم يقد

الى السلف الغادى نصابا مفأدا (٢١)

بدأ الشاعر أبياته بالفعل (ترى) - وكأني به يريد أن يقول : من سمع
ليس كمن رأى - ويدلل على الحال المشاهدة للأضياف وهم يتضورون جوعا
بـ"الصفراء" بكلمة "تغسق" على مظاهر الجوع التي تظهر ملاحظها على عين
المعدم ، الذي بلغ منه الجهد ، مبلغا لم يستطع معه طرد الذباب المتساقط على
عينيه ، وكنى عن بخل سكان الصفراء بقصر القامة ، فقصورهم عن اكرام
الضيف كقصر قاماتهم ، يقول :

بها كل تنبال كأن جبينه

قفاه اذا ما استنتج الضيف أخمدا

(١٩) التنبال : القصير . اللسان (تبل) .

(٢٠) المرفد : الرغد وهو القدح الضخم الذي يقرى فيه الضيف . اللسان (رغد) .

(٢١) ديوانه ص ٤٠ .

ومفأدا : اذا شوى اللحم فوق الجمر فهو مفأد وفئيد . اللسان (فأد) .

يبدو واضحا تأثر الشاعر ببیت الأخطل الذى يقول فيه :

قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم

قالوا لأهمهم : بولى على النار (٢٢)

يجسد الشاعر بخلهم من خلال قوله : " بولى .. " فى صورة تشمئز منها النفس ، كما يظهر لنا الدور الذى لعبه أسلوب التشبيه ، الذى ساوى بين الجبين والقفى ، الذين عبر بهما الشاعر عن " الكرم والبخل " ، حيث أن الجبين رمز للكرم وفضائل الأخلاق ، والقفى فيه اشارة الى البخل والترك . وبهذا التشبيه تساوى الجبين والقفا ، أى لم يعد هناك من يقوم باكرام الضيف ، بل يتوارون اذا نما الى علمهم وجود الضيف .

كما عبر عن بخل ذلك التنبال بـ "قصير يد السربال" فقصركم السربال قصد به القصور أى "البخل" وعدم بلوغ المأمول .

ويؤكد الشاعر خلو التنبال من الفضائل والشجاعة والكرم ، عن طريق تكرار النفى .

أما الباخرزى ، فان بخله يعمد الى قفل بابيه ، بخلا على الطعام ، يقول فى ذلك :

قد قفل الباب بقفل له

من بخله خوفا على الأرغفه

وقال: ان أطعمت منها امراً

لبابة انى كثير السفه

وطول الشارب كى لاترى

اذا تغدى حركات الشفه (٢٣)

(٢٢) ديوانه ٦٣٦/٢ .

(٢٣) ديوانه ص ١٣١ .

اتكأ الشاعر في هذه الأبيات على الزمن الماضي ، فقد بدأ أبياته بالفعل الماضي "قفل ، قال ، طول" . وأظهر تأكده من سلوكيات البخيل ، وتحققه منها من خلال صياغته ، حيث نجد الفعل "قفل" أتى تالياً لـ "قد" ، كما أكد بـ "ان" في قوله "انى كثير السفه" .

أما كزازة البخيل فقد كنى عنها الشاعر بقوله : "قفل الباب بقفل له" فالقفل هو أداة المنع . ويبدو من الجار والمجرور "له" أن للبخيل طريقة خاصة يستعملها في قفل بابه ، اضافة الى ما وصف به نفسه من السفه والعى في قوله :

وقال : ان أطعمت منها امراً

لبابة انى كثير السفه

فهذا دليل آخر على شدة بخله .

ثم يضرب لنا مثلاً حسيماً فيه استخفاف بالبخيل الذى يعمد الى تطويل شاربه ، حتى ينفى تحته حركات شفثيه عند الأكل لئلا يراه أحد . ونلمس في صياغة هذه الأبيات حرص الشاعر على الموسيقى الداخلية ممثلة في تكراره لحروف بعينها مثل "الفاء" كما في قفل ، قف ، خوفا ، الأرغفة ، السفه .

وتكراره لحروف متقاربة في المخرج ، كالسين والشين ، في "السفه ، الشارب ، الشفة" .

ويرى دعبل أن الكريم هو الذى ينفق في حال اليسر والعسر معا ، فذلك يدل على كرمه ، والنأى به عن البخل ، وفي هذا اشارة الى عدم اعتبار من يقتصر كرمه على الجدة ، والسعة من الكرماء ، يقول :

لئن كنت لاتولى يدا امرة

فلست بمول نائلا آخر الدهر

فأى اناء لم يفض عند ملئه

وأى بخيل لم ينل ساعة الوفر

وليس الفتى المعطى على اليسر وحده

ولكنه المعطى على العسر واليسر (٢٤)

أول مايلفت انتباه القارئ لهذه الأبيات ، تلك المقارنة التي عقدها الشاعر في أسلوب استفهامي بين الاناء وقد ملئ وبين البخيل ، وقد أفاء الله عليه بالنعم الوفيرة . بحيث يفيد هذا الاستفهام الانكارى فيما يسن من مجارى الزيادة لافادة الآخرين . وعلى الرغم من ثبوت هذه الحقيقة في الشرع والواقع ، فان الشاعر يؤكد باللام مع "ان" الشرطية على عدم البذل والعطاء الذى كنى عنه بـ"يدا" .

لقد عمد الشاعر الى النفي والايجاب لكى تتحقق المقابلة بين البذل وقت اليسر وبين العطاء على الحالين .

ومن صور البخل ، تقديم الطعام الردىء للضيوف ، ولهذا أخذ الحمدوى يسخر ممن يقدم ذلك الطعام ، فقال :

أنا بخبز له حامض

شبيه الدراهم فى حليته

يضرس آكله طعمه

وينشب فى الحلق من خشنته

إذا ماتنفست عند الخوان (٢٥)

تطائر فى البيت من خفته

فنحن جلوس معا كلنا

ندارى التنفس من خشيته (٢٦)

(٢٤) شعره ص ١٥٧ .

(٢٥) الخوان : الخوان والخوان : الذى يؤكل عليه . معرب . اللسان (خون) .

(٢٦) ديوانه ص ٧٨ .

يسرد لنا الشاعر قصة تقديم أحد البخلاء الطعام له ولرفاقه مشبها الخبز بالدراهم في استدارتها ورقتها .

ثم صور مرحلة أكل ذلك الخبز تصويرا ، جعلنا نتفاعل معه ، فنتخيل تضرس الأسنان بفعل الحموضة ، ووقوف الطعام في الحلق لحشونته ولعدم وجود ما يستأدم به .

ومع كل تلك الصفات التي تقلل من قيمة ذلك الخبز ، نجد الشاعر يصور هياتهم وهم يحيطون بالخوان ، والحذر يتملكهم من أن يتنفسوا لئلا يتطاير الخبز من الخوان فيحرمون منه ، وفي هذا إشارة الى شدة حاجتهم للأكل ، وخفة ذلك الخبز الذي بلغ الغاية في الرقة وقلة الوزن .

كما اتكأ على الزمن الماضي موظفا في ذلك أسلوب السرد القصصي ، جذبا للسامع وتشويقا له .

وامتهانا للبخیل لجأ منصور الفقيه الى مقارنته بالكلب ، وتقديمه الكلب عليه ، فقال :

مابالبخیل انتفاع

والكلب ينفع أهله

فنزه الكلب عن أن

تري أبا البخل مثله (٢٧)

عقد الشاعر مقارنة حسية بين البخیل وبين الكلب ، حيث نفى الانتفاع من البخیل ، وفي المقابل أثبتته للكلب . وبناء على هذه النظرة النفعية ، نجد أن الكلب أنفع من البخیل ، ولهذا نزهه وأجله عن أن يكون مثله ، واحتفل به وقدمه على البخیل .

في هذه المقارنة امتهان أى امتهان للبخيل ، الذى فضل الكلب عليه ،
لما عرف عن الكلب من ايثار ووفاء .
وتحدث ابن الرومى عن ازدياد بخل البخيل ، كلما زادت ثروته ،
فقال :

اذا غمر المال البخيل وجدته

يزيد به يبسا وان ظن يرطب

وليس عجيبا ذاك منه فانه

اذا غمر الماء الحجارة تصلب (٢٨)

استخدم الشاعر في تصويره الأسلوب المجازى حيث عدل بكلمة
"غمر" عن معناه الأصيل الى معنى مجازى بقوله : "اذا غمر المال البخيل".
كما أنه لم يبعد في تصويره عن البيئة ، فقد انتزعه منها ، حيث عقد
مماثلة بين البخيل والصلب من الحجارة ، فالبخيل يزداد بخلا كلما زاد ماله
، وكذا الحجارة تزداد صلابة كلما غمرها الماء .
فكثرة المال يقابلها غزارة الماء ، ويبس البخيل يقابله صلابة الحجارة ،
وبهذا يتضح لنا انتفاء الافادة من البخيل ، لأن البخل طبع مركب فيه ،
لا يتغير ببسار أو اقتار .

ويرى العطوى أن العار كل العار فى البخل من قبل الثرى ، يقول :

ماالفقر عار انما الـ

عار الثراء والبخل (٢٩)

يظهر واضحا نفى الشاعر العار عمن يتصف بالفقر ، وفى نفس الوقت
يؤكد بل ويحصره فى الثرى البخيل ، بتكراره كلمة "العار" .

(٢٨) ديوانه ١٥١/١ .

(٢٩) شعراء بصريون ص ٤٥ .

وفي مبالغة تم عن شدة البخل ، وتأصله في البخلاء ، يتحدث
البحترى ، فيقول :

لا يعجبك قوم أنت بينهم

فلست منهم على عين ولا أثر

الباخلون بماء المزن نشربه

والشاربون دواء البخل بالسحر (٣٠)

بدأ الشاعر بيتيه بلا الناهية ، لينبه المخاطب الى عدم جدوى من يظن
أنهم ذوى غناء ، وفي نفس الوقت ينفى اهتمامهم به ، معبرا عن ذلك بقوله
"فلست منهم على عين ولا أثر" وهو تعبير عن نفى كونه منهم كلية.

وعبر عن عدم جدواهم رغم ما يملكون من ثروة بقوله : "الباخلون
بماء المزن نشربه" ، فماء المزن يدل على وفرة الثروة بأيديهم ، أو ربما رمز به
الى ضمنهم حتى بما تجود به السماء من مطر ، وللمحافظة على مجلهم والبقاء في
منأى عن الكرم ، فانهم يعمدون الى شرب دواء البخل وقت السحر ، حتى
لا يصيبهم داء الكرم ، فينفقوا أموالهم . يقول : "والشاربون دواء البخل
بالسحر" .

في هذه العبارة جعل الكرم داء ، لكن ما الدواء؟ هل هو سلوك معين
وتخطيط يحاك في الخفاء؟ أم أنه اخفاء للثروة والتظاهر بالعوز .

من العلامات البارزة الدالة على البخل ، التعبيس وعدم البشاشة ،
يقول الشريف الرضى في ذلك :

أرى وجوها وأيماناً مقفلة

فمغلق البشر منها مغلق الجود

معبسين لئلا يحدثوا طمعا

للسائلين ولا يوفوا بموعود

نوالهم بين صعب النيل ممتنع

بالمطل أو مستخس (٣١) القدر (٣٢) مردود (٣٣)

لما كانت الرؤية آكد من السمع ، فقد بدأ الشاعر أبياته بالرؤية ،
وأخذ يضرب لنا الأمثلة المحسوسة ، لما لها من أثر يفوق التصوير الخيالى .
ففى حديث الشاعر ما يوحى بشدة يبس الذين يراهم ، يقول : "أرى
وجوها وأيماننا مقفلة" ، وقد جعل - مجازا - للوجوه والأيدى أبوابا توصل .
يبدو فى ظاهرها العبوس - الذى ينم عن البخل - حتى يكون ذلك مدعاة
لعدم طلب النوال منهم .

ويعزو صعوبة الحصول على نوالهم ، بل امتناعه الى المطل والتسويق
أو رداءة مصدر غناهم ، يتضح ذلك من قوله : "أو مستخس القدر مردود".
وباعادة القراءة نجد أن الشاعر قد واءم بين المعنى والألفاظ ، وفى
نفس الوقت لم يغفل التحسين اللفظى .

ويتحدث الشريف العقيلي عن شيوع البخل بين فئات المجتمع ، فيقول
بلوت بنى الدنيا فلم أر فىهم

سوى من غدا والبخل ملء ثيابه

فجردت من غمد القناعة مرهفا

قطعت رجائى منهم بذبابه

فلاذرا يرانى قائما فى طريقه

ولاذرا يرانى جالسا عند بابيه (٣٤)

(٣١) المستخس : الدون . القاموس (الحس) .

(٣٢) القدر : الغنى واليسار . اللسان (قدر) .

(٣٣) ديوانه ٤٠٢/١ .

(٣٤) ديوانه ص ٧١ .

يعبر الشاعر عما يعتمل في نفسه تجاه الناس ، الذين وصفهم بـ "بني الدنيا" فضيقه بهم كان نابعا من معرفة تامة بهم ، يظهر ذلك من قوله "بلوت" الدالة على الاختبار والتمحيص .

أما تعمق البخل وتأصله في نفوس بني الدنيا ، فقد كنى عنه بقوله :
 "... والبخل ملء ثيابه". أى شديد البخل والشاعر هنا يقصد المبالغة والتأثير في نفس السامع واثارة خياله ، ولذا فقد عقد العزم على مقاطعتهم .

وقد تحدث عن ذلك في أسلوب استعاري يرمى من ورائه الى التشخيص ، حيث جسم المعنوى "القناعة" وجعله محسوسا كما لجأ الى التجسيد أيضا عن طريق اسناد الفعل "قطع" الى "الرجاء" ، حيث جعل الرجاء شخصا يقطع بالسيف .

ولعله يريد أن يبين سرعة قطعه صلته بهم .

ومما يؤكد ذلك ويشد الانتباه اليه التردد في البيت الثالث ، وما يحدثه من مفارقة بين القيام والجلوس .

ان الاتصاف بشدة البخل ، يبعث الشك وعدم التصديق بالكرم ، يقول مهيار في ذلك :

لا يضحك الأيام كذب مطامعي

الا اذا طالبتها بصديق

بخلوا بما وجدوا فلو قدروا لما

وجدت لهاة^(٣٥) أن تبل بريق

ويئست حتى لو بصرت بنارهم

لقرى شككت وقلت : نار حريق^(٣٦)

(٣٥) اللهاة : اللحمية المشرقة على الحلق أو ما بين منقطع أصل اللسان الى منقطع القلب من أعلى الفم . القاموس (لها) .

(٣٦) ديوانه ٢/٢٩٨ ، وانظر نفس المصدر ٣/١٥٨ .

استهل الشاعر أبياته بـ"لا" النافية لكي يجذب الانتباه ، وحتى يبعث الحركة والحياة في الأيام خلع عليها صفة من الصفات الآدمية وهي "الضحك".

وبعد نفيه الضحك عن الأيام ، اذا ما بدرت منه مطامع كاذبة ، أيا كانت تلك المطامع ، فانه يقصر ضحكها واستهزاءها على حالة واحدة وهي أن يطمع في أن يجد صديقا وفيها ، لتعذر وجود ذلك الصديق الوفي .

ولشدة بخلهم فانهم يتمنون أن تكون أرزاق الخلق بأيديهم ، فيمنعونهم اياها ، وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله : "لما وجدت لهأة أن تبل بريق" يفهم من هذه العبارة محاولاتهم الجادة - لو قدروا - لملاحقة أقدار الخلق أينما كانت ومهما تكلفوا من مشاق حتى لو كانت في منأى عنهم تماما كاللهأة وهي تتوسط الخلق ، فلو تحقق لهم ما يريدون لما وجد الناس من الريق ما يبيل لهواتهم .

ان مثل هذه الأخلاق يدعو لليأس منهم ، وهذا ماجعل الشاعر يشك في قراهم للأضياف ، حتى لو رأى ذلك لاعتقد أنه مجرد اشتعال نار حريق لاغير .

ويشير ابن هندو الى أن خزن المال والضمن به مصدر سرور للبخل ، فيقول :

يسر بخزن المال قوم ولم أكن

لدى الخزن الا مثل تصحيفه حزنا (٣٧)

أفصح الشاعر عن رأيه في البخلاء الذين يكتزون الأموال ولا ينفقونها أملا في أن تكون مصدر راحة واطمئنان لهم ، حيث يرى أنها مصدر حزن وقلق ومبعث تعب وخيبة أمل ، فقد قصر أثر المال والبخل به على التعب

والقلق والاضطراب لمالكه ، ثم يشير الى أن الفرق بين التمتع بالمال وبين عدم التمتع به جد يسير ، فمؤنته تضارع جناس التصحيف بين كلمتي "خزن وحزن" .

ويسخر أبو العلاء المعري من البخيل الذي يعتقد أن دنائره هي التي ستحميه من شدة البرد ، فيقول :

قر البخيل فأمسى من تحفظه

يلقى على الجسم دينارا فدينارا

يشكو الشتاء فيرجو أن يدفعه

أوقد صلاءك^(٣٨) ليس العسجد النارا^(٣٩)

يصور الشاعر حال البخيل وهو يبخل على نفسه بالغطاء ضنا على نفسه من بخله حتى أنه بعد أن بلغ منه البرد القارس مبلغا ، لم يلق ما يقيه شدته سوى دنائره الذهبية ، ولكن الدنانير ليست النار . ويقرن الشاعر بين الشكوى وبين الرجاء ، حيث يشكو البخيل من البرد ، ويرجو أن يقيه ماله البرد القارس .

ان مبعث سخرية الشاعر من البخيل يعود الى حرمانه نفسه من التمتع بماله ومكابدته لمعضلات الحياة وحيدا ، مبينا أن المال وحده لا يكفي للحياة بل بالتعامل الحسن والبعد عن الاعتقاد الخاطيء ، المبني على أن المادة هي كل شيء .

ولقد وفق الشاعر في جذب الانتباه باعتماده في صياغة بيتيه على الزمن حيث وضع من خلاله عدم اتعاض البخيل بما لاقاه من متاعب في الأيام الخوالي وكذلك تغييره للضمير من الغائب الى المخاطب .

(٣٨) صلاءك : الصلاة والصلى : اسم للوقود . اللسان (صلا) .

(٣٩) اللزوميات ٦٨٢/٢ ، وانظر نفس المصدر ٥٤٩،٥٧٩/٢ ، ١٣٣٨/٣ .

ويحدثنا جحظة اليرمكى عن زيارته لبعض البخلاء الأثرياء ، فيقول :

دخلت على باخل مرة

وجنات بستانه زاهره

وقد قابل النور نقش الستور

فأعين زواره حائره

جنان تعجل للباخلين

ونحن نؤجل للآخره (٤٠)

كان البخيل الذى دخل عليه الشاعر ، يمتاز عن غيره من البخلاء ، بثروة كبيرة ونعم وفيرة . يتضح ذلك من عبارة "فجنات بستانه زاهره" فالجنات تعنى النعم الوفيرة والحضرة الدائمة ، كما أن كلمة "جنات" لها مدلول آخر فهى رمز من رموز الآخرة التى يتمناها كل مسلم .

لقد أصيب زائرو البخيل بالذهول وهم يرون ما يرون من متع الحياة التى أفاء الله بها على هذا البخيل . لكن مصدر هذه الحيرة تردد أنظار الزوار بين الزهور الحقيقية والزهور المنقوشة على الستائر .

ويختم الشاعر أبياته بالمقابلة بين تعجيل النعم للبخلاء ، وارجائها للشاعر ورهطه .

أما صردر فتأبى عليه أنفته وتجمله ، أن يمتهن نفسه ويخضع للبخلاء ،

يقول :

سيحرسنى التجميل من أناس

هم عنى بداء البخل صم

حمانى زادهم بطن خميص

على الجلى وعرنين أشم (٤١)

(٤٠) جحظة اليرمكى (الأديب الشاعر) ص ٢٨٣-٢٨٤ ، ص ٢٨٢، ٢٨٥، ٣١٠، ٣١١ .

(٤١) ديوانه ص ١٨٧-١٨٨ ، ص ١٥٣ .

يظهر تعفف الشاعر عن السؤال من خلال قوله "سيحرسنى التجمل"
فالحراسة تدل على المحافظة وعدم اراقة ماء الوجه في سؤال من تمكن فيهم
البخل ، يقول : "هم عنى بداء البخل صم" تفيد هذه العبارة اعراضهم ، بل
واصرارهم وتمسكهم بالبخل .

ثم يضيف أن مايطمح اليه من رفعة وعزة كانت هى السبب فى
حمايته من تكفف البخلاء ، يقول : "بطن خميص على الجلى وعرنين أشم"
يتضح من هذه الجملة أن الشاعر كان يقصد بلفظة "خميص" الصبر على
الجوع ، وب"العرنين" الترفع والعلو .

ومما يؤيد ماذهبنا اليه قوله "الجلي وعرنين أشم" فالجلى هى الأمر
العظيم والعرنين هو الأنف ، وفى ذلك دلالة على شموخ وسمو الشاعر ،
الذى لم يلن أمام هؤلاء البخلاء الأصلاء .

ويشكو ابن سنان من وجوده بين مجتمع البخلاء ، يقول :

أحلى الدهر لدى معشر

باب الندى عندهم مرتج

دارهم الدنيا لأنا بها

ندخل صفرا وكذا نخرج (٤٢)

تعبر اللغة التقريرية فى البيتين عن عدم رضا الشاعر بوجوده بين فئة
البخلاء ، يقول : "أحلى الدهر لدى معشر" ، تفيد هذه العبارة أن الشاعر
لم يكن له اختيار فى وجوده فى مجتمع البخلاء ، ولكنه وجد نفسه فيه ، ثم
يصف أولئك القوم بالبخل مكثيا عن ذلك بقوله : "باب الندى عندهم
مرتج" ، فقد جعل الكرم عبارة عن مكان فسيح له باب ، غير أن ذلك
الباب أوصد عند أولئك البخلاء ، الذين تشبه دارهم الدنيا التى يخرج
الانسان منها كما دخل إليها صفر اليدين .

وفي صورة تختلف عما سبق يتحدث أحمد بن أبي فنن عن البخيل ،
تاركا الحكم عليه للضيف الذي سيحل عليه ، فيقول :
لأشتم الضيف ولكننى

أدعو له بالقرب من طوق

بقر من ان زاره زائر

مات الى الخبز من الشوق (٤٣)

جعل الشاعر "طوقا" رمزا للبخل وشبها مخيفا يخوف به .
ثم لجأ الى أسلوب الذم بما يشبه المدح ، لما فيه من تأكيد على دعاء
الشاعر على الضيف .

فالشاعر حين ينفى شتمه للضيف ، نجده يستدرك الدعاء عليه ، حيث
خرج بلفظة "الدعاء" عن معناها الأصلى وهو الدعاء بالخير ، الى الدعاء
بالشر . ويصور حال الضيف وقد اشتد به الجوع وهو يتربط الطعام بحال
العاشق الولهان، الذى يتربط طلعة محبوبته ، يقول : "مات الى الخبز من
الشوق" فالموت يعنى أن الجوع بلغ من الضيف مبلغا كاد يفضى به الى
الموت .

ظاهرة الكدية: (٤٤)

أدى سوء السياسة الاقتصادية الى تردى الأوضاع الاجتماعية ، وضيق مصادر العيش ، ونتيجة لذلك انتشرت البطالة .
ان هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية ، كانت من أهم أسباب ظهور المكدين .

بدهى أن أى مجتمع من المجتمعات البشرية ، يتكون من عدة شرائح مختلفة ، ومن ضمن هذه الشرائح الأثرياء والفقراء .
فهاتان الشريحتان شغلتا كثيرا من الشعراء ، فالفقراء المعدمون يحتاجون لمن يعطف عليهم ، ويأخذ بأيديهم ، والأغنياء المسكون كثيرا مايمسكون عن العطاء ، لم يحثهم على البذل والعطاء وازع من دين أو ضمير .
ولما تمكنت عادة الاستجداء من المكدين ، سلبتهم القدرة على العمل ، وخيمت عليهم الاستكانة والخنوع والاستسلام .
فلم يجدوا أمامهم سوى التزويح عن أنفسهم بالأحاديث اللاذعة والشعر الناقد ووصف حيلهم ، لما فى ذلك من تنفيس عما يعتمل فى نفوسهم من آلام .

فنجدهم يفخرون بانتسابهم الى بنى ساسان (٤٥) ، يقول الأحنف العكبرى مفتخرا بآل ساسان ومجدهم التالد :

(٤٤) الكدية والكادية : الشدة من الدهر . والكدية : كل ما جمع من طعام أو شراب أو نحوه .. ويقال : لا يكديك سؤالى أى لا يلح عليك .. وأكدى الرجل قل خيره ، وقيل المكدى من الرجال الذى لا يثوب له مال ولا ينمى .. وبلغ الناس كدية فلان ، اذا أعطى ثم منع وأمسك . انظر اللسان مادة (كدا) .

(٤٥) بنو ساسان : طائفة من الشطار والعيارين ، كانوا يحصلون على قوتهم عن طريق الكدية والحيلة .

وساسان : جد ملوك الأكاسرة ، وقيل ساسان : شيخ المكدين والغرباء .

انظر : معجم البلدان ١٧١/٣ ، شرح الشريشى ٣٢٨/٥ .

على أنى بحمد الله

فى بيت من المجد

واخوانى بنو ساسا

ن أهل الجد والجد

لهم أرض خراسان

فقاشان الى الهند

الى الروم الى الزنج

الى البلغار والسند

اذا ما أعوز الطرق

على الطراق والجند

حذارا من أعاديهم

من الأعراب والكرد

قطعنا ذلك النهج

بلا سيف ولا غمد

ومن خاف أعاديه

بنا فى الروع يستعدى (٤٦)

ويفخر أبودلف بكثرتهم وانتشارهم فى الأرض وتجوأهم بين أمصارها

حتى أن البحر كان لهم فيه نصيب يقول :

فنحن الناس كل النا

س فى البر وفى البحر

أخذنا جزية الخلق

من الصين الى مصر

الى طنجة بل فى كل
أرض خيلنا تسرى
اذا ضاق بنا قطر
نزل عنه الى قطر
لنا الدنيا بما فيها

من الاسلام والكفر (٤٧)

وقد يضطر المعدمون الى التجوال والتنقل من مكان لآخر طلبا للعطاء
دون مراعاة لكرامتهم ، حيث أن همهم الحصول على القوت ، ففى خطاب
أبى العلاء المعرى الشعرى ، وصف دقيق لحالهم وقد دأبوا على التجوال من
أجل الحصول على لقمة العيش ، مشبها ما يحصلون عليه من عطاء بالغيث ،
وقد وفق الشاعر فى ابراز حالهم باستخدام المقابلة ، حيث ان طلبهم
واستجداءهم لم يفز بالنوال فى كل مرة ، ومع ذلك لم يدب اليأس الى
نفوسهم ، فهم يواصلون الطلب حتى يقبضهم ملك الموت ، يقول :

قطعت البلاد فمن صاعد

بغيث النوال ومن هابط

تمد عصاك الى النابحات

فيعجبين من جأشك الرابط

وتغبط كلا على ما حواه

ومالك فى العيش من غابط

وقفت على كل باب رأيت

حتى نهاك أبو ضابط (٤٨)

(٤٧) اليتيمة ٣/٣٥٥ .

(٤٨) اللزوميات ٢/١٠٠١ ، ٣/١٥٥٧ .

وعمد شعراء الكدية الى الشكوى من بخل الزمان والدهر مكنين بذلك عن حياة البؤس والفاقة التي يعيشونها ، لهذا تجاهلوا مصدر الفساد الحقيقي وكنوا عنه بالزمان أو الدهر أو الدنيا أو نحو ذلك من الألفاظ التي توهموها قوة مسيطرة على هذا العالم ، تدبر شئونه ، وتصرف أموره ، فنسبوا اليها كل ما يصيب الانسان في هذه الحياة من خير وشر "(٤٩).
أما سلوكهم وتحايلهم الذي يعتمدون عليه للحصول على القوت فيتعدد بتعدد المواقف ويتنوع بتنوع الحاجة التي ينشدونها ، يقول الأحنف العكبرى :

قد قسم الله رزقى فى البلاد فما

يكاد يدرك الا بالتفاريق (٥٠)

ولست مكتسبا رزقا بفلسفة

ولا بشعر ولكن بالمخاريق (٥١)

والناس قد علموا أنى أخو حيل

فلمست أنفق الا فى الرساتيق (٥٢)(٥٣)

يقرر الشاعر أن رزقه يأتيه قليلا قليلا ، وأنه لا يكتسبه كغيره من الفلاسفة والشعراء ، لكنه يعتمد الى الحيلة واللعب معا .
لهذا يؤكد دأبه على التحايل من أجل كسب العيش .
ويتحدث أبو دلف عن حيلهم ، فيقول :

(٤٩) الأدب فى ظل بنى بويه ص ٢٤٣ .

(٥٠) التفاريق : فرقه تفريقا وتفارقة : بدده وأخذ حقه بالتفاريق . القاموس (فرق) .

(٥١) المخاريق : المخراق منديل أو نحوه يلوى فيضرب به أو يلف فيفزع به ، وهو لعبة يلعب بها الصبيان . والمخراق : السيف . اللسان (خرق) .

(٥٢) الرساتيق : وزدق ورستاق والجمع الرساتيق وهى السواد . اللسان (رستق) .

(٥٣) اليتيمة ١١٨/٣-١١٩ .

ومنا منفذ الطين
وأصحاب اللحى الحمر
ومن شقف بالماء
ومن شقف بالجمر
ومن كدى على كيسا
ن فى السر وفى الجهر
ومنا النائح المبكى
ومنا المنشد المطرى
ومن ضرب فى حب
على وأبى بكر
ومن يروى الأسانيد
وحشو كل قمطر (٥٤)

هذه الأبيات جزء من قصيدته الساسانية ، يصف فيها الشاعر بعض حيلهم والطرق التى يسلكونها فى استجداء الناس من حيلة وتمويه ودجل .. تحدث الشاعر عن جانب ضئيل من حيلهم فى هذه الأبيات . فقد كانوا خبراء بالحياة الاجتماعية ، لذا نراهم يتبعون الطرق التى تجدى مع فئات المجتمع المتعددة .

فمع الشيعى يخضبون لحاهم ويحملون السبح والحجار الطينية ، حتى لو تطلب الأمر النواح على الحسين والتغنى بالأشعار التى قيلت فيه . أما الرعاع والبلهاء فيكتبون لهم الرقاع ويقذفونها فى الماء أو النار فيحتالون بها عليهم . ومن حيلهم جلب بعض أقوام من الكيسانية لاستدرار العطف ، وطلب النوال عليهم .

(٥٤) اليتيمة ٣/٣٦١-٣٦٢ ، وانظر القصيدة كاملة فى نفس المصدر ٣/٣٥٤-٣٧٣ .

كما لم يسلم الصحابة رضوان الله عليهم من حيلهم ، فقد اتفق اثنان
 وذهبا الى أحد الأماكن المزدحمة فلزم أحدهما جانبا وأخذ يعدد مآثر
 ومحاسن أبي بكر ، وفي الجانب الآخر أخذ الثاني يعدد مآثر وفضائل على ،
 فلا يفوتهما عطاء ، حتى رواية الحديث كانت مصدر ارتزاق لهؤلاء المكدين ،
 فبعضهم يجلس على قارعة الطريق فيروى الأحاديث .
 ويصور لنا شعراء الكدية ظاهرة التطفل^(٥٥) الناشئة عن ظاهرة الفقر ،
 حيث اضطر أولئك الفقراء الى فرض أنفسهم على الناس حينما ، وبالحيله
 أحيانا لكي يحصلوا على الغذاء ، غير آبهين بما يلقونه من ذلة وهوان ،
 يقول الحمدوى :

أراك الدهر تطرق كل دار
 كأمر الله يحدث كل ليله
 فان غلظ الحجاب وكان صعبا
 ولم تقدر هناك على دخيله
 أخذت لكى تخاطبهم خلا لا
 وقلت نسيت عندكم نعيه
 فتلتهم الخوان بما عليه
 وتبدرهم الى بيض البقيه
 وتأكل أكل ميسرة وأيضا
 فلا بد لعرسك من زليله
 وأنت بفضل حذقك ذا طفيل
 وتلك بما تزل لها طفيله^(٥٦)

(٥٥) الطفيلي : هو الذى يدخل على القوم من غير أن يدعوه ، مأخوذ من الطفل ،
 وهو اقبال الليل على النهار بظلمته . انظر اللسان (طفل) .

(٥٦) شعراء بصريون ص ١٥٨-١٥٩ .

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الطفيلي الذي لجأ - عندما أدرك أن الفقر قد طحنه بكللكه - إلى التطفل حتى يحصل على الطعام . لهذا أخذ ينسج حيله وتمويهاته ، حتى فرض نفسه ، وأضحى كقدر الله الذي لامفر منه ، ومهما كان الحجاب متينا ، فحيله تخترق كل تلك الحجب . وإذا وقع على الطعام ، لا يتورع عن التهام أى كمية منه ، بل ويحمل معه ماتبقى من طعام لزوجه .

ويتحدث جحظة البرمكى عن التطفل فيقول :

أظهرت فى التطفل مالم يكن

يعرف فى التطفل أهل العقول

تأكل سحتا وتزل الذى

يبقى من الزاد لأم النقول (٥٧)

لم يكتف المتطفل - الذى تحدث عنه الشاعر - بما أكله فى بطنه ، بل عمد إلى حمل ماتبقى من طعام .

لذا استنكر الشاعر أساليب التطفل التى يسلكها فى تطفله ، ويبين أن ما يأكله حرام ، بله حمله .

يتضح لنا من خلال هذه النصوص أنها لم تكن نقدا منصبا على ظاهرة الكدية ، بقدر ما هى نقد لتفشى هذه الظاهرة ، دون التعرض للعوامل المسببة لهذه الظاهرة ، التى تعاورت على المجتمع ، وكانت سببا مباشرا فى تفشيها . أما السمة التى يمتاز بها شعر الكدية من خلال النصوص التى بين أيدينا ، فهى اعتماد الشعراء على أسلوب السرد القصصى وضرب الأمثلة المحسوسة ، كما هو واضح عند العكبرى ، وأبى دلف ، والحمدوى . وتظهر بشكل لافت نزعة الفخر عند الشحاذين والطفيليين كالأحنف العكبرى وأبى دلف ، فى فخرهم بانتسابهم لهذه الفئة .

الخاتمة

الخاتمة

صور شعر الهجاء الاجتماعى فى العصر العباسى الحياة الاجتماعية ، التى تأثرت بالأوضاع السياسية المضطربة ، والتدهور الاقتصادى ، الناتج عن فساد الأنظمة وسوء توزيع الثروة ، نتيجة تسلط الموالى وأسلوبهم فى الحياة . ان شعر الهجاء الاجتماعى فى العصر العباسى لم يكن نسيج وحده ، لكنه كان يمثل قيم العصر الفنية ، حيث أضحي جزءا من الشعر العربى بعامه والعباسى بخاصة .

فرغم براعة شعراء الهجاء الاجتماعى واحكامهم لصنعتهم ، الا أننا لسنا من المتعصبين الذين يبالغون فى وصف خصائص الموضوع الذى يقومون ببحثه ، لكن الذى يمكننا أن نصف به هذا الشعر هو أنه أصبح غرضاً من أغراض الشعر فى العصر العباسى ، فى حين كان من قبل عبارة عن نقداً عابرة .

لقد كان لطبيعة العصر دور واضح فى بروز هذا اللون من الشعر ، حيث كانت الحياة الاجتماعية تخضع لظروف سياسية واقتصادية وفكرية ، لهذا كانت الظواهر الاجتماعية أثراً من آثار تلك الحياة . ولذلك تصدى الشعر لتلك الظواهر ، معبرا عن دوافع الشاعر النفسية وآلامه ، وما يعتوره من هموم ، جراء الحيف والانحراف الدينى والأخلاقى .

ولقد برع شعراء الهجاء فى طريقة أداء تلك المعانى التى تطرقوا اليها ، حيث ظهر أثر الحياة الفكرية والثقافية على موضوعات هذا الشعر ، فكثرت التشبيهات المنتزعة من البيئة والاستئناس بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، والتاريخ وغيرها ، مما يدل على تنوع ثقافتهم .

وكانوا يراعون فى انتاجهم ، أولئك الذين يتوجهون اليهم بذلك الشعر ، بمعنى أن الأسلوب فى شعر المجون ، يختلف عنه فى شعر التحلل الخلقى ، وكلاهما يختلف عن شعر الكدية .

بين البحث أهم العوامل التي أدت الى تشكيل الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، مع بيان أثر الخلل السياسي وسوء الحالة الاقتصادية ، بالإضافة الى أثر الموالى على أسلوب الحياة الجديدة ، كونهم ينتمون الى أعراق مختلفة وثقافات متعددة ، وهذا بطبيعة الحال أدى بالضرورة الى نشوء بعض الظواهر التي لم تكن مألوفة في المجتمع .

وقد نتج عن تلك الظواهر الاستخفاف بالشعائر الدينية ، حيث انتشر اللهو والمجون وشاعت الخمر والتغزل بالغلمان والافتتان بالقيان .

كما أبرز البحث كثيرا من مظاهر التحلل الخلقى التي لم تكن واضحة في العصور المتقدمة ، وضوحها في العصر العباسي .

ويبدو أن تطور الحياة الجديدة في العصر العباسي ، وما اعتوره من التفكك والاضطرابات السياسية ، أدى الى تردى الحالة الاقتصادية ، حتى أصبحت عاملا مهما في بروز تلك الظواهر ، التي تحلل المتصفون بها من قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وانساقوا خلف تلك الحياة لاهئين ، همهم جمع المال والاستحواذ عليه بأى طريقة ، فهو في نظرهم البلمس الشافي . لذا كان من الطبيعي أن تنشأ ظاهرة حب المال ، نتيجة لانحدار الاقتصاد وسوء توزيع الثروة بين فئات المجتمع .

وهذا بدوره ساعد على تفشى ظاهرة البخل ، وشيوع الاستجداء لدى طائفة المكدين .

وبعد ، فقد اتضح لى فى ختام هذا البحث مايلى :

لم يحظ شعر الهجاء الاجتماعى بعناية الدارسين والنقاد ، كعنايتهم بغيره من موضوعات أدبنا العربى ، رغم أنه بلغ قمة ازدهاره فى هذه الحقبة . كما أنه يعالج ظواهر اجتماعية ناشئة عن خلل فى السياسة ، والحياة الاقتصادية ، وقد أجاد فى ذلك واتسم هذا الشعر بالوضوح وعدم التوعر والغموض ، والتكلف فى الصنعة ، وهذا مما ساعد على بروزه ، ووضح أثر الموالى على الحياة الاجتماعية من خلال ظواهر الانحراف وسلوكهم فى الحياة .

كما لحظ البحث أن دقة التصوير لدى الفئات المحرومة ، كانت واضحة ، وذلك لقدرتهم الفائقة على تصوير واقعهم البائس . ويعزو البحث ظاهرة الشعر الاجتماعي الى اتساع الثقافة والنضج الفكري والقدرة على استكناه الأشياء والحكم عليها .

واتضح من خلال هذا البحث أن شعر الهجاء الاجتماعي ، كان في مجمله عبارة عن مقطعات شعرية ، ولعل ذلك راجع الى أنه كان وليد اللحظة التي قيل فيها ، وان كان بعض ذلك قد ورد في طى قصائد طويلة . كما وضح من خلال هذه الدراسة أن شعر الهجاء الاجتماعي قد استخدم الأوزان الطويلة ، التي تتواءم وموضوعاته .

وبين البحث غلبة القوافي الذلل ، وابتعد عن القوافي النفر . هذه أبرز الملاحظات التي توصل اليها البحث .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهارس الفنيه

فهرس القولافي

فهرس للاعلام

فهرس للمصادر والمراجع

فهرس للموضوعات

فهرس القوافل (*)

القافية	الاسم	عدد الأبيات	الصفحة
---------	-------	-------------	--------

اللحي	السريع	السرى الرفاء	٥	١٦٧
الكبراء	الخفيف	الشريف العقيلي	٣	١٨٢
رخاء	الطويل	يزيد المهلبى	٤	٤٧
صفاء	الطويل	أبو هلال العسكري	٣	٧٦
العزاء	الوافر	يزيد المهلبى	٣	٦٩
لضيائها	الكامل	أبو العباس الناشئ	٨	٤٣
خضابها	الطويل	أبو العلاء المعرى	٣	٥٣
عتبه	الوافر	ابن المعذل	٣	١٠٩
غلبا	الكامل	ابن الحجاج	٢	١٨٢
أعيب	الطويل	ابن الرومى	٤	١٢٤
ثعالب	الطويل	دعبل الخزاعى	١	١٧٥
لاتعاب	الخفيف	جحظة البرمكى	٢	١٩١

(*) راعينا فى ترتيب القوافى الحركات ، حيث رتبناها كالاتى : سكون ، ففتح ، فضم ، فكسر .

لم نراع الألف واللام فى ترتيب القوافى الأجدى .

الغافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
الغلب	المنسرح	أبو العلاء المعري	٥	٤٤
كاذب	الطويل	أبو العلاء المعري	٣	١٤٢
لييب	الطويل	مهيار الديلمي	٤	١١٥
مذنب	الطويل	أبو هلال العسكري	٢	١٤٠
المريب	الوافر	يزيد المهلبى	٤	١٦٩
يرطب	الطويل	ابن الرومى	٢	٢٠٥
لا يريب	الخفيف	البحترى	٢	٨٥
الأجرب	الكامل	لبيد بن ربيعة العامرى	١	٩٣
الأقارب	مجزوء الكامل	ابن المعتز	٣	١٥٠
الارب	الطويل	ابن الرومى	٤	١٢٩
ثيابه	الطويل	الشريف العقيلي	٣	٢٠٧
جانبي	الطويل	ابراهيم الصولى	٣	٧٨
ذنوبه	مجزوء الكامل	الشريف الرضى	٢	١٤٩
الخاضب	الكامل	أبو العلاء المعري	٣	١٧٣
الشبب	البسيط	ابن الرومى	٢	٥٧
مستريب	الوافر	الأحنف العكبرى	٢	٧٣
نصيبي	المتقارب	ابن المعتز	٢	١١٤
سبت	الطويل	أحمد بن أبى فنن	١	١٤٣
حليته	المتقارب	الحمدوى	٤	٢٠٣
شهواتى	البسيط	الفضل بن العباس	٥	٣٣

القاموس	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
قسماتها	الكامل	مهيار الديلمي	٤	١٠٠
منسأته	الرمل	بديع الزمان الهمداني	٣	١٩٤
مرتج	السريع	ابن سنان	٢	٢١٢
مرجى	الوافر	أبو العلاء المعرى	٣	١٥
اصطبخوا	المنسرح	أبو العلاء المعرى	٦	٣٨
الجناح	مجزوء الكامل	ابن الرومى	٧	٩٧
شحيح	مجزوء الرمل	أبو نواس	١	٩٩
فقبيح	الطويل	أبو الفتح البستى	٣	١٤٤
أبدابدا	الطويل	الحسين بن الضحاك	٤	٥٢
أرمدا	الطويل	عمارة بن عقيل	٤	٢٠٠
تمردا	الطويل	أبو الطيب المتنبي	١	٩٠
فندا	البيسط	دعبل الخزاعى	٢	٧٩
ودا	الطويل	ابن أبى حصينة	٤	١١٨
والده	السريع	الخباز البلدى	٣	١٨٣
تبدو	الطويل	الشريف الرضى	١	١٥٨
تريد	الرمل	أحمد بن أبى فنن	٢	٣١
جلده	الطويل	أبو الطيب المتنبي	١	١٧٨
الحسد	البيسط	البيحتزى	١	١٥٠
الحقود	الوافر	السرى الرفاء	١	١٥٤

الذات	النوع	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
-------	-------	--------	-------------	--------

حمدوا	البيسيط	ابن أبي حصينة	٢	١٣٢
لسعيد	الطويل	حسان بن ثابت الأنصاري	١	١١٩
المهود	البيسيط	أبو العلاء المعري	٣	١٣٨
وجده	الطويل	أبو الطيب المتنبي	٤	١٩٧
الجود	البيسيط	الشريف الرضي	٣	٢٠٦
حاسد	الطويل	أبوفراس الحمداني	٣	١٥٦
كحمد	الخفيف	الصنوبري	٣	١٥٢
الحسد	الكامل	ابن المعتز	٢	١٥٤
الفصاد	الوافر	البحثري	٢	٤٢
قعدد	الكامل	الشريف الرضي	٣	١٠٨
المجد	الهزج	الأحنف العكبري	٨	٢١٥
المساعد	الطويل	البحثري	٣	١٥٢
الود	الرجز	الشريف الرضي	١	١٤٠
موردى	الطويل	الحسن بن وهب	٥	٧٥
الأكبرا	الكامل	ابن سنان	٢	٧٣
دينارا	البيسيط	أبو العلاء المعري	٢	٢١٠
زاهره	المتقارب	جحظة اليرمكي	٣	٢١١
زوارا	الهزج	أبو علي البصير	٩	٣٧
ظهرا	الهزج	أبو العيناء	٩	٣٥
مادري	المتقارب	أبو العلاء المعري	٢	١٧٧
بقر	المنسرح	ابن لنكك	٣	١٦٣

القاموس البحرى الشاعر العربى عدد الأبيات المصنف

١٥٨	٢	أبو العلاء المعرى	البسيط	جرر
٩٣	١٢	الميكالى	الكامل	حر
٤١٠١٩	٣	ابن الرومى	الطويل	السكر
١٢٥	٥	ابن دريد	الطويل	المطهر
٤٠	٢	بديع الزمان	الرمل	نار
١٤٥	٣	جحظة البرمكى	المتقارب	آخر
٢٠٦	٢	البحترى	البسيط	أثر
٢١٥	٥	أبو دلف	الhezج	البحر
٢١٨	٦	أبو دلف	الhezج	الحمر
٨٢	٣	ابراهيم الصولى	الطويل	الدهر
٧٤	٢	دعبل الخزاعى	الطويل	الدهر
٢٠٢	٣	دعبل الخزاعى	الطويل	الدهر
١٩٨	٧	أبو الفتح البستى	السريع	الذكر
٨٣	٥	مهيار الديلمى	الكامل	الشر
٩٦	٢	أبو العلاء المعرى	الكامل	عار
٧١	٥	داعى الدعاة	الوافر	عمرى
٩٢	٣	أحمد بن أبى فنن	الكامل	الغابر
١٦١	٧	ابن الرومى	الخفيف	المشير
١٣٠	٥	مهيار الديلمى	الكامل	المكر
٢٠١	١	الأخطل	البسيط	النار

القائمة	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
---------	-------	--------	-------------	--------

يسر	الكامل	البحترى	٤	١٠٧
يفرى	الطويل	سويد بن الصامت	٥	١٠٥
ابرازا	البيسيط	أبو العلاء المعرى	٢	٦٠
نجوز	الطويل	أبو العلاء المعرى	٢	١٤٥
افلاس	البيسيط	أحمد بن فارس	٢	١٩٢
المجالس	الطويل	ابن الرومى	٣	٤٨
الحضيض	الوافر	الشريف العقيلي	٣	١٤٧
لبياض	الكامل	بديع الزمان الهمداني	١	١٦٨
مخضى	الخفيف	الشريف المرتضى	٤	١٢٢
الخليط	الوافر	أبو العلاء المعرى	٢	١٨٩
هابط	المتقارب	أبو العلاء المعرى	٤	٢١٦
مستمع	السريع	الجاحظ	٢	١٦٩
الدعه	الرمل	دعبل الخزاعى	٢	١٠٢
أسمع	الطويل	دعبل الخزاعى	٤	١٢٠
مصنوع	البيسيط	كشاجم	٣	١٧١
نافع	المتقارب	ابن الرومى	٣	٨٠
جعجاع	الخفيف	ابن نباته السعدى	٤	١٥٩

٣١	٧	بديع الزماني الهمداني	مجزوء الرمل	رتاعى
١٥٧	٤	البحتري	الطويل	شروعه
١٤٧	٢	الشريف المرتضى	السريع	أخلفا
٢٠١	٣	الباخرزى	السريع	الأرغفه
١٤٦	٢	جحظة البرمكى	الوافر	الأكف
١١١	٢	أبو الطيب المتنبي	الوافر	ذاقا
٦٨	٢	ابراهيم بن المدبر	الخفيف	شفيقا
١١٣	٣	أبو العلاء المعرى	الطويل	موافق
١١٤	٣	أبو هلال العسكري	الطويل	موافق
١١٠	٢	الصورى	الخفيف	اباق
٢١٨	٣	الأحنف العكبرى	البسيط	بالتفاريق
١١٢	٦	الصابى	الطويل	بصديق
٢٠٨	٣	مهيار الديلمى	الكامل	بصديق
٢١٣	٢	أحمد بن أبى فنن	السريع	طوق
١١١	٢	العطوى	الطويل	بنفاق
١٣٧	٢	أبو العلاء المعرى	الطويل	اليكا
٧٤	٢	منصور الفقيه	المجتث	تبدل
١٣٣	٥	صدر	الوافر	بطلا

الكتاب الثاني في السير والوفاء والوفاء والوفاء

١٨٧	٧	أبو العيناء	الكامل	فقالا
٢١٩	٦	الحمدوى	الوافر	ليه
٦٨	٢	الصورى	السريع	محتله
٨٦	٤	أبو فراس الحمدانى	الطويل	تحول
٨٤	٤	الشرىف المرتضى	الكامل	جميله
١٦٤	٢	أبو هلال العسكرى	الكامل	جهله
١١٥٠٧٨	١	الشافعى	الطويل	قليل
١٧٦	٢	ابن الرومى	الطويل	مقاتل
٢٠٥	١	العطوى	مجزوء الرجز	البخل
١٨١	٣	الأحنف العكبى	الخفيف	أنذال
٩٣	١	حسان بن ثابت الأنصارى	الكامل	الأول
٥٤	١	امرؤ القيس	الطويل	البال
١٨٠	٢	البحترى	الطويل	ثقال
١٤٨	٣	ابن حىوس	الخفيف	الحجال
١٠٧	٢	على بن الجهم	مجزوء الكامل	دخيل
٩٥	٢	صدر	الوافر	الرجال
١٣٤	٢	أبو الحسن الحرانى	الكامل	عذالى
٢٢٠	٢	جحظة البرمكى	السريع	العقول
٣٠	٣	ابن وكيع التنيسى	الكامل	فاقبل
١٥٥	٤	أحمد بن أبى طاهر	السريع	فعله
١٧٨	٢	امرؤ القيس	الطويل	المال
٧٨	١	أبونواس	الطويل	المثل
٥٤	٤	على بن الجهم	الطويل	المبجل

المجلد الثاني - الجزء الثاني - كتاب الفقه

١٤٣	٢	منصور الفقيه	مجزوء الرجز	ظلم
٥٩	٤	منصور الفقيه	المجتث	المنجم
٥٦	٣	أبو العلاء المعري	البيسيط	عنما
١٠٣	٣	أبو بكر الخالدي	الكامل	نداما
١٧٩	١	أبو الطيب المتنبي	الخفيف	ايلام
٤٩	٤	أبو العلاء المعري	المتقارب	دارهم
٢١١	٢	صدر	الوافر	صم
٢٣	٢	أبو الطيب المتنبي	المنسرح	عجم
٩٩	٢	أبو الطيب المتنبي	المنسرح	العدم
٤٦	٣	ابن هندو	الخفيف	العزيم
١٢٤، ١٠٩	١	أبو الأسود الدؤلي	الكامل	عظيم
١٨٩	٤	منصور الفقيه	البيسيط	القدم
١٨٦	٣	عمارة بن عقيل	البيسيط	كرموا
١٤١	٤	الشريف المرتضى	الكامل	كلامه
١٩١	٢	الشريف الرضى	الكامل	المعدم
٨١	٢	ابن أبي حصينه	الكامل	كالأحلام
١٥٣	٤	ابن الرومي	الخفيف	الأقسام
١٥١	٣	ابن الرومي	الخفيف	الأنام
١٣٩	٣	أبو الطيب المتنبي	البيسيط	الرخم
٥٠	٤	بديع الزماني الهمداني	الوافر	الرخيم
١٩٦	٢	ابن المعتز	المتقارب	العالم

الفاصل	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
كرام	الكامل	أبو هلال العسكري	٢	٩١
مدام	الكامل	جحظة البرمكي	٢	٧١
مظلم	الطويل	الشريف العقيلي	٣	١٧٢
نعمه	المجثث	ابن وكيع التنيسي	٢	١٥٠
تغنينا	البيسيط	عبيدالله بن سليمان بن وهب	٣	١٣٥
حزنا	الطويل	ابن هندو	١	٢٠٩
سوانا	الوافر	الشافعي	١	٩٧
يشكونه	البيسيط	أبو العلاء المعري	٣	١٢٣
ايوان	البيسيط	أبو البقاء الرندي	١	٨١
طعان	الكامل	الشريف الرضي	٢	٩١
يمينه	الطويل	الباخرزي	٣	١٠١
بألوان	السريع	الخباز البلدي	٢	١١٧
زمان	الكامل	الوأواء الدمشقي	٤	١٢٧
سكن	البيسيط	ابن العميد	٤	٨٨
غيرواني	الوافر	ابن أبي حصينة	٢	١٢٧
لساني	المديد	ابراهيم الصولي	٤	٦٧
محن	البيسيط	ابن الحجاج	٢	١٤٣
مكاني	الوافر	القاساني	٧	١٧٤
يضمني	الوافر	مهيار الديلمي	٣	١٩٢

التائمه البحر الناصر عدد الآيات المستحد

١٦٥	٣	أبو جعفر البحاثى	الكامل	تشبيها
٢٠٤	٢	منصور الفقيه	المجتث	أهله
١٨٦	١	أبو الطيب المتنبى	الطويل	مجده
١١٦	٥	الشريف المرتضى	الخفيف	صبيا
١٧٩	٢	ابن وكيع التنيسى	المتقارب	العاليه
١٩٥	٤	أبو الفتح البستى	الطويل	كاسيا

فهرس الأعلام

- ٨٢،٧٨،٦٧ * ابراهيم بن العباس الصولى
- ٦٨ * ابراهيم بن المدبر
- ١٣٢،١٢٧،١١٨،٨١ * ابن أبى حصينة (أبو الفتح الحسن بن عبد الله)
- ١٥٥ * ابن أبى طاهر (أحمد بن أبى طاهر طيفور)
- ١٨١،١٤٤،١٤٣ * ابن الحجاج (أبو عبد الله الحسين بن أحمد)
- ١٤٨ * ابن حيوس
- ١٢٥ * ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن)
- ١٣٠،١٢٩،١٢٤،٩٧،٨٠،٥٦،٤١،١٩ * ابن الرومى
- ٢٠٥،١٧٦،١٦١،١٥٣،١٥١،١٤٥
- ١٢٠ * ابن الزيات (محمد بن عبد الملك الزيات)
- ٢١٢،٧٢ * ابن سنان الخفاجى
- ٨٨ * ابن العميد (أبو الفضل محمد بن الحسين)
- ١٦٣ * ابن لنكك
- ١٩٦،١٥٤،١٥٠،١١٤ * ابن المعتز
- ١٠٩ * ابن المعذل (عبد الصمد بن المعذل)
- ١٣٧ * ابن المقفع
- ١٥٩ * ابن نباتة السعدى
- ٢٠٩،٥١،٤٦ * ابن هندو (أبو الفرج على بن الحسين)
- ١٧٩،١٥٠،٩٩،٩٣،٣٠ * ابن وكيع التنيسى
- ١٢٤،١٠٩ * أبو الأسود الدؤلى
- ٨١ * أبو البقاء الرندى

- ٧٧ * أبو البقاء العكبري
- ٢١٩، ١٧٨ * أبو بكر (رضي الله عنه)
- ١٠٣ * أبو بكر محمد الخالدي
- ١٦٥ * أبو جعفر البحائي
- ١٤ * أبو جعفر المنصور
- ١١٩ * أبو الدرداء
- ٢١٧، ٢١٥ * أبو دلف العجلي
- ١٣ * أبو العباس السفاح (الخليفة العباسي)
- ٤٣ * أبو العباس الناشيء
- ٣٦ * أبو علي البصير
- ١٨٨، ١٨٧، ٣٤ * أبو العيناء
- ١٩٩، ١٩٨، ١٩٦، ١٩٥، ١٤٤ * أبو الفتح البستي
- ١٥٦، ٨٦ * أبو فراس الحمداني
- ٩٩، ٧٧ * أبو نواس الحسن بن هاني
- ١٦٤، ١٤٠، ١١٣، ٨١، ٧٦ * أبو هلال العسكري
- ١٠٦ * أبو هريرة (الصحابي الجليل)
- ٢١٣، ١٤٢، ٩٢، ٣١ * أحمد بن أبي فتن
- ١٢٠ * أحمد بن الحصيب
- ١٩٢ * أحمد بن فارس المقيم
- ٢٩ * أحمد محمد الحوفي (دكتور)
- ٢١٧، ٢١٤، ١٨١، ٧٣ * الأحنف العكبري
- ٢٠١ * الأخطل
- ٩٠ * أردشير

- ٧٧ * أرسطاطاليس
- ١٧ * اسحاق بن ابراهيم
- ١٧٨ * امرؤ القيس
- ٦٦ * بابك الخرمي
- ٢٠١،١٠١ * الباخرزي (علي بن الحسن)
- ٢٠٦،١٨٠،١٥٧،١٥٢،١٥٠،١٠٧،٨٥،٤٢ * البحتري
- ١٩٤،١٦٨،٥٠،٤٠،٣١ * بديع الزمان الهمذاني
- ١٠٦ * الترمذي
- ٦٥ * التنوخي (القاضي أبو علي المحسن بن علي)
- ١٩٨،١٦٩،١١٩،١٩ * الجاحظ (عمرو بن بحر)
- ٢٢٠،٢١١،١٩١،١٩٠،١٤٦،١٤٥،٧٠ * جحظة البرمكي
- ١١٩،٩٣ * حسان بن ثابت الأنصاري
- ٧٥ * الحسن بن وهب
- ٥٢ * الحسين بن الضحاك
- ٦٥ * الحسين بن عبد الله الجصاص الجوهري
- ٢١٩،٢٠٣ * الحمدوي (اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه)
- ١٨٣،١١٧ * الخباز البلدي (أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان)
- ٢٠٢،١٧٥،١٢٠،١٠٢،٧٩،٧٤ * دعبيل بن علي الخزاعي
- ٤١ * ديورانت
- * الرسول صلى الله عليه وسلم = محمد بن عبد الله
- ١٦٧،١٥٤ * السري الرفاء
- ٤ * سليمان بن ابراهيم العايد (دكتور)

- ١٢٠ * سليمان بن وهب
- ٧٧ * السهيلي
- ١٠٥ * سويد بن الصامت
- ١٧ * الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد)
- ٩٧، ٧٨ * الشافعي (أبو عبد الله محمد بن ادريس)
- ٢٠٦، ١٩١، ١٥٨، ١٤٩، ١٤٠، ١٠٨، ٩١ * الشريف الرضي
- ٢٠٧، ١٨٢، ١٧١، ١٤٧ * الشريف العقيلي
- ١٤٧، ١٤١، ١٢١، ١١٦، ٨٤ * الشريف المرتضى
- ١١٤، ١١٢ * الصابي (أبو اسحاق ابراهيم بن هلال)
- ٤٥ * صالح الكلابي
- ٢١١، ١٣٢، ٩٥ * صردر (علي بن الحسن بن علي بن الفضل)
- ١٥٢ * الصنوبري (أحمد بن محمد بن الحسن الضبي)
- ١١٠، ٦٨ * الصوري (عبد المحسن بن محمد بن أحمد)
- ١٧ * الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)
- ٦٥ * طه حسين (دكتور)
- ١٦٩ * عاصم بن ثابت
- ٤ * عبد الحكيم حسان عمر (دكتور)
- ١٦٣ * عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)
- ١٣٥ * عبيد الله بن سليمان بن وهب
- ٢٠٥، ١١١ * العطوي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطيه)
- ٢١٩، ١٠٦ * علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)
- ١٠٦، ٥٤ * علي بن الجهم
- ١٣٤ * علي بن الحسن اللحام

- ٢٠٠،١٨٦ * عمارة بن عقيل
- ١٣٨ * عيسى (عليه السلام)
- ٣٥،٣٣ * الفضل بن العباس بن المأمون
- ١٧٤ * القاساني (أبو محمد بن اسحاق)
- ٧٧ * القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)
- ١٧٠ * كشاجم (أبو الفتح محمود بن الحسين الكاتب)
- ٩٣ * لييد بن ربيعة العامري
- ١١٩ * المأمون (الخليفة العباسي)
- * المؤيد في الدين داعي الدعوة
- ٧١ (هبة الله بن موسى بن عمران)
- * المتنبي
١٩٦،١٨٦،١٧٨،١٣٩،١١١،٩٩،٩٠،٢٣
- * المتوكل (الخليفة العباسي)
٢٠،١٧
- * محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم -
١٧٢،١٦٨،١٦٣،١٠٦
- * محمد مريسي الحارثي (دكتور)
٤
- * مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية)
١٣
- * المعتمد (الخليفة العباسي)
٣٠
- * المعري (أبو العلاء)
١١٣،٩٩،٩٦،٦٠،٥٥،٥٣،٥٠،٤٩،٤٤،٣٨،١٤
- ٢١٦،٢١٠،١٨٩،١٨٨،١٧٧،١٧٢،١٥٨،١٤٥،١٤٢،١٣٨،١٣٧،١٢٣
- * المقرئ (تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي)
٣١
- * منصور بن اسماعيل الفقيه
٢٠٤،١٨٩،١٤٣،٧٣،٥٩
- * مهيار الديلمي
٢٠٨،١٩٢،١٣٠،١١٥،١٠٠،٨٣
- * موسى (عليه السلام)
١٣٨

- ٩٣ * الميكالى (عبيد الله بن أحمد بن على)
- * النبى - صلى الله عليه وسلم = محمد بن عبد الله
- ١٢٧ * الوأواء الدمشقى (أبو الفرج محمد بن أحمد الغسانى)
- ١٢٠ * الوائق (الخليفة العباسى)
- ٥٢ * الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى)
- ١٦٩، ٦٩، ٤٦ * يزيد بن محمد المهلبى
- ١٦١ * يزيد مزيد الشيبانى

المطارد والمراجع

* القرآن الكريم

* آدم متز

- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى .

نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريده .

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الكتاب العربى ببيروت . الطبعة

الرابعة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م بيروت .

* الأخطل - أبو مالك غياث بن غوث التغلبى

- شعر الأخطل

تحقيق د.فخر الدين قباوه .

الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت .

* أحمد أمين

- ضحى الاسلام

ج ١ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة العاشرة .

- ظهر الاسلام

ج ٢ دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة .

* أحمد الحسين

- أشعار الشحاذين فى العصر العباسى

جمع وتحقيق أحمد الحسين

الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، دار الجيل للطباعة ، دمشق .

* د. أحمد محمد الحوفى

- تيارات ثقافية (بين العرب والفرس)

الطبعة الثالثة . دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة .

* امرؤ القيس

- ديوان امرؤ القيس

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .

* ابن الأبار - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي

- اعتاب الكتاب

تحقيق د. صالح الأشر

الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ، مجمع اللغة العربية بدمشق .

* ابن أبي حصينة - الأمير أبي الفتح الحسن بن عبد الله

- ديوان ابن أبي حصينة

شرح أبي العلاء المعري

تحقيق محمد أسعد طلس

المجمع العلمي العربي بدمشق ، المطبعة الهاشمية ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

* ابن الأثير - الامام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير

الجزري

- جامع الأصول في أحاديث الرسول ج ٤

تحقيق عبد القادر الأرناؤوط

نشر وتوزيع مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان ١٣٩٠هـ/

١٩٧٠م .

* ابن حيوس - أبو الفتيان محمد بن سلطان

- ديوان ابن حيوس ج ١

نشر وتحقيق خليل مردم بك

دار صادر ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* ابن داود - أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني

- الزهرة ج ١

تحقيق وتقديم د. ابراهيم السامرائي

مكتبة المنار ، الأردن ، الزرقاء ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

* ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد

- كتاب جمهرة اللغة

تحقيق وتقديم د. رمزي منير البعلبكي

دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

- ديوان ابن دريد

دراسة وتحقيق عمران سالم

الدار التونسية للنشر ١٩٧٣م .

* ابن الرومي - أبو الحسن علي بن العباس بن جريج

- ديوان ابن الرومي

تحقيق د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

* ابن سنان - أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد

- ديوان ابن سنان

المطبعة الأنسية . بيروت .

* ابن سيده - علي بن اسماعيل بن سيده

- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ج ١

تحقيق مصطفى السقا ، دكتور حسين نصار

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى

١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .

- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ج ٢

تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى
١٩٥٨/١٣٧٧ م .

- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ج ٦
تحقيق د. مراد كامل

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى
١٩٧٢/١٣٩٢ م .

* ابن طيفور - أحمد بن أبي طاهر طيفور

- المنثور والمنظوم ج ١٣

رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى . تحقيق ضيف
الله سعد الحارثي .

* ابن قتيبة - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

- عيون الأخبار ج ٢

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .

* ابن القيم الجوزية

- مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذرى ، ومعالم السنن لأبي سليمان

الخطابي ، تهذيب الامام ابن القيم الجوزية ج ٦

طبعة الملك خالد بن عبد العزيز ، السعودية ، مكتبة السنة المحمدية .

* ابن المعتز - عبد الله بن محمد بن المعتز الخليفة العباسي

- ديوان أشعار الأمير أبي العباس

دراسة وتحقيق د. محمد بديع شريف

دار المعارف بمصر .

* ابن المقفع - أبو محمد عبد الله

- الأدب الصغير والأدب الكبير

منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ١٩٨٧/١٤٠٧ م .

* ابن مكرم - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم
- لسان العرب

دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

* ابن نباتة السعدى - أبو نصر عبد العزيز بن عمر

- ديوان ابن نباتة السعدى

دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدى حبيب الطائى

دار الحرية للطباعة . بغداد ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

* ابن وكيع التنيسى - أبو محمد الحسن بن على بن أحمد

- ابن وكيع شاعر الزهر والخمر

جمع وتحقيق د. حسين نصار . مكتبة مصر .

* - المنصف فى نقد الشعر

تعليق د. محمد رضوان الداية

دار قتيبة ، دمشق .

* أبو الأسود الدؤلى

- ديوان أبى الأسود الدؤلى

تحقيق محمد حسن آل ياسين

منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، مطبعة المعارف ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

* أبو الطيب المتنبى

- ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى

ضبط وتصحيح مصطفى السقا ، ابراهيم الاييارى ، عبد الحفيظ شلبى

نشر دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٣٩٧هـ / ١٩٧٨م .

* أبو العلاء المعرى

- لزوم ما لا يلزم

- شرح نديم عدى
الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، دار طلاس ، دمشق .
- معجز أحمد
تحقيق د. عبد المجيد دياب
دار المعارف بمصر .
- * أبو العيناء - محمد بن القاسم بن خلاد
- أخبار أبي العيناء اليمامي
محمد بن ناصر العبودي
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- * أبو الفتح البستي - علي بن محمد بن الحسين
- أبو الفتح البستي (حياته وشعره)
د. محمد مرسى الخولي
دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م .
- ديوان أبي الفتح البستي
تحقيق درية الخطيب ولطفى الصقال
المجمع العلمي بدمشق ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- * أبو فراس الحمداني
- ديوان أبي فراس الحمداني
شرح وتقديم عباس عبد الساتر
دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .
- * أبو الفرج الأصفهاني
- الأغاني
دار الثقافة، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

- * أبونواس - الحسن بن هاني
- ديوان أبي نواس - برواية الصولي
تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثي .
دار الرسالة للطباعة ، بغداد ١٩٨٠م .
- * الباخري - علي بن الحسن الباخري
- حياته وشعره وديوانه
تأليف وتحقيق محمد التونجي ، مطبعة دار الكتب ، بيروت .
- * البحتري - الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي
- ديوان البحتري
تحقيق حسن كامل الصيرفي
الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .
- * بديع الزمان الهمذاني
- ديوان بديع الزمان
تحقيق يسرى عبد الغنى عبد الله
دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨م .
- * البغوي - أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء
- شرح السنة ج ١٢
تحقيق وتعليق شعيب الأرناؤوط
المكتب الاسلامي ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- * التنوخي - أبو علي المحسن بن علي
- الفرغ بعد الشدة ج ٢
تحقيق عبدو الشالجي
دار صادر ، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

* الثعالبي - أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري

- يتيمة الدهر

دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

- تتمة اليتيمة

تحقيق د. مفيد قميحة

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ديوان الثعالبي

تحقيق د. محمود عبد الله الجادر

عالم الكتب ومكتبة النهضة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

* الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر

- البخلاء

تحقيق طه الجاجري

الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر .

- رسائل الجاحظ ج ٢

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون

مكتبة الخانجي ، القاهرة .

- الحيوان ج ٦

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية

١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .

* جحظة اليرمكي - أبو الحسن أحمد بن جعفر اليرمكي

- جحظة اليرمكي (الأديب الشاعر)

د. مزهر السوداني

مطبعة النعمان ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، بغداد .

- * الجواليقي - أبو منصور الجواليقي
- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم
تحقيق أحمد محمد شاكر
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦١هـ .
- * حسان بن ثابت الأنصاري
- شرح ديوان حسان بن ثابت
ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي
دار الأندلس ، بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- * الحسين بن الضحاك
- أشعار الخليل
جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج .
دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠م .
- * الحمدوى - أبو على اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه
- ديوان الحمدوى - مستل من مجلة المورد المجلد الثاني العدد الثالث
جمع وتحقيق أحمد النجدى
دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
- * الحموى - ياقوت الحموى
- معجم الأدباء ج ٢، ١٧، ١٨، ١٩
مراجعة وزارة المعارف العمومية ، الطبعة الأخيرة ، دار احياء التراث
العربى .
- معجم البلدان ج ٢، ٣
توزيع دار الكتاب العربى ، بيروت .
- * الخالديان - أبوبكر محمد وأبو عثمان سعيد ابني هاشم الخالدى
- ديوان الخالدين

جمع وتحقيق د. سامى الدهان

المجمع العلمى العربى ، دمشق ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

* الخباز البلدى - أبو بكر محد بن أحمد بن حمدان

- شعر الخباز البلدى

جمع وتحقيق صبيح رديف

الطبعة الأولى ١٣٦٣هـ / ١٩٧٣م ، مطبعة الجامعة ، بغداد .

* الخطيب البغدادي

- تاريخ بغداد ج ١

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

* داعى الدعاة

- ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة

تقديم وتحقيق محمد كامل حسين

دار الكاتب المصرى ، القاهرة ١٩٤٩م .

* دعبل بن على الخزاعى

- شعر دعبل بن على الخزاعى

صنعة د. عبد الكريم الأشر

الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، مجمع اللغة العربية ، دمشق .

* الدميرى - كمال الدين محمد بن موسى

- حياة الحيوان الكبرى ج ٢

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ، الطبعة الخامسة

. ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

* الزمخشري - جار الله محمود بن عمر

- أساس البلاغة

تحقيق عبد الرحيم محمود

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

* السرى الرفاء

- ديوان السرى الرفاء

تحقيق حسين حبيب الحسنى

دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

* السيوطى - جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر

- تاريخ الخلفاء

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .

* الشاشتى - أبو الحسن على بن محمد

- الديارات

تحقيق كوركيس عواد

دار الرائد العربى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

* الشافعى - أبو عبد الله محمد بن ادريس

- شعر الشافعى

تحقيق د. مجاهد مصطفى بهجت

مكتبة القدس ، بغداد ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

* الشريشى - أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى

- شرح مقامات الحريرى ج ٥

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

نشر المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة .

* الشريف الرضى

- ديوان الشريف الرضى

. دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* الشريف العقيلي

- ديوان الشريف العقيلي

تحقيق د. زكى المحاسنى

. عيسى البابى الحلبي وشركاه .

* الشريف المرتضى

- ديوان الشريف المرتضى

تحقيق رشيد الصفار

. عيسى البابى الحلبي وشركاه ١٩٥٨م .

* د. شوقي ضيف

- العصر العباسى الأول

. دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة .

- العصر العباسى الثانى

. دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى

. دار المعارف بمصر ، الطبعة الحادية عشرة .

* صردر - على بن الحسن بن على بن الفضل

- ديوان صردر

. دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ / ١٩٦٤م .

- * الصنوبرى - أحمد بن محمد بن الحسن الضبي
- ديوان الصنوبرى
تحقيق د. احسان عباس
نشر دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠ م .
- * الصورى - عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون
- ديوان الصورى
تحقيق مكى السيد جاسم وشاكر هادى شكر
دار الحرية ودار الرشيد ، بغداد ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .
- * الصولى - أبو بكر محمد بن يحيى
- أخبار الرضى بالله والمتقى لله
نشر ج.هيورث . دن
الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م ، دار المسيرة ، بيروت .
- * الطبرى - أبو جعفر محمد بن جرير
- تاريخ الطبرى ج ٩
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة .
- * د. طه حسين
- مع المتنبي
الطبعة الحادية عشرة ، دار المعارف بمصر .
- * العباسى - عبد الرحيم العباسى
- معاهد التنصيص ج ٤
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧ م .

* عبد الرزاق البدرى

- شعراء وأدباء فى العصر العباسى فى سامراء
دار القادسية ، بغداد .

* عبد الصمد بن المعذل

- شعر عبد الصمد بن المعذل
تحقيق زهير غازى زاهد
مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

* عبد العزيز الميمنى

- الطرائف الأدبية

دار الكتب العلمية ، بيروت .

* العسكرى - أبو هلال الحسن بن عبد الله

- ديوان العسكرى

جمع وتحقيق جورج قناز

المطبعة التعاونية بدمشق ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م .

- ديوان المعانى

عالم الكتب .

* على بن الجهم

- ديوان على بن الجهم

تحقيق خليل مردم بك

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* عمارة بن عقيل

- ديوان عمارة بن عقيل

جمع وتحقيق شاعر العاشور

الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، مطبعة البصرة .

* الفيروز ابادى - مجد الدين محمد بن يعقوب

- القاموس المحيط

تحقيق مكتب تحقيق التراث فى مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة ،

الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

* القرطبي - الامام أبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري

- بهجة المجالس وأنس المجالس

تحقيق محمد مرسى الخولى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

* القيروانى - أبو اسحاق ابراهيم بن على الحصرى

- زهر الآداب وثمر الألباب

تحقيق على محمد البجاوى

عيسى البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الثانية .

* كشاجم - أبو الفتح محمود بن الحسين الكاتب

- ديوان كشاجم

المطبعة الأنسية . بيروت .

* لييد بن ربيعه العامرى

- شرح دوانه

تحقيق الدكتور احسان عباس .

مطبعة حكومة الكويت (طبعة ثانية مصوره) ١٩٨٤م .

- * المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد
- الكامل ج ٢
تحقيق محمد أحمد الدالي
مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- * محمد جبار المعبيد
- شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري
مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٧م .
- * د. محمد رضوان الداية
- أبو البقاء الرندي "شاعر رثاء الأندلس"
مكتبة سعد الدين ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- * د. محمد مصطفى هدارة
- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري
المكتب الاسلامي ، دمشق وبيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- * محمود غناوى الزهيرى
- الأدب فى ظل بنى بويه
مطبعة الأمانة بمصر ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م .
- * المسعودى - أبو الحسن على بن الحسين بن على
- مروج الذهب ج ٤
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- * المقرئى - تقى الدين أبى العباس أحمد بن على
- الخطط المقرئية
دار صادر ، بيروت .

- * منصور بن اسماعيل الفقيه
- منصور الفقيه "حياته وشعره"
د. عبد المحسن فراج القحطاني . دار القلم، بيروت .
- * مهيار الديلمي
- ديوان مهيار
دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى .
- * الميداني - أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم
- مجمع الأمثال
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- * الميكالي - عبيد الله بن أحمد بن علي
- ديوان الميكالي
جمع وتحقيق جليل العطية
عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- * النيسابوري - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري
- صحيح مسلم ج ١
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
دار احياء الكتب العربية ، القاهرة .
- * الوأواء دمشقي - ابو الفرج محمد بن أحمد الغساني
- ديوان الوأواء دمشقي
تحقيق سامي الدهان
المجمع العلمي العربي بدمشق .
- * الوشاء - أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى
- الموشى "أو الظرف والظرفاء"

دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٠/١٤٠٠م .

* ول ديورانت

- قصة الحضارة م ١ ، ج ٢

ترجمة محمد بدران

الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

* د.يونس أحمد السامرائي

- شعراء عباسيون ج ١

عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى

. ١٩٨٦/١٤٠٦م .

- شعراء عباسيون ج ٢

عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى

. ١٩٨٧/١٤٠٧م .

- شعراء عباسيون ج ٣

عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى

. ١٩٩٠/١٤١٠م .

- آل وهب

مطبعة المعارف ، بغداد . الطبعة الأولى ١٩٧٩م .

فهرس الموضوعات

٤ شكر وتقدير
٥ المقدمة
١٢ التمهيد
الفصل الأول : التحلل الدينى	
٢٩ (١) اللهو
٣٥ (٢) وصف الخمر
٥٢ (٣) فى ذم المرأة
٥٩ (٥) فى التنجيم والشعوذة
الفصل الثانى : التحلل الخلقى	
٦٧ (١) التنكر للصديق
٩٠ (٢) اللئام
١٠٥ (٣) النفاق
١١٩ (٤) الغيبة والنميمة والوشاية
١٣٧ (٥) فى الكذب
١٥٠ (٦) فى الحسد
١٦١ (٧) فى ذم اللحن والحضاب
١٧٤ (٨) فى الجن وقصر الهمة

الفصل الثالث : الاقبال على الماديات والحرص على المال	
١٨٦	(١) المال وأثره على العلاقات الاجتماعية.....
١٩٨	(٢) البخل.....
٢١٤	(٣) ظاهرة الكدية.....
٢٢١	الخاتمة.....
٢٢٥	الفهارس.....
٢٢٦	فهرس القوافي.....
٢٣٧	فهرس الأعلام.....
٢٤٣	فهرس المصادر والمراجع.....
٢٦١	فهرس الموضوعات.....